

واسيني الأعرج

7.000

رواية

نوّار اللوز

تعريبة صالح بن عامر الزوفري

واسيني الأعرج

نوار اللوز

رواية

(تغريبة صالح بن عامر الزُّوفري)



دار الحداثة
الحمرا ـ راس بيروت ـ اول نزلة اللبان
بناية انيس عساف ـ ط ٧ ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩

الطبعة الاولى
١٩٨٣

فاتحة الرواية

(١)

• إلى العزيزين زينب وباسم.

معاً إلى آخر المشوار.

واسيني الأعرج

• قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها مُتْعِبَة، تنازلوا قليلاً وأقرأوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتماً تفسيراً واضحاً لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا: الأمير حسن بن سرحان وذياب الزغبي وأبو زيد الهلالي والجازية (...). فمنذ أن وُجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة (...).

وحتى لا أثقل عليكم وأبدو أتعس من أبي زيد الهلالي، أو الأمير حسن بن سرحان (من التغريبة) أقول ان أحداث هذه الرواية هي من نسيج الخيال بشكل من الأشكال، وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينها وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة، على وجه هذه الكرة الأرضية، فليس ذلك من قبيل المصادفة أبداً.

• واسيني الأعرج

(٢)

•من تأمّل هذا الحادث من بدايته الى نهايته، وعرفه من أوله

الى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد (...)

• المقريزي: إغاثة الأمة، في كشف الغمة


الفصل الأول
1982

١ - تفاصيل صغيرة...

مسكوناً بالدهشة كان، وبرائحة الحناء البدوية والإحتراق.

حاول فتح عينيه المتعبتين بتكاسل. برد الشتاء ينفذ الى العظم كالإبر ويؤوي شهوة النوم. بدا له رأسه ثقيلاً وأعضاؤه مرهقة. تسرب في دمه مذاق (المسواك) البدوي والعطور الصحراوي الذي ينبعث من الجازية كلما تشقق حائط بيته الهرم، قبل أن تعود على أعقابها، تجر أتعاب بلاد المغرب، وبؤس نجد، في كفها خاتم عودها الذي لا يتعب.

تمنيت بيأس الإنطلاق أو يتبعك، لكنها يا الله، كالنور تشق الحيطان، وكالومض تروح وكأنها لم تكن. إنها لحظة التعبد للأشياء الجميلة التي لا تعرفها يا صالح فما زلت بدوياً حتى العظم، لا يعرف فلسفة التفاصيل الصغيرة التي يعيشها.

«رأسك خشن يا صالح الزيواني. يا وليد البراريك. مثل أحجار الوديان».

هه يا الجازية. يا أخت الحسين بن سرحان. ليلة البارح أنتظرتك بحب العاشق المحترق. وحين جئتني في ساعة متأخرة من الليل، وكنتُ متعباً من السكر، حاولتُ لمسك، فأحترقتُ بين أصابعي. بكيت كثيراً وبعدها أغمضت عينيك. سحبت وراءك خيالك وقصدت بلاد الغرب التي كان الزناتي خليفة قد أغلق أبوابها الأربعة، قبل أن يموت، وتسقط عيناه في سواد الخوف، وتسقطي أنت تحت قبضة دياب الزغبي.

متشابهون يا الجازية كالدم والنار.

تأتون، وكالبرق، تعودون.

حتى المسردية التي لا تملك إلا طيبوبتها، ذبحتني من القلب. ذهبت، ورغوة الأمومة ما تزال تملأ ثدييها وفمها. ولو نحّا خاتمة الأنبياء، من حادثة التبن، لم أعد أراها أبداً. وحق محمدٌ اشتقت الى وجهها النبوي الذي لا يمل. لكنك يا صالح، يا ربك، رأسك كأحجار الوديان. أحد أتعس سلالة بني هلال التي قادها الجوع الى التهريب وحرق مدائن المغرب.

آه يا صالح، يا صالح..
«يَا صالح، يا الصَّالح
يَانــا.
يا القَمْح البَلْيُوني..
وعيونَك آ صالـح،
كُحْل وعَجْبُوني
يا صَالح آ الزينْ.. يا عيْنَيْن الطَّيْر...»

ماذا يا صالح، يا آخر سلالة بني هلال. أيها القمح (البليوني)[1] بدأت تتفسخ مرغماً، وتسقط من عينيك كل الأشياء الجميلة التي أنبتها في قلبك الشهداء ودهر من الحزن، ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف الذي لا يعرف الغمد، والتهريب، والجوع، والفنطازية الخاوية (؟؟؟) وصدقك الذي لم تعد له أية قيمة. صدّقوني، فالتربة التي أحرقت أصابعي، وملأت أشواكها أقدامي وعيوني، لم تعلمني الكذب ولا حتى مجرد التفكير فيه، إلا عند الضرورة القصوى، لكنها علمتني الإحتراق يا صالح (خويا) وكل ما يدفع المرء الى تنفيذ حكم الإعدام في نفسه، وبأقصى سرعة. الحكاية (يا صالح يا الزين.. يا عينين الطير)، تناقلناها بمشقة عن الذين سبقونا في الشهادة. وحق راس عودي وعيون لونجا البحرية، وشعرها الأسود الذي كتفتُ به فرسان العشق، وخيالة الأزمنة المنقرضة، أن التربة التي نبتُّ فيها علمتني الرجولة وأغرقتني بإرتكاب المعاصي والحماقات.

يروى أيها السادة الطيبون، والعهدة على سيدي علي التوناني، أن قبيلة أولاد عامر كانت مركز المتاعب، ومصدر قوة الهلاليين، لكن الزمن دار عليها، فطحنها كما تطحن في هذه الأيام قلوبنا وحواسنا التي ما تزال تشتغل. وحكي الكثير عن هذا التساقط الرخيص. قيل فيما قيل، أن

جيلنا سيمشي واقفاً كأحطاب الزيتون. سيعلونا الدود، وعيوننا مفتوحة. سننقرض، وسنضطر أن نجبر حكامنا، أن يقدموا لنا شهادة إنقراض تسهل لنا عملية الخصب والزواج، علنا نتوصل الى الحفاظ على السلالة التي ملأ ضجيجها الدنيا ذات زمن. حتى الجازية، حاربوها، فماتت كل النطف التي بثقت رحمها سراً.

فالأوّلون، وهم صفاء السلالة أكلتهم الزلازل والمجاعات وأمراض التيفوس التي اجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف، فمات الصغيرُ والكبير. وحين حل القحط بالمناطق الرعوية، ركبوا البيداء. أكثرهم مات في الطريق عطشاً وجوعاً ومعه دوابه، وأغنامه وجماله. تفلّحت شفاههم من كثرة الشمس المحرقة، وأكل الكرموس[1] وشرب مياهَ العيون المالحة، والفلفل الأحمر المشوي على التنانير البدوية التي لا ينطفىء جمرها. وصرع لجنون البقية المتبقاة. ويقول مؤرخ البلدة سيدي علي التوناني، ومعه قدماء البلدة، وأعيانها، الحمد لله الذي خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاماً، فكسا العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً. فتبارك الله أحسن الخالقين، يهدي من يشاء بتوفيقه الى جنات النعيم ويضلُّ من يشاء عن الخير ويجعله في الجحيم، وكذا كان بأولاد عامر حين طمع فقيرهم في غنيّهم. فدار عليهم الزمان، وسيدور على ما تبقى من باقي هذه السلالة. وقد ينجو وجه محروق، لم تتلفه رمال الصحراء - هكذا يقول الطالع - وسيعيد مجدداً ركبه التراب، وقد يبعث الذرية الى الخلق من جديد.

وتقول أمي التي جنّت بدورها بعد أن التهم ذراعها الأيمن كلب أجرب ومكلوب، أني حين ولدَت وأختي خضراء التي تزوجها رجل طيب، دفعها عقمه الى تبني طفل وُلد مهووساً بالتجارة، تلاقحت الأزمنة الجافة وتساقطت أمطار قوية على غير العادة، وأشرقت الشمس من المغرب، ولأول مرة مذ كان الكون كوناً، ومذ كانت الدنيا دنيا. ولمعت الأنجم في

---

(١) التين.

وضح النهار، مع لمعان الشمس. ويومها كان الطاعون يأتي على ما تبقى من السلالة، وليل الرحلات والسفر في البراري والقفر، يلوي أعناق بقايا رجال القبيلة. كنت المعوّل عليه، لكني كبرت فقيراً، والقبيلة التي تحضنني، تفككت أواصرها، وذهبت أخبارها مع الريح.

حتى رئيس البلدية بودلخة يا صالح، وُجد ذات فجر يعوم منتفخاً على سطح مياه الوادي، مطعوناً عشر طعنات قاتلة، وأقسم برأس عودي أن الذين وضعوه، وهو من السلالة التي تلاقحت مع سلالتنا، هم أنفسهم الذين حاربوه حتى الموت، حين بدأ يفلت بلزوجة من أكفهم. هددهم بإخراج ملف سرقة إسمنت المدارس وبناء «الفلاّت»، ولوّح السبايبي (راس الغول) بمعارفه بالعاصمة، وبسيفه الذي ورثه عن أجداده القيّاد[1].

آه يا صالح. السبايبي هو راس الغول. أينك يا السيد علي الذي يرفض أن يذبح كالنعجة، ويداه قادرتان على الفعل. أينك يا الكتاتبي. في يدك مفاتيح اللعبة، فلماذا يا ربك كل هذا الصمت المرهق؟؟؟

فتح عينيه. تنهد بعمق.

«يلعن الشيطان ولد الحرامي».

شخت يا صالح، يا القمح البليوني، بدأت تتحول الى السي عمر بوحلاقي تحكي عن الزلازل المخيفة، وعن يوم القيامة، وكيف أن الدم سيسيل، ويقيم السيف في الأقطار غمداً، وكيف يظهر الفارس الملثم الذي يظلم العباد، ويسقط تحت ضغط الدجّال. يطوف الأرض شرقاً وغرباً. ويفعل المعجزات، ويظهر المهدي، لكن ابن مريم يقهره ويملك في العباد. وتأتي الدابة. وليعيذوا بالله من الدابة، حية لا رأس لها، ولا تابع. تنقلب الخلائق على رؤوسها، وتظهر الشمس من المغيب. فلا نهر الفرات يجري ولا دجلة تروي اليباس. وتظهر النيران في البلاد وبعدها ينكشف من وراء الدخان الكثيف، وجه الديّان العادل ويقتص لكل المظلومين.

---

(١) من قائد – كانوا عملاء للاستعمار الفرنسي بالجزائر.

شحت يا صالح مثلما شاخ عود عمر بوحلاقي العجوز. الحكاية طالت يا ولد أمتي. وإذا أنتظرنا حتى يأتي الديّان انقرضنا كالحشرات الضارة، وانقرض أطفالنا. وحق محمد، فالمهدي، بدمه ولحمه وعنفوان نوره، إذا دخل هذه البلاد، سيقف حتماً في مؤخرة حمارته العجوز، ويختبىء بين رجليها، منتظراً حتى تحل المصاعب، ليظهر وجهه الملتحي.

عمر بوحلاقي لا يعرف من الدنيا غير عذاب القبر، والقيامة وزلازل الآخرة.

«آه يا عمر خويا، صدقني أن العمر كله حلاقي. يا تخرج من الدائرة. يا تموت داخل عفن الدائرة. أنت وقدرة عودك الذي تركبه».

نهارنا يا خويا عمر مخيف. وليلنا متعب كدمع اليتامى. تصوّر، حين غادرتني الجازية وعادت شقوق الحائط الى التئامها الطبيعي. أُغمضت عيني في ساعة متأخرة من الليل. رأيت السكاكين تهاجم حواسي الخمسة، والنيازك التي تندفن في العيون وفي بطون أطفال الأحياء الفقيرة. واستيقظت على ريح صحراوية حامية حولت خضرة العيون الى يباس. مع أن المسألة في هذا الفجر لم تبدأ بالشكل الدرامي المرفوض. فقد رأيت وسط هذا الخوف، وللمرة الثانية، وجه لونجا. زوجة إمام القرية المتوفي. ذات العيون المتسعة. كانت تحت رحمة جثتي. الملعونة جميلة. تخاف وتخيف. كالأنبياء تماماً.

يا لطيف. هذه الطفلة بركان. حتى ابن مريم، لو يراها، على عفته، سيسقط ضحية عينيها الحارقتين.

«يا بابا صالح. يا شيخ، استح. أنت طُحنت والبنت ما تزال تفّاحة».

لا. تفو. تفو.

من قال هذه الحماقات؟؟ مؤكد أنها رواسب سيدي علي التوناني التافه لدرجة القرف. اللي جاي يا بابا صالح أكثر من الذي فات. انكسر الزمن

الذي كنت أحلم فيه بأن أتحول الى أبي زيد الهلالي، حين حملت سيفاً عربياً مكسوراً، وركبت دابة جائعة وبدأت أدور في مكاني حتى أغمي علي. نحن في زمن صالح ابن عامر الزوفري الذي لم يرث من قبيلته غير صياحات ودماء الفقراء، والسيوف التي لا تعرف الأغماد.

«آه يا التوناني، أنت لم تدوّن إلا الكذب. حروفك كانت مدفوعة سلفاً من طرف الناس الذين سجلت أنتصاراتهم».

فرك عينيه في الفراش. مرة أخرى حاول أن يقاوم لذة نوم الفجر وكسله. شعر بنشوة الدفء تصعد من كافة أعضائه. تذكر طفولته التي قضاها في العراء. يلبس سروالاً قصيراً مقطعاً عند الركاب وعند الأليتين. العيون دامعة. الأنف ملتهب، والمخاط الذي لا يعرف التوقف. وأكمام الأقمصة المتسخة.

تفو يا لطيف. من «التوناني» إلى «بنّسنس» أحمر العينين. الملعون. طفولة مقتولة يا الله في المهد. قبل أن تفتح عينيك الصغيرتين يختقونك كأفراخ العصافير. وحق محمد. بين التوناني وبنسنس، والبزناسي، مسافة أصبع أو أقلّ. الأول أصبحنا نخافه. حتى تحول الى نبي. كلامه فوق كل شيء. بنّسنس، عرش خوفه في قلوب الصبية المخطوفين. كنا صغاراً. حين نسمع بأسمه ترتعد فرائصنا في الفراش. يقول حكماء البلدة الذين عرفوه عن قرب، كانت تجمعه بوح البزناسي محبّة كبيرة على القتل وهدر دماء الصغار. يسرقون الأطفال ذوي العيون «الزوهرية»[1]. يذبحونهم على أبواب المغارات، ويغسلون التربة بالدم وبالأمخاخ التي ينتزعونها من بقايا العظام المكسورة. ثم يقرأون قرآناً ويلجون قلب المغارات المخيفة في محاولة يائسة للعثور على الكنز الذي حكى عنه الأسلاف. هذه هي معتقدات البلدة التي لم تكسرها هزائم الدهر. وحين يدخلها الشخص القادم على جواد أسود، تتجارى النسوة نحوه، وتتنادين عند أقدامه، تذبحن الديكة والخرفان السوداء إرضاء له حتى لا يأخذ أطفالهن. أمّي كانت تخاف علي

(١) علامة خاصة في بياض العين وخط مستقيم يقطع منتصف الكف.

حتى الموت من الجياد السوداء. لأن (الشلطة) التي في عيني تجعل مني زوهرياً موضوعاً قيد الخطف.

منذ طفولتنا والأشياء السامة تقتلنا من الداخل بالتقسيط. الذعر المزمن يا بابا صالح. بهدوء تمددت عيونه وأصابعه تحت الوسادة. تحسس التبغ الشعبي القديم. شنشنت تحت يديه قارورة « الشمّة » الورقية. كالعادة من كل فجر، لفّ سجارة « الشعرة ». قرّبها من فمه. ثم أوقدها من المصباح الزيتي الذي كان عند رأسه. الفتيلة كانت ذابلة، نورها شاحب يميل نحو زرقة تحتضر، وصفرة داكنة، أتعبها الدخان الأسود الذي يملأ زجاج المصباح. تراءت له قناني الروج[1] التي كانت تملأ الدار مثل نساء مطلقات، هاجرن مرغمات دفء الزوجية. لم يقل شيئاً ولكنه تذكر من جديد وجه الجازية، ومتاعب الليلة الماضية. هذه هي عادة صالح الزوفري. عندما تقتحمه الأحزان، ينزوي في برّاكته، ويخرج بقايا الروج المعتقة. ويأتي عليها واحدة واحدة، حتى يرى الحائط ينشق، لتتسرب منه الجازية مثل الومض بلباسها الفضفاض الأبيض. عيون الجازية تذبح يا عباد الله. يختلط وجهها بوجه السيردية ولونجا. الجازية حين تخرج من الحائط، يحلف المرء أنه رآها، في يدها سيف عربي أصيل، في مكان ما من هذه الأرض الواسعة. وحين يحاول أن يتذكر خطوط وجهها النبوي، تخونه الذاكرة فجأة.

ينام على خزرة عينيها اللتين لا ترمشان أبداً.

لم يدر كيف رفع عينيه نحو السقف الهرم. أخذ نفساً، إكتسحت معه جمرة السجارة نصف طولها. تذكّر أنه من بين هذه الأخشاب تسربت الجازية حين حاول لمسها. كانت مُرهقة، ممتلئة بالحزن. تحجّرت في عينيها دموع الحسن بن سرحان الذي أكلته مسافات نجد الليلية، وبلاد الغرب. بدت له الأخشاب بالية فوق العادة. ومتقاربة، على غير تنظيمها ليلة

---

(١) النبيذ الأحمر

امس، حين ابتعدت من تلقاء نفسها لحظات قبل أن يصهل عود الجازية ويطير بها الى البلاد البعيدة. تناهت الى أذنيه، خشخشة الفئران والحشرات الدقيقة التي كانت تتآكل، وتفرّخ بإنتظام داخل أعواد القصب القديمة، وشجيرات المارمان، والأخشاب التي سرقت من الغابة أيام الحروب الفائتة.

حين حاول رفع رأسه أكثر لذعته البرودة السامة. تكمّش داخل الفراش كقطعة جلد محروقة. «هه يا بابا صالح. الوحدة قاسية. ها قد عدت زوفرياً[١] كما كنت. حتى الجازية بدأت تنفرك هذه الأيام. تأتي، وبسرعة تعود».

كبرت يا صالح يا وليد سلالة المجانين، والزمن غدّار. وجسد الجازية غضّ وناعم. لا يلمسه إلا القادرون على إقتحام القلوب المغلقة.

تأمل الأرضية المتسخة وبقايا الزجاجات الخمرية الفارغة ورائحة النبيذ الأحمر. الكلبة «شطيبا» تنام مغمضة العينين في طبق الخبز. القطة لم يعد يسمع إلا «ترترتها» وحركتها الروتينية بين رجليه. لأول مرة، منذ وفاة المسيردية، يشعر بفراغ غيابها. المسيردية كانت طيبة، قلبها بحر وعيونها ساحة خيالة. ومع ذلك فقد كانت ترهب عيون الجازية.

حكيت لها عنها مراراً، تماماً مثلما رأيتها، ومثلما حكى عنها مشايخ البلدة وأصحاب الحلاقي في الأسواق الشعبية.

البرد. الوحدة القاسية. إيه يا بابا صالح بن عامر. الدنيا بنت الكلب. يبدو أن نبوءة سيدي علي التوناني السخيف ستصدق حتماً. فقد فشلت في الإخصاب، على الرغم من توفر هذه الإمكانية. الله يلعنك يا التوناني، لولا دعوتك المشؤومة، كان طفلي الآن، أحد أصدقائي.

عندما كانت المسيردية على قيد الحياة، كانت الدار أكثر تنظيماً. كانت

---

(١) وحيداً.

حبلى، وكنا نحلم كثيراً بالأشياء الجميلة التي لم نرها أبداً في حياتنا. حتى الحيوانات كانت تحترم نفسها. حين تشعر بنا قريبين من بعضنا البعض، لحظة صدق وعري، تتخبأ وراء الأغطية القديمة، أو داخل الأحذية والقش الموضوع في زوايا البيت. حين أفتح عيني مع نجمة الفجر أفاجأ بالقهوة جاهزة وبوجهها المبتسم دوماً:

- «صالح بن عامر. يكفي من النوم. لم تعد ولد البراريك الزوفري».

آه يا بنت الناس. إنتهكتك مصائب هذا العالم التعيس. الزوفرية عادت ببرودتها وقساوتها، ووحشيتها. لم تنته أبداً. أنت التي أنتهيت وانتهى معك الطفل الذي اشتهيته وحلمت برؤية عينيه الطيبتين، وإستعادة الذرية المفقودة. يبدو أني فعلاً سليل العائلة المخصية التي دعا عليها سيدي عبد القادر الجيلاني أبشع دعواته. سيدي عبد القادر الجيلاني والعياذ بالله. لحقتنا دعاوي الأولياء، والأنبياء والصحابة يا بنت الناس.

وَسط متاعب الوحدة، أتذكرك. صدقيني يا المسيردية أني حين أجوع أتذكرك بعمق وحنان، مثلما أتذكر طفولتي. في كل لحظة تفاجئني عيونك الجميلة وقدرتك الخارقة على إشباع بداوتي النهمة. أتذكرك الآن يا ابنة سيّد الرجال، مثلما أتذكر أمّي التي ورثت أحزان أبي وقبيلتها، وكيف كانت تطبخ لنا قوائم الدجاج وعظام الأغنام التي كانت تلتقطها من أفواه الكلاب ومن تحت أرجل الجزارين. تغليها في الماء، وحين يدخل الجوع وبرد المساء عيوننا، تقدمها لنا وتوهمنا بأننا أكلنا لحماً تفسخ من كثرة الحرارة مع البطاطا والجزر واللفت. ذات مساء، حين أخذت الملاعق في الصعود، وفي النزول، تحسست تحت الملعقة الخشبية شيئاً صلباً. والشيء نفسه حدث مع أحد إخوتي. في البداية ظنّناه لحماً ولكن سرعان ما أطلت من تحت البطاطا والحساء، قوائم الدجاج الهرم. في ذلك المساء البارد كالحرقة، ضحكنا كثيراً حتى كدنا نجهش. لكن أمّي في خفاء ما، كانت تذرف بقايا دموعها التي جفّت. وفي الليلة نفسها، رأيت في منامي أفراساً بيضاء، تسقط في الوحل وتتحلل مع ذرات الضباب وتقدم طعماً

للحيوانات المفترسة في صحون لا لون لها ولا شكل. رأيت عيون الآدميين والحيوانات تبكي حتى تنقبح. فالريح لم تعد ريحاً. والوجوه التي ألفناها لم تعد وجوهاً.

«آه يا المسيردية يا بيتي. فصالح الزوفري يظل زوفرياً حتى يسقط كالحشرة». لفت إنتباهه من جديد سقف البيت. الذي بدأ ينتفخ ويثقل.

«آخ. الله يحفظ. ذات صباح. نردم أحياء تحت أنقاض هذه البراكة. أنا ولزرق والكلبة شطيبا والقطط».

يا لطيف. هذه حالة المسكين. الهرة. والميزيرية الكحلاء. والترابانديو. والموت. وأولاد لاليجو[1] ينتفخون. أولاد لاليجو سقطوا من تاريخ سيدي علي التونالي. حكى عن طمعنا في أموالهم. ولم يحك عن قذاراتهم وتفاهتهم. هو البارح فقط قتلوه. الـي لخضر. لا أحد يدري من سيكون دوره المرة القادمة. وجدوه عند حائط عتيق. تنام داخل رأسه ثلاث عيارات نارية إنتزعت طفولته وأحلامه. مخه ملتصق بالحجارة الصلدة. الفك الأيسر إنفصل عن الفكّ الأيمن. عظام الرأس تهشمت وتوزعتها الأتربة السوداء. والفضاءات الواسعة التي لا ينتهي امتدادها. شاشيته التونسية الحمراء. عثر عليها في يد طفل. وقف مشدوهاً. يردد ويعضّ على إبهامه بقوة:

- «عمّي لخضر قتلوه. عمّي لخضر قتلوه».

صدقني يا لخضر أني لا أعرف من منّا نحن الباقون، سيلتحق بك. أنا. العربي، أطفال حي البراريك(؟؟؟). المسألة تعقدت يا وليد البلاد. كل الناس غسلوا أياديهم من دمك. عسكر البلد المجاور ينفي أنه رأى سحنتك الهزيلة. عسكرنا موّلوا دفنك. ورفضوا تهمة قتلك. مع أن المسألة ربما واحد. لخضر مات. ودمه برد. وإنكوى صغاره في قلوبهم. لم يكن مهرباً

---

(١) تطلق على الذين هم جزائريون متطوعون مع فرنسا. أصل الكلمة LA Legion

ماهراً قادراً على ممارسة قذارات اللعبة. لو كان فقط مثل أبي زيد الهلالي. يهرب بضائع بلاد نجد، الى بوابات تونس الخشنة. كانت المسألة قد حلت. لو فقط كان مثله. وخسرناه في الرحلة، كنا بكيناه ونسيناه. ولكنه كان لخضر يا عباد الله. ولم يكن أبا زيد الهلالي (أحد أتفه المهربين).

لخضر أغرته اللعبة وبنادقهم كانت عمياء بالليل والنهار.

هم يلعبون اللعبة القذرة حتى النهاية. ونحن ندفع الثمن من لحمنا. حتى المنزين هذه المرة. أخذوه. حملوه في الشاحنات، وفي وضح النهار وتاجروا به أمام أعيننا. أواه، وراء هذه العمليات الضخمة رجال قديرون. لا يؤمنون بلعبة الصدفة التي نسقط دائماً ضحاياها. نحن نسقط. وهم اخر من يمكن أن تلصق به التهمة. أنا متأكد أنهم كبار. ووراءهم من يحميهم. يجنون أرباحاً مفزعة مثل تلك التي كان يجنيها أبو زيد الهلالي أنت طيبة يا الجازية. لكن أهلك الكبار. دياب الزغبي. والأمير حسن بن سرحان. كانوا يقامرون بعيون أطفالك وبالنفط وبأعناق الفقراء.

قاوم البرودة. نهض من فراشه بصعوبة. فتح الباب بهدوء كبير، تسربت معه لفحة باردة كالثلج.

– « أوف. هذا برد الثلج. الله يجيبها في الصواب ».

أطلّ على الساحة، من وراء الباب الخشنة التي شهدت كل الحروب الفائتة. لقد سرقها من ثكنة عسكرية، مباشرة بعد الإستقلال. شوكت لحمه أنساه الفجر الأشياء الباردة تلتصق في الحلق كالنار. تلمس الباب التي نفختها مياه الشتاء. « هذه الباب شاهد علي على أيام الدمار الفائتة. حتى هي أصبحت تمارس طقوسها على هواها ».

يا الله. الأيام التي التهمت كل الأشياء الجميلة فينا، أعطتنا شيئاً أجمل وأروع، لكنه بدأ يتشوه مع قساوة الأيام وكثرة أولاد لاليجو الذين بدأوا ينتشرون كالبقر المتوحش.

في هذه البلدة التي ينبت فيها الخوف مع الرغيف، وتخزن شمسها وراء الغيوم الثقيلة. الموت والحياة وجهان لنمط واحد من الخلق. إنها البلدة التي تنام على أطراف الحدود. في الحروب هي أول من يدهس وآخر من يتذكره المؤرخون. مسيردا الجميلة التي يأكل حقولها دود لاليجو. جمارك الحدود يحشون أطفالها كطلقة رصاص. يفتشون ألبستهم وقماطهم. تصوروا حتى الإمام الذي يصلّي وراءه آلاف الخلق. قبل أن يموت وتبقى البلدة بدون إمام. كان مهرّباً. وجدوا عنده بالبيت قطعاً من كتان « جانيتو » و « الرتيلاء » وإسوارتين ذهبيتين. أتهمت لونجا البربرية بالعَمْلَة. قيل أن القبائلية هي السبب. فهي ما تزال شابة، وقادرة على ممارسة هذه اللعبة الميتة. تصوروا يا عباد الله، أو على الأقل حاولوا أن تفعلوا ذلك. لو كانت ظروف النحس طبيعية، ما سقط لخضر، وما تحوّل إمام القرية الى مهرِّب ماهر للكتّان. أقسم بليل عيونك يا المسيردية، هذه البلاد التي أحرقتنا في القلب، إما أن تتحول الى امرأة وديعة وطيبة، أو سأقدم على إرتكاب حماقة في حقّها قبل أن أسقط محترقاً عند أقدامها المحناة دائما. المهنة القذرة يا المسيردَية. داخلها مفقود والخارج منها مولود.

تصور يا القهوجي الطيب، يا رومل، تصوري يا الجازية، يا أخت الحسن، لو وجدنا شغلاً بسيطاً في حي البراريك ما أكلتنا مخاوف الحدود. حين نفقد طعم الحياة، نعود الى أكل بعضنا البعض. نتآكل فيما بيننا كالحيوانات المفترسة. لا شيء في هذا الحي غير البرد والجوع وبيوت التنك والوحل، وتصفية الحسابات القديمة بالمديّ، والجنازات.

السـدّ.

كه.. كه.. حتى حكاية السد، بدأت تتحول الى أسطورة تافهة. نسمعها ونشك في تصديقها. يبدو أنه خبر عادي، كأي خبر. الحكومة دائماً هكذا، تثرثر أكثر مما تفعل. حكاية إنجاز سد بالمنطقة بدأت منذ أكثر من سنتين، وحتى الآن لم نَرَ شيئاً مهماً. في كل شهر يقولون، الشهر القادم، هكذا... تماماً مثل حكاية أراضي السبايبي التي أممت وبقيت هكذا.

يعدون الفلاحين بتوزيعها عليهم، وتنصيب تعاونية إنتاجية، وفي النهاية كل الحكاية وما فيها أنها كلام جميل. السبايبي كلب كبير. ركب كل الأكتاف والأنجم لكن يبدو أن المسألة تجاوزته. لم يعد يطالب بردّها إليه. إكتفى بتجميد القضية في إنتظار يوم يستطيع فيه أن يستردها. ثقته بنفسه صارمة. أنا خائف يا الجازية. صدقيني إني خائف منهم. فالأرض التي نمشي عليها حوّلوها الى ورقة توت جافة، كل يوم يقضمون منها قسماً، كالجرذان. أصبحت أخاف من الذين يتحكمون في أنفاسنا. كل شيء أصبح محتمل الوقوع. أسعار الخضر أصبحت مخيفة. أصابعنا إحترقت. موح لاكابس يقول أن السبب هو غياب نظام التسويق. الإذاعة تقول الغلاء العالمي. ونحن ما زلنا بين حد الصقيع والنار، نذوب على أطراف الحدود. نُقتَلُ من أجل قرص بندورة نهربه.

رفع رأسه الى السماء المثقلة بالغيوم. رأى نجمة هاربة. هي النجمة التي تصحبه كل فجرٍ الى الحدود. يقول القدامى والمحنّكون بتجارب الغيب والأجرام. أن النجمة الصبحية حين تطل فجراً في غير أوانها، يكون الصباح رائقاً والخير مبسوطاً والتجارة مربحة. حتى حكيم الحكماء، أبو معشر الفلكي قالها بكل ثقة. إذا رأى المرء النجمة الفجرية في سماء معكرة، أو في عيني عذراء، تكتب له أجمل الصدف في حياته وتحترق كل ذنوبه. فالذنوب تمسح مع برودة الفجر.

ها هي ذي النجمة، يا صالح تتوقف عن هروبها، وتغوص وسط تكدسات الغيم الباردة ولا ينتهي إشعاعها، تبدو جميلة وواسعة على غير عادتها. آه يا خويا يا العربي، مثل هذه الأنجم تستحق أن يعشقها المرء. نخاف فقط أن لا تعشقنا. نمدّ الروح يا صاحبي شريطة أن تظل هذه الأنجم مشرقة الى أبد الآبدين، ويزداد نورها توهجاً مع الأيام. آه (يا يَمّا الحنّانة). وآه يا صالح الزوفري. بين هذه النجمة ولونجا بعد المسافات ورعَونتي وجلافتي البدوية.

آه يا بنتي، تعرّي، تعرّي مثلما تتعرى هذه الأنجم الجميلة التي لم

ترهقها الغيوم. أغفري لي حماقتي في التّبن. رأيت في عينيك الجازية التي علمتني قبيلتها التهريب. وحق محمد. فأبو زيد الهلالي، هو أول من أحترف التهريب. لو كانت أراضي نجد خصبة، ووزّع خصبها بالعدل. ما ركبت الجازية سرج عودها ونقلت مضارب خيامها الى حدود الموت.

أغفري لي حماقتي. ظننتك أنت كذلك كنت تريدين. زوجك الإمام مات. والأكثر من هذا. كان، الله يرحمه. دمه ثقيلاً. الوحدة قاسية يا بنت الناس. إسألني أنا. إسألي الجازية. فقد قتلت الأنواء زوجها الشريف بن هاشم. فعاشت شقاء الوحدة حتى العظم. لماذا كل هذا الحزن يا لونجا صمتك يعذبني. عيونك القاسية تحرق قلبي. الحادثة مرّ عليها أكثر من شهر. تعرّي يا لونجا. هذه المرة سأكون أول من يتعبد ويصلّي لجسدك النبوي. جرّبي وسترين. كيف يتحول هذا المخلوق البدوي، البدائي المتوحش، الى قلب ينبض بحنان الأبوة المفقودة. والأمومة التي لم يذق طعمها إلا من خلال عمر بوحلاقي أيام الآحاد مين يحكي عن فلانة ابنة فلان التي خلقت ذرية بعدد النجوم.

الله. التبن كان دافئاً. الله غالب. المقاومة هربت من قساوة عينيك.

في البداية قلت لي مع إبتسامة عريضة ملأت خوائي المقفر.

– «عمي صالح. البقرة راح تموت بالجوع. أنا تعبانة والبرد يقتل». تغابيت كعادتي معك.

– «لم أفهم قصدك يا بنتي».

– «شوية تبن من رحبتك للبقرة. الناس مشحاحين في هذه الأيام».

– «الرحبة قدامك. خذي اللي تحبّي».

اليوم كان بارداً مثل هذا الفجر أو أكثر. حين تزحلقتُ نحو الرحبة متأخراً. أجلب التبن للزرق.

آه يا نَاري. يا ناري.

إذا طلبْتِ التبن. عيْني نعْطيك.

وإذا طلبت فراش. بقلبي نغطيك.
يا ناري، يا ناري.

دندنت قليلاً بالطريق كعادتي. لم أكن أعرف أني سأجدك هناك. عيناك جميلتان بهذا الكحل السوداني. متسعتان أكثر من اللازم. إنحنيت تملئين كيس الخيش. إنحنيتُ بجانبك. كنت تضحكين. وكنتُ أساعدك على ملء الكيس. حين تتلامس يدانا وهي تسحب التبن الدافيء، أشعر بطيور تحلق في أعماقي، وأتحوّل لحظتها الى طفل يرضع أصابعه. تكررت العملية كثيراً، قبل أن يمتلىء كيس الخيش. وأضيّع ما تبقى من وعيي، وتفيض الفجوات الفارغة بداخلي، بالأشياء الساخنة. دارت في عينيَّ عوالم زرقاء، وحمراء، وصفراء. حتى وجه المسيردية الذي لم يبرحني منذ وفاتها، غاب فجأة. لمستك. بان لي لحم الجارية الغض وسيف دياب الزغبي يشقه بقوة فتنفجر براكين الدم بغزارة من صدرها. سخنت أكثر ولم تتشوه الرغبة. لم تقولي شيئاً. زاد توهجي. تحوّلت الى نيزك ملتهب. عيناك الخيفتان بدأتا تذبلان، وتدخلها ألفة مملوءة بالرغبة التي لا تقاوم. تلمست التبن. بدا لي دافئاً أكثر من فراشي الذي أتوسده كل ليلة. تحركت بداخلي بقايا الشبق المتكلّس. فجأة وجدتك تموتين كقطة صغيرة تحت ثقلي. كانت الحشائش الشتوية العالية المحيطة بالرحبة تغطينا. كانت دافئة. إختلطت في رأسي رائحة الأتربة والتبن الغامل وشعرك والحناء البدوية، ووجه المسيردية الذي كدت أنساه. طبطبا. إبنتاها الملعونتان. وبعدها ضعت بين تفاصيل جسدك. حاولتِ أن تتزحزحي. ربما كان ذلك علامة رفض منك، لكن سرعان ما إرتخيت تحت وطأة الرغبة القاسية. عيونك يا بنت الناس آسرة. كنت حارة يا الله. صدقيني، إني لم أشعر بتلك الرغبة حتى مع المسيردية. في لحظة ما، شعرت بكِ عنيفة، تتشبثين بظهري كغريق ملتصق بآخر قشة من سفينة غرقت. خلتك بحراً وأحسست بنفسي أغوص حتى التهلكة وبن لزرق عود «بو بركات»[1].

(١) فرس أسطوري لا يوقفه أي حاجز.

وحين قمت من على صدرك الناضج، بقي في فمي طعم (المسواك) وعود النوار الذي يملأ فمك عادة. تأملت جسدك لحظة. كنت ما تزالين ممددة على التبن. عارية. عباءتك مطوية عدة طيات حتى الصدر. نهداك الناضجان نافران. تذكرت الإمام، وفي أعماقي لعنته بشدة. مؤكد أنه أمام هذه الأشياء المثيرة فيك، كانت ترتخي خصيتاه المتكلّستان، ويفشل في إيقاظ عضوه الميّت. أنت مخيفة يا بنتي والذين عبدوا عينيك لم يكونوا مخطئين. عيناك مغمضتان، تسترجعين تفاصيل اللحظة التي مرّت كالبرق. حين حركت رأسك، خفت أن تتذكري وجه الإمام وتلعني اللحظة. نظرت إليّ بعينين هادئتين كمن يستيقظ مرغماً، فجأة وبدون سابق إنذار، لبست (حفّاظك) الفضفاض ولملمت أشياءك. وجريت.

جريتِ بذعر.

نبّهتكِ مع إبتسامة طفولية تدحرجت في أعماقي المرهقة.

– «شكارة التبن يا طفلة. نسيتها. (؟؟؟)».

خطفتها من قدامي بسرعة. وضعتها على ظهرك ثم تدحرجت الى بيتك. تأملتك حتى غبت وراء الهضبة التي ترتفع بين القرية والرحبة.

آه يا لونجا يا بنتي. مرّ على الحادث أكثر من شهر. اشتقت إلى مرحلك يا هذه الطفلة المخيفة. تعرّي وسترين بأني قادر على حرق جسدي تعبداً لجسدك الذي يصعب علي أن أنسى تفاصيله. أنت مثلي يا بنتي. مقطوعة من شجرة. والأكثر من هذا شجرة يابسة لا تنجب إلاّ البؤس وحرارة الشمس التي أحرقتها.

– «أوف. يلعن الشيطان ولد الحرامي».

انحنى صالح بن عامر الزوفري على الجمر. كب عليه الكاز ثم حاول أن يوقد الجمرات المتبقية فيه. كان هواء الفجر مساعداً على سرعة الإشتعال. وضع عليه قطعة خبز يابسة وغلاّية القهوة. كانت الديكة قد بدأت تحرُّكها. البرد على قساوته لم يسكتها. يقول حكّام البلدة ومؤرخ

أولاد عامر سيدي علي التوناتي أن الديكة حين تسمع أصوات الملائكة لا يمكنها أن تصمت أبداً ولهذا تراها في أقسى الفصول وأشدها برداً، تغمض عينيها وتصيح وتصيح. مع أن نوماً في تلك اللحظات يساوي الدنيا وما فيها.

النجوم ما تزال في مكانها متوهجة. الغيوم التي تتحرك بتثاقل تعطي إنطباعاً مخيفاً، بأن شيئاً مرعباً سيحدث.

تدفقت الى أنفه رائحة الخبز المحروق مصحوبة برائحة القهوة وبثغاء الخرفان. مد يده الى الجمر.

كُل الخبز المحروق يا صالح. معداً في تلك الدار الدافئة كما تقول أمّي، إحدى سلالة أولاد عامر. لا تقرّ المعدة إلا بالخبز المحروق. وكُلْ يا السابي أرزاق الفقراء. يلعن ربها معدة لا تفضح صاحبها. آه يا ربي سيدي. دُكل حرقة الجوع. ويتصالح أبو زيد الهلالي مع حقرة ملوك نجد وبلاد المغرب. لم يعلمه فقره وسواد جلده إلاّ السقوط تعبداً. عند نعال الأمير حسن بن سرحان.

أصوات الأبقار. الأغنام. الكلاب. تزداد إقتراباً. تملأ اذانه مع صيحات الديكة التي خمدت. هه. ربما كنت خرفان أو بقرة حنا عيشة التي تخاف عليها من الموت ولا تخاف على نفسها. لا تعرف لا شتاء ولا صيفاً. يا الله. عجوز مصنوعة من أحجار الوديان الزرقاء. يحكى عنها في حيّ البراريك، أنها أيام الثورة كانت لا تخاف الأدغال والخلوق الذي يملأ غابات البلدة. تتشمم رائحة «الرومي» كالنمس من بعد لأ يحدّ. شاخت مثل حطبة يابسة. ومع ذلك ما تزال تدوم قوة الأيام الباردة. مثلها مثل رومل الفهواجي، لم يسلّم في الدنيا، حتى وهو جريح في صحراء الموت.

«موه.. موه.. موه..»

وحقّ محمد. هذا صوت بقرتها الحمراء التي خرمت مثلها. يتبعها

الكلب مسعود. البقرة. امتص دمها علق الوديان المتسخة التي تشرب منها جميع الدواب. شخيرها أصبح مخيفاً مثل شخير حنّا عيشة. أقسم بحق محمد وبمتاعب أبي زيد الهلالي القواد، أنها الآن وراء بقرتها، ملتصقة بذيلها. في يدها اليسرى درعيتها[1]، تلتقط الروث بنهم. لتعود به بعد فترة وجيزة وتلصقه على الحائط الداخلي حتى ييبس. من يدخل بيتها يخال الروث الملتصق بالحيطان، إسمنتاً مسلحاً.

تقول وهي خير القائلين:

- « البرد يا صالح يا وليدي لا يعرف الرحمة ».

- « صحيح يا حنّا عيشه ».

- « في الشتاء، الوقيد[2] باطل[3]. والجمر بالدراهم. يشتعل بسرعة ويسخن جيداً ».

هذه السيدة مجرّبة. وحكماء البلدة يقولون. سلْ المجرب ولا تسلْ الطبيب. محقة. الدنيا قاسية والجسد حين يجمده البرد، لا يفرق بين نار « الوقيد » ونار الفحم. فاض إبريق القهوة. نزعه. غسل وجهه. شعر بالبرودة تنفذ بين مسامات جلده.

شرب القهوة مع الخبزالمحروق.

تدحرج الى الإصطبل. تفقد عوده. مسّد على جبهته وظهره وأوراكه.

- « صباح الخير يا لزرق. صباح الخير ».

تريد أن تشرب. حتى نصل الساقية يا صديقي. فالوادي الذي يهدّدنا كل شتاء دافيء. أخشى أن يمحو هذه القرية من الوجود. فالشتاء هذه

---

(١) سلة.

(٢) روث الأبقار اليابس.

(٣) بدون دراهم.

السنة قاس والدنيا صعبة يا لزرق. أتعبنا الليل والمسافات البعيدة التي لا ينتهي امتدادها. أخاف يا لزرق. صدقني أني أخاف أن نقطع كل هذه المصاعب وفي النهاية نسقط ضحايا لعبة تافهة ينفذها من وراء ظهورنا دياب الزغبي بدبّوسه الثقيل. فرقابنا نضجت وأصبحت جاهزة للقطف.

صدقني، أني أشعر بمتاعبك وبوخز الإبر الصقيعية وبالبرودة التي حفرت عظامك. نجمتنا يا صديقي واحدة. ما تزال في مكانها. تارة يعميها الغيم وتارة أخرى تتلألأ بقوة كبياض عيني لونجا المتكحلتين.

هيّا يا لزرق.

مسافتنا اليوم بين أيدينا. سنذهب الى السوق يا صديقي. نستمع الى حكايات عمر بوحلافي عن أبي زيد الهلالي، والجازية التي لم ينته جمالها الأبدي. عن السيد علي وراس الغول والزير سالم وأحجيات لونجا. كيلومتران فقط. نسوق بضائعنا إذا كانت ظروفنا جيدة ونعود. سأطلب من حماد الزعيمي أن يغيّر صفائح حدوتيك. أشعر أنها بدأتا تُتعبانك وتغوصان في حافريك يا صديقي. حضّر حالك. فغداً ربما، وفي هذا الشتاء القاسي سنضطر تحت ضغط الجوع أن نقطع الثلوج. والبرد والوحل ونغمض أعيننا ونهاجر الى الحدود البعيدة. أنت وأنا والبرّ بعيد يا صاحبي. ومخيف كالذكريات. سنصل الى جبال الأغوال والأهوال ونخرج لونجا من ضباب البحار والبخور المقرفة. وقد نترك وراءنا، حياتنا الصغيرة تحت ضغط قساوة الجبال والوديان التي لا ترحم.

هزّ العود رقبته الطويلة. نحنح بقوة. وضع صالح بن عامر الزوفري على ظهره الفراش ثم أردفه بالسرج. صهل رافعاً قائمتيه الأوليتين متجاوباً مع الأصوات المتناغمة الأخرى التي ألف سماعها كل صباح.

شد صالح المشدّ ثم وضع اللجام في فم لزرق.

لا أحد يعرف بقية يومه يا صديقي، ومع ذلك فنحن مضطرون لعيشه حتى العظم. أنت يا لزرق عليك الجري بدون توقف وأنا على توجيهك

حين تنغلق الآفاق في أعيننا. أنا وأنت مثل سفينة وربّان داخل لجة مخيفة كهذه الأيام التي نحرص على عيشها. تتغير الأحوال وهي لا تتغير.

فتح الباب الخشبية الخشنة. خرج في يده لجام عوده. نفذت الى أنفه لفحة برد جليدية معطّرة بأنسام الصباح.

أوف. هذه الباب ثقيلة كعظام الموتى.

- « يا فتّاح يا رزّاق ».

(هاذي) النجمة الجميلة بدأت تطل بخجل. الأصوات غير المتناغمة تبددت. الفلاحون. الحفّارون. الرعاة. كلهم خرجوا من جحورهم وابتعدوا. وأنا وأنت يا لزرق والبر بعيد. وسهر الجازية المخيف.

ركب العود الذي رفع قوائمه عالياً عالياً. صهل من جديد بقوة. وقبل أن يلكزه بالركابين الحديديين. تأمل الباب المشرعة. المثقلة بالأمواه الشتوية. مرّ برأسه أن يغلقها. ولكنه عاد فعدل عن فكرته.

أوف يا لزرق. ماذا يسرقون. الشمع??? مقام الولي الذي يواجه بيتي مملوء حتى الآذان بالشمع. الأطفال يسرقون من بيتي وأنا أسرق من مقام الولي. أضيئه وآخذ البقية. يقول الأوّلون الذين حنكتهم التجارب. أنّ البلدة تحفظ بحفظ مقامات الأولياء الصالحين مضاءة ليلاً. والله يا لزرق. صدقني. ليس هناك ما يسرق. القرية متعبة. الناس متعبون. الحيوانات بدورها صارت متعبة. الجميع يفتح عينيه على البؤس وبغمضها عليه. الذين سبقونا الى الشهادة. قبورهم نبتت عليها الحشائش المتوحشة.

سر يا لزرق. سر.

لم نخسر شيئاً غير النوم وصياحات الأغنام. وبقرة حنّا عيشة التي تزعج مع السحر.

البرد يا لطيف.

دفن رأسه في بقية برنوسه الخشن. نفخ في يديه المعروقتين المتجمدتين ثم

فركبها بقوة. لسنا مهرّبين يا لزرق.

لستَ الشهباء ولستُ أبا زيد الهلالي قواد بني هلال. مُجبرون يا صديقي بين أن نسرق أو نموت جوعاً. أو نركب البحر من غير رجعة ونبصق على مسيردا الجرباء ونرميها من قلوبنا الى الأبد. أو نُمارس الترابندو[1] عنا.

صدقني يا لزرق. وأنت خير العارفين. أني لا أهرِّب إلا لأعيش. مع أني لا أنكر بأن ربَّ هذا المرض بدأ ينشب أظافره في لحمي. وأنَّ المسألة بدأت تتعقد. وعُمرُ الهارب لا يطول.

أفكر أحياناً بفتح حانوت، وتمضية بقية العمر عند بابه مثل رومل القهواجي العجوز، أو أشنق نفسي مثل الخباري. مسكين الخباري. إغتاظ حتى كاد يموت حين فوجيء بقبور الشهداء تباع لغير الشهداء والأنبياء. وُجد ذات فجر بارد مشنوقاً مثل بلوطة يابسة في غابة متوحشة. متدلياً. لسانه أبيض ككفن جديد يدفن به ميت لأول مرة. وجهه أزرق وبارد كقطعة حديد. كان، يرحمه الله، كأنه يسخر من هذه الخلائق الحشرية التي يتوقف الزمن عن دورته ولا تقف. عن كل الذي صار. عن كل الذي يمكن أن يصير.

مسألة فتح دكان لم تكن مغرية. وحتى مهنة التهريب قذرة بشكل مفرط. فالدراهم التي أربحها من بيع الكتّان. تأكلها في ثانية. طُرقات سيدي بلعبّاس وفلاج اللّفت والحاجة طيطما.

طيطما. الله يخرب بيتها. سرواله نازل دائماً.

سِرْ يا لزرق. سِرْ.

سِرْ يا ولدي. بيننا وبين الوصول الى قلب لونجا مسافات الليل والدم والنجوم. سِر. بيننا وبين السيف الذي شق وجه الجازية وإنتزع ثدييها. ليل من الهم ووادٍ من الدموع.

---

(١) التهريب.

لكزه بالركابين. تحرّك لزرق.

وقبل أن ينطلق. فاجأته لونجا. فاتحة يديها كنبيّ مصلوب. كانت حارة. مسّدت على وجه العود بحنانها المعهود.

لم يصدق صالح بن عامر الزوفري عينه.

- «وَاوّ. وَاوّ. صباح الخير بابا صالح. كه. كه.»

- «صباح الخير يا بنتي. (???)».

- «هل وصل أخو لونجا من بلاد الأغوال والأهوال. وهل أنتقم بابا صالح لأخت الحسن بن سرحان؟».

- «سيف دياب الزغبي مخيف. وتلك البلاد ما تزال بعيدة».

يا الله. لونجا لم تتغير أبداً. هي هي. ما تزال طفلة تتعشق المفاجآت. الكحل والمسواك والحناء الورقية واللباس القبائلي الفضفاض.

- «بابا صالح. غضبان منّي???».

- «وهل يا بنتي يغضب من يستعيد الأبوة المفقودة. هل غضبت يوم من الجازية حتى أغضب من عينيك. حرقتني في قلبي حين اشتهيت سحنة أبي زيد الهلالي وحاربت عالياً وكادت رقبتها تنزع. كان تصرفا تافها. كرهتها في لحظة ما. لكني سرعان ما عذرتها. لا يا بنتي. نحن الفقراء لا نعرف كيف نكره».

- «الله ما يحرمنا من حنانك».

- «هه. يا لونجا».

- «شفتك رايح للسوق قلت تجيب لي معك شوية خضر. هاذو خمس بيضات. بعهم وأشتر لي ما تراه صالحاً».

في البداية فكر في أن لا يأخذ منها البيض. عيب. لكنه سرعان ما تذكّر أن الدراهم التي معه لا تكفي.

- «طلباتك في مّو العين. قدامك البرّاكة من الأطفال».

- « في قلبي يا بابا صالح ».

فكر أن يعتذر منه عن حدثة رحبة التبن. لكنه في أعماقه. خاف أن يثير جروحه التي سكنت مع الأيام. فعدل عن فكرته.

آه يا لزرق.

آه ربسنك. يسرج القصة غطسنك. هذا قلبها بدأ ينفتح كزهرة برية جميلة. بين وبينه خوف وذعر وقنابل شرسة. إرفع قوائمك يا ولدي. وإنطلق كالبوارق. العود بوبركات كان يلتهم المسافات. يوصل صاحبه حتى النار. فدعنا نستحم في هذه النار. هذه السيدة يا لزرق فتحت في قلبي أكثر من التي فتحتها المسردية. الألفة صعبة يا صاحبي. ها هي ذي لوخا. قد عادت الى ركضها القديم وإلى طقوسها العزية البربرية. الكحل والسواك والعطر بدقوق الورد وماء الزهر والحنّاء وألبسة جبال جرجرة. وسط هذه الاجواء الجميلة تعطي للموت على صدرها معنى يا لزرق خوبا.

آه يا صالح الزوفري. هي عادت الى ركضها القديم. وأنت عدت الى حدوتك القديمة وبداوتك المتحجرة. هي ما تزال طفلة يا ولد البلاد. وأنت نبت الهمّ والصوف على صدرك ورأسك.

لكن يا الله القلب ما زال ينبض لكل الأشياء الجميلة التي لا تنتهي روعة الإدهاش فيها. فلماذا هذا البؤس الذي لا فرق بينه وبين برودة القبر. صالح بن عامر الزوفري ما يزال قادراً على مداعبة القلوب التي تنبض بالحياة.

- « بابا صالح. أنا رائحة تبلألي في روحك ».

- « الله يسترلي فيك. همّ الطفولة. والعطرية والقلب الكبير وعلامات النبوة ».

شعرت بدغدغة في قلبها وبشاعرية غير عادية في بابا صالح. أحنت عينيها. تأملت الأرض قليلا. ثم ابتسمت إبتسامة عريضة صاحبتها نحنحة العود.

نظرت الى قسمات وجهه. هو هو لم يتغير. خطوطه تفيض بداوة ورجولة.

- « البرد قاسي يا بابا صالح. والسمرة جائعة. التبن ».

ضحكت حتى إهتزّ صدرها الناضج.

- « يخرب بيتك. الرحبة قدّامك. وراس عودي. روحي نعطيها لك ».

دهدهت ثم كالسهم إنطلقت نحو القعداء[1] ولم تلتفت وراءها. كانت الريح قد بدأت تُعنون شعرها بشراسة.

-« يه. كم هي غريبة هذه البنت ؟؟؟ ».

فكر قليلاً. أصبعه ينادر على شفته السفلى. مرت برأسه اللحظات الجميلة حد القساوة والألم. تذكر ليلة أمس حين فاجأته وحده ووجه المسبرديه وطعولته القاسية وقوائم الدجاج وبسس والبزناسي. فترب حتى شعر بأنه بدأ يختضر بين دراعي الخزنة.

الغيوم بدأت تتمطط عبر صفحة السماء بكاملها. شعر بالبرودة تدخل عظامه. لكن العود بقوة.

يا الله يا لزرق. علينا أن نكون بالسوق. قبل غيرنا حتى لا تبور بضاعتنا.

« أنا وأنت ومكتوبي. عايش جوال ».

سر يا ولدي ولنضرب الحديد ما دام ساخناً. قبل أن ندخل كلاب القايد (الجهارك) السوق وتمنع من كل شيء.

ظفائر لونها رائعة. والنوم عليها ليس سهلاً. والرحيل الى بلاد الكوع قاس. وإنتزاع إبنة ماجد بن الهدهاد خطيبة البريقع من مخالب دياب الرغبي. عملية قدامها النار والموت حرقاً. ووراءها البحر والسقوط في

---

(١) قحبة

اللحّة عرقً.

سر يـ ولدي. سر.
سِرْ. الدنب مـ تخون.
أنـ وأنت والبر
واللي كن يكون، اللي كان يكون، اللي كان يكون.

* * *

– ٢ –

في هذا الصباح هبت الأرياح بعنف على غير عادتها.

إرتعدت الشجيرات الصغيرة التي تحيط بساحة السوق الشعبية. تناهى الى مسمعه وهو يقطع رحبة الحمير والبغال. صوت الزنك وهويصطك على الأسطح التي ينط عليها الأطفال، يوماً كا لأرانب الصغيرة. علت في الفضاءات العليا أوراق الصحف القديمة وكراريس الأطفال المدرسية المهملة، والأعشاب اليابسة، وبقايا الحصائر العتيقة، ونفايات الأطفال التي يبست تحت ظلال السودات الواطئة التي تصلها الشمس متأخرة.

تذكر دفء البيت و(مجمر) الفخّار، والبلّور العتيق الذي يملأ ضجيجه الحجرة الضيقة حرارة.

بدأت الأمطار تتساقط. هي بالضبط اللحظة الفاصلة بين ما يتعشقه المرء وما يخاف منه في الآن نفسه. هكذا نحن دائماً وسط هذا الركام من الوقائع. بين هذه اللحظة وتلك وبين هذا الموقف وذاك.

إرتفع الدخان عالياً بشكل متعرّج مصحوباً برائحة كريهة، وشخير الزق الذي يسمع من بعيد، وصراخ الباعة الثابتين والجوالين، الذي إختلط بصهيل الأحصنة التي كانت من شدة البرد تحاول أن تدخل في جلدها. أو تحتك بكامل أجسامها المديدة. بالحائط الدافيء. من حين لآخر، تتداخل فيما بينها. كأنها خلائق بشرية تبحث عن لحظة حب سحقتها أيام الشقاء والبؤس.

صاح حمّاد الرعيمي برعونة، في وجه ابنه الذي تحوّلت تقاسيم وجهه الأبيض الى كتلة سوداء لم يظهر منها إلاّ بياض العينين الواسعتين. من يراه للمرة الأولى، يتصور أنه غادر للتوّ منجماً قديماً، مرهق الوجه والعينين.

– « السكّي!؟ أقبض العوْد مليح يا حلوف. هكذا. تمو جيل كيكوز[1] ».

أخذ إحدى قائمتي العود الأماميتين بين يديه، وشرع في نزع الصفائح القديمة التي تخرمت من كثرة السير. مسح أنفه بكمّ معطفه الذي تهدّلت خيوطه بشكل فوضوي، وتحول لونه الأبيض الى لون فحمي غامق.

هواء الفجر بارد. صقيع الأصباح الشتوية لعنة تضاف الى هذا اليوم الذي بدأ مخيفاً.

– « صباح الخير يا السي حمادة، دائماً الصراخ والفنطازية. يا أخي ضحيحك يسمع من الربع الخالي ».

سعل حمّاد بدون أن يرفع وجهه عن حدوتي الحصان. إنه يعرف هذا الصوت جيداً. فقد ألفه أيام الآحاد. مسح أنفه من جديد بأحد كمّي قميصه المتسخ.

– « صباحك خير يا صالح. والله يا خويا أولاد اليوم خاسرين ».

– « يا حماده لا تخشّن رأسك. الطفل ما يزال صغيراً. ولد المدرسة ».

– « أنت ترى. فأنا لا أستفيد منه إلا في أيام عطله. أمدّ عيني لتعليمه. الأيام مخيفة ».

– « الرجاء في الله يا سيدي ».

– « أعرف هذا يا صالح لكن يبدو أن الله قد نسينا. أفضل أن يتعلم

(١) جيل من حصب الأطفال غضب

على الأقل صنعة والده، أحسن ما يتحوّل الى مهرّب، تثقب رأسه رصاصة ذات يوم في خلاء مقفر ».

اقترب حماده من صالح بن عامر الزوفري. ضرب على ظهره بقوة بيده المتخشبة المحروقة.

ـ « اجلس يا ولد أمّا، نشرب قهوة. الصباح ما يزال في أوله. والجازية لم تدخل السوق بعد. كه. كه. ».

– « أوف يا حماده الزعمي. أنت قس عليّ وعلى الطفل يا خويا ».

– « آه يا صالح لو تعلم. هؤلاء الأطفال لا نرتاح من همّهم حتى نموت. عندما أرى أصحابه، أرتعد يا بابا. السحنة ضعيفة. القلب مذعور. العيون حمراء من قلة النوم. يركبون حميراً لم تبق فيها إلا العظام. المزيزية والتهريب يا خويا صالح. أخاف عليه. صدقني أني في خلوتي أبكي حتى الموت. أبكي بيأس وذعر ».

نظر الطفل الى عيني صالح الهادئتين.

– « صدقني يا حماده أن كلامك صحيح، لكن يا صاحبي، الطفل ما يزال صغيراً ».

– « قلبك طيب يا صالح خويا. تصوّر... »

تنهّد بعمق. لمعت دمعات مقهورة في محاجر عينيه. رشف القهوة.

– « في المرة الماضية كدت أجن. عثرت أمه في جيبه على الدخان. قلنا الطفل كبر ما عليهش وبدأ يفهم في متاعب الحياة. وقبل أيام فوجئنا بالزعفران وسوارين مهرّبتين. صدقني أنا نفسي لم أستطع الحصول عليهما في مهر أمّه. صرخت. قلتُ الذنب. أنهار العالم يا خويا صالح في عيني. هؤلاء الأطفال سيتشوهون إذا لم نسارع الى نجدتهم قبل فوات الأوان. حتماً سيتشوهون يا خويا يا صالح ».

– « طوّل بالك يا حمّوده ».

– « كه. كه.. كه. حين قلت له لماذا تفعل كل هذا ؟؟ ماذا تحتاج يا

سيدي؟؟ نحن تحت تصرفك. نمشي ولا نشقى. والله شاهد. أجوع ولا يجوعون. تصوّر ماذا قال؟؟؟ قال أنه مل روتين حياتنا وملّ هذه المهنة الرخيصة وأن ما يربحه هو في اليوم الواحد، أربحه أنا في شهر. ها هي مهنتي يا خويا يا صالح، التي أنقذتني من الجوع منذ أكثر من عشرين سنة تتحوّل الى مهنة رخيصة. أنا مدعور يا صالح. مذعور حتى الموت». كان المكّاي مسدوهاً لكلام والده ولآلامه العاثرة وحتى لطريقته وإنفعالاته في سرد القصة. فقد كانت عيناه ملتهبتان بدخان الزق. احمرتا كالجمر، تتراقص فيهما دموع استقرت حارة على الأطراف. في لحظة ما، لم يدر من أين جاءت وأين إستقرت. غاضه وجه أبيه الذي أسودّ من كثرة الدخان المنبعث من بقايا الجمار المتقدة التي يدخّن عليها عادة قطع الحديد، وصفائح الأحصنة.

وقبل أن ينتهي حماده الزعيمي رشفة القهوة الأخيرة، إنتبه لأبيه وهوساه قرب الزق. يحاول أن يفتح عينيه بإجهاد.

– «المكاي. أنفخ الرابوز [1]، مالك حال فمك؟».

نفض الطفل رأسه ثم أحناه بهدوء، وعاد الى حركة الزقّ الروتينية. إلتهبت الجمار التي كادت تخبو تحت الرماد. إرتفع مع لهبها دخان أصفر وأحمر، وأسود وأزرق. على الرغم من رائحته الكريهة، كان يعطي دفئاً خاصاً للمحل.

– «واش آصالح. كانش ضربة ماكنة وإلاّ كالعادة».

– «والله يا حماده نريد الخبز فقط. حاجة خفيفة. شوية كتّان».

– كه.. كه.. جوع يسع الجوع للجوع».

– «يا سيدي هاذي دنيا!!!؟؟؟».

– «يا الله يا خويا يا صالح أترك لي عباية موسلين خضراء إذا كان

---

(١) الزق

معك. إذا عدتْ بدونها للبيت، سأطرد حتماً».

ثمْ قام وتوّجه نحو السنديانة العتيقة، وضع المطرقة في يده الخشنة:

- «تطلب شي يا صالح؟؟؟».

- «لا والله. سلامتك. غيّر لي صفائح لزرق فقط. تركته مربوطاً وراء الحائط».

- «خلاص يا سيدي لزرق في عينين حمّاده».

حين أطل صالح بن عامر الزوفري برأسه من باب محل حماده، لاحظ أنه كان في الجنّة التي حكى عنها حسن أخو الجازية.

لا يا صالح. أنت مسكين وبسرعة يأخذك الهوى. هي جنّة الفقراء يا صديقي. ولحسن بن سرحان جواري نجد وبلاد الغرب وأراضي بغداد وحلب ومصر، جنّته. وحق محمد، لو لم يسقط بالجان في إحدى الخيام المهملة في بلاد الغرب، لكان تحوّل هو وأبو زيد الهلالي الى تجار نفط ورقيق.

مرّ على رحبة الأغنام. كان البرد ينفذ الى العظام كأيام الحشر. رأى السبايبي يتحرك بعوده ويساوم الأغنام ويقهقه. عند رجليه ياسين، يتبعه ككلب مدجّن.

إهتزت على ظهر صالح (شكارة) الخيش المملوءة بالكتّان. الأمطار كانت ما تزال تتساقط بغزارة. البرد يلفح الأوجه بقوة. الجليد يغطي المناطق المحيطة بالسوق. حاول أن يجد مكاناً يقف فيه ويخرج بضاعته. لكن عبثاً. واصل إنحداره. كان الناس كالنمل يصيحون. يبيعون ويشترون. هكذا هم دائماً. يبيعون ويشترون. الأطفال يصرخون. في أياديهم تنام الأشياء المهرّبة. سراويل «دجين» وأقمشة «ونستون» وسجائر أمريكية وإسبانية، وعلب الكبريت والزعفران وكل ما تصنعه الشركات اليابانية ومختلف المشروبات الأجنبية. نهيق الحمير المبحوحة. صوت الأغنام وثغاء الخرفان يأتي خافتاً من الرحبة. غاضته هذه الوجوه

الصبيانية التي كانت تحترق تحت الأمطار. يتطاير الوحل تحت أقدامهم عالياً فتتسخ ألبسة ووجوه المارة الغادين والرائحين. العيون حمراء من قلّة النّوم، والأجساد هزيلة. إبتساماتهم الصفراء يلفّها الذعر من وحش مخيف، موجود غير موجود.

– « يا محمد. الدنيا كريهة بهذا الشكل. تفو. حماده لم يكن مخطئاً ».

« بصق على الأرض ثم ركل الوحل بقوة، برأس حذائه الذى كان يسميه دائماً« بومنتل »[1]. تدحرجت رجله اليمنى. كاد يقع على فمه. انحنى بظهره ينفض الوحل الذي التصق ببنطاله الفضفاض. وحين رفع عينيه، وجد عند ركبتيه طفلة بحجم النّملة تحاول أن تساعده في إزالة الوحل من ألبسته. تلفّ رأسها بخرقة حمراء. أنفها ملتهب. تستنشق مخاطها السائل على شفافها بتلذذ.

– « عمّي صالح. تحتاج الزعفران ».

نظر إليها بعينين موجوعتين:

– « يا بنتي البرد عليك لماذا لا تذهبين لبيتك وترتاحين؟؟؟ ».

– « أمي مريضة يا عمي صالح. وحق راس عودك ».

يا لطيف. وصلنا لك أيها الزمن الملعون. الطفلة بدأت تتشوّه من الداخل. وحق محمّد إنها تكذب. هكذا تعلمنا. وهكذا يتعلمون. ومع كل ذلك لا شيء يهمّ. وضع ديناراً في كفها المرتعدة. أسنانها كانت تصطك. أخرجت من الكيس البلاستيكي علبة من الزعفران، وضعتها في جيبه ثم إنطلقت في السوق وهي تصيح ملء حنجرتها:

– « الزعفران. يا اللّي تحب الزعفران. الزعفران... ».

واصل سيره بتثاقل أكثر.

آه يا يمّا الحنّانة. هذه الأمطار الملونة. جميلة لكنها يا حمّاده خويا تتعب

---

(١) حذاء بدائي. يصنع من جلد الماعز والأبقار سمعه الملاحون أيام الحرث.

المرء من الداخل وتحرقه. الأطفال. في هذا السن يمسخون الى غربان.

«آخ. من الصعب أن يجد الواحد مكاناً يبيع فيه هذه البضائع التعيسة».

وقف عند سيارة الخالدي التجارية. حانوت الخالدي بالبلدة، ومع ذلك فهو لا يضيّع فرصة الأسواق الشعبية لبيع ما كسد من بضاعته مثل عمر الدانجورو الذي ما زال حتى الآن يبيع أغراضاً من الحرب العالمية الثانية. هكذا يحكي على الأقل الذين عرفوه. يسمّون الخالدي عندنا «الفرماسيان»[1]. يبيع القهوة والسكر وكأنه يبيع أدوية. إقترب منه. كانت الأمطار قد زادت حدّتها.

– «الخالدي، يا ولدي. سأقف هنا قرب السيارة لبيع هذه الأغراض».

– «خذ راحتك عمّي صالح. ولد البراريك لا يرفض ولد البراريك. إقترب من هنا عن الأمطار».

– «هل يومك هذا الصباح جيّد؟؟؟».

– «والله يا بابا صالح، نبيع كل شيء، ونشتري كل ما يستحق الشراء».

– «خذ هذه البيضات. وإذا عندك السميد أو السكر والقهوة أتهلاّ».

– «الظروف قاسية. لكن طلبك عزيز يا بابا صالح».

– «الحدود والجمارك أفضل من شيخوختنا يا الخالدي؟؟».

– «ما عليهش. سأتدبّر الأمر، مع ذلك».

كه. كه. كه. هكذا هو دائماً. طيب. لكن عندما يتعلق الأمر بالربح والخسارة لا يعرف حتى أباه الذي ورث عنه السيارة والحانوت والبيت

(١) الصيدلي.

الواسع. شاحنات الغاز والسميدا والقهوة والزيت والسكر والصابون، يومياً عند حانوته واقفة. لكن حين يبحث المرء عن كيلو واحد من هذه المواد، لا يجد غير الفراغ. كل شيء يأخذه أصحاب « ترابندو » مع الفجر الأول. والله نحتاج الى يد من حديد قادرة على الضغط والتنظيم ولا يهم بعدها إذا رحنا في الطريق ظلماً.

بدا له السوق نشيطاً بالرغم من الوحل والأمطار.

- « الكتان. كتان أسبانيا يا المسكين. جانيتو. الرتيلاء. موسلين. المسيرة ».

« الكتان يا المسكين. الرّخاء يخلع ».

تحرّك السبايبي ولد القايد البختاوي بكبرياء على عوده.

- « صباح الخير السي صالح. السوق مليح ??? ».

كان يتكلم بصوت ضُخّم أكثر من اللازم.

- والله. نحمد الله. قطيع أغنام. الله يبارك يا السبايبي ».

- « الدنيا هكذا. خذ وأعطِ. الحكومة من هناك وإحنا من هنا ».

- « سوق الأغنام غالية ??? ».

- « يا بابا صالح. تذكر أن لا شيء يصعب على السبايبي ».

- « أعرف. أعرف ذلك جيداً ».

- « والله قد أحتاجك يا صالح. تعجبني رجولتك ».

- « أنا موجود في براكتي دائماً ».

- « بغيتك تحضر عرس ولد خويا الميسوم ».

- « يا سيدي كله على المكتاب ».

-لزرق يا صالح. لا تنسى لزرق. على كل سأزورك في البراكة ».

وغداً أو بعد غد. سيطمح في تركيب القرية بكاملها مثلما كان يفعل أبوه. يتصور العالم كله تحت خاتمه الذي يكفي أن يدوره حتى يتجارى

الناس حفاة عراة يطلبون مغفرته ومحبّتهُ. آه يا أبا علي. لست أبا زيد الهلالي. تحركه في أصبعك كخاتم سليمان. تحوّل الى زبون طيب في بقالة الحسن بن سرحان. لا يا السبايبي، لست من بلاد أهل الغرب، حتى أقدّم لك الطاعة والخضوع. ولست من آل زغبي يا حسن حتى أضع المحارم مع أهلي على أعناقنا، وننزل لنظهر لك مبايعتنا. فبيننا دم الفقراء والجازية التي قتلت غدراً.

يا لطيف. حوّل بيته الى سوق حرة. كل شيء فيها قابل للبيع والشراء. يداه طويلتان. امتدتا الى البلدية، ثم الدائرة، فالولاية. لم يعد إرجاع أرضه يهمه كثيراً لأنه يعرف مسبقاً أن المسألة أعقد مما يتصور. يكفيه أن تؤمّم وتظل معلّقة. يقولون أن معارفه في العاصمة بعدد النّجوم. كان من اللذين ساهموا في الحملة الإنتخابية للرجل الذي وُجد ذات صباح منتفخا على سطح الوادي. أوصى بقتله، وسخّر أيادٍ مجهولة لطعنه. موح الكتاتبي يعرف كل هذه الأمور وينام عليها كالصخرة. لو فقط ينطق. وحق محمد سيقلبها على رؤوسهم. يقول الكتاتبي، أن السبايبي في ذلك اليوم تناوش كثيراً مع رئيس البلدية في محاولة لدفعه الى التنازل عن تأميم الأراضي وإلى إغماض عينيه عن تقييده ضمن قائمة الذين تمسهم المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية.

تفو. حين يركب جواده، يخال العالم بأسره تحت أقدامه. وتظهر له الخلائق التي تبحث عن قوتها اليومي، تتجارى نحوه من أجل تقبيل حدوتي حصانه الأشخم المخيف.

وقبل أن يلكز السبايبي ولد القايد البختاوي عوده ويمشي، سمع صالح صراخاً غيرعادي في قلب السوق، وحركة متسارعة. ظنّ في البداية أنها جزء من الحروب المألوفة التي تدور عادة بين أهل البلدة بالعصي. ويسيل فيها الدم. أو مثل تلك الحروب التي كان يفتعلها الهلاليون حين يتربعون للإنتجاع في أراضٍ غريبة عنهم.

أطل برأسه من وراء سدرة الخالدي. واجهته الطفلة المتسخة التي باعته الزعفران. أنفها محمّر كحبّة طماطم.

- « عمّي صالح. عمّي صالح. الديوانه[1] ».

ثم إنطلقت تركض في الوحل وهي تصيح بأعلى صوتها:

- «الديوانه. الديوانه. النمس جاي. النمس جاي ».

إلتفت صالح الى وجه الخالدي. ثم دفن الشكارة تحت أكياس السكر والسميدوالقهوة.

- « قدامك يا الخالدي. النمس لا يرحم ».

- « في قلبي يا عمّي صالح ».

ثم تحرّك بشكل عادي، محاولاً أن يسير متكوماً تحت برنوسه الترابي، مفتعلاً هدوءاً حذراً.

أبناء لاليجو. يعرفونني جيداً. في قلوبهم قمح. لو رأوني، لأحتجزوا كل متاعي. لكن هيهات. (اللي قريه الذيب حافظه السلوقي)

إنتبه إليهم وهم يجوبون السوق. تذكّر أنهم في المرة الماضية أخذوا منه كل شيء. فاجأوه وهو يصيح:

« الكتّان. بأرخص الأثمان. أجر يا المسكين ».

- « الذيب تفوت عليه مرة واحدة. كه. كه ».

رآه أحد الديوانه، يسمّيه أهل البلدة والمهربون المتعبون، النمس، يتشمم طريدته بطريقة خاصة حتى صار يجد لذة كبيرة في إيذاء الناس.

« آخ. يا لطيف. بدأ ينظر إلي بعينيه الخيفتين ».

إقترب منه. كانت عيونه نصف مغمضة.

تحسّس صالح بن عامر الزوفري دبوسه الذي ينام على أليته اليمنى.

---

(١) الجمارك.

يسميه « الزرواطة ». فيهم ولا فيّ. تبكي أمّه ولا تبكي أمي. صدقني يا النّمس أني أرفض القتل، لكنّي إذا اضطررت، لن أتوانى عن القيام بفعل الموت. ستسقط بهذه الزرواطة. ورأس أبو زيد الهلالي، قبل رأسي. ألف مسمار ستغوص في هذا الدماغ الذي لا يعرف النوم. حين يتعلق الأمر بالرجولة، سأقابلك وجهاً لوجه، ولن آتيك من الظهر مثل دياب الزغبي.

- « هه. صالح الزوفري. الفنطازية والتربانْدو. أنت هنا ».

- جئت للسوق مثل جميع الخلائق ».

- تبدو سميناً على غير عادتك ».

- « هذه المرة أخطأت يا النمس. من أين لي بالكتّان في هذا البرد. نيتي كبيرة للتوقف عن ممارسة هذه المهنة القذرة. حرفة الكلاب ».

- « كلامك زين كالعادة. دعنا نلمسك. هكذا ».

وأخذ يفتشه. إنزلقت يدا النمس بين فخذي صالح بن عامر الزوفري. إمتعض حين تلمست أصابعه شيئاً متصلباً كان يظنه سلعة مهرّبة. إحمر وجهه وبرقت عيناه بنوع من الخبث والحقد.

فرّت من فم صالح إبتسامة شاردة لم تدر أين تستقر.

- كه. كه. هل وجدت شيئاً مهمّاً. هذه يا صديقي أملاك الميردية والحرية الله يرحمها ».

- « لا. أنت غالط. تلعب معي كاش كاش. وهذي ؟؟؟ ».

وإنتزع علبة الزعفران من جيب صالح. المياه كانت قد أفسدتها ولم تعد صالحة. وفي محاولة لإنقاذ الموقف. صاح النمس:

- « هذه العلبة ليست من صنع البلاد ».

- اشتريتها من السوق ».

- « من عند من ؟ ».

– «هاه. هذه ليست مهمتي يا صاحبي. على كل حال تستطيع أن تحجزها».

كان الأطفال يتأملون المشهد بغرابة. عيونهم الحمراء مفتوحة عن آخرها. أنوفهم ملتهبة. ألبستهم متسخة ومطوية عدة طيات. يبدو أنها أخرجت للتوّ من الوسائد. خفّت حركتهم داخل السوق. إنتبه صالح إليهم. يا لطيف. بقايا أولاد بني هلال. كل ما أخشاه أن تحوّلكم هذه الظروف التعسة الى الذرية الفاسدة التي خلفها الأمراء الذين غزوا بلاد الغرب. قاتلوا التدجين بشراسة وحاربوا نزوعات التحوّل الفاسد الى «شيبان» أو «البريقع» أو «نصر الدين» رضيع الأمير دياب. أدركوا وسط المدن الشرسة التي أغلقت أبوابها في وجوههم أنهم ضحايا نطف الأمراء الطائشة. إحذر يا البكاي، يا إبن حماده الزعيمي. فهذه الصنعة فاسدة، لم تعلمنا إلا الذل وطحن كبريائنا أمام أحقر كلاب أولاد لاليجو. إحذر يا بني ولا تركب رأسك من أجل «باكيت» مالبورو.

زاغت عينا السلوقي بحقد كبير.

– «أنا لا آخذ الزعفران. سنلتقي. خذ مرضك».

تأملها صالح. كانت تقطر ماء.

– «يلعن ربّها صنعة تافهة».

شاهد لونه يموت بين عيني النمس. تذكر تلك الليلة التي ترهقه. ربّه، لولاه، لكان إبني الآن صديقاً لي. كان الليل وكنت مع العربي حين قادنا إلى مقرّ الشرطة، وهددنا بالأرشيفات القديمة. حين فتحت عيني المغمضتين المحروقتين كانت بقايا عظام إبني في أفواه القطط. أستغفر الله. نظر الى العلبة التي كانت ما تزال بين يديه، ثم طوّح بها في الفضاء بينما كان النمس ما يزال متسمراً في مكانه يتأمل علبة الزعفران وهي تقع على الأرض، وتغوص في الوحل. لم يقل صالح شيئاً، ولكنه شعر بشيء ثمين يتكسّر في أعماقه.

– «يلعن ربها دنيا. الذّل والفنطازية».

كانت يداه، قد بدأتا ترتعدان، وتبحثان عن الدبّوس الي لا يغادر خصره أبداً.

حاول أن يختصر الحديث، لكن النمس سبقه إلى ذلك.

- «الأيام بيننا يا صالح الترابَاندو».

- «أتمنى أن يكون ذلك في أقرب وقت».

وضع النمس الأوراق تحت إبطه ثم واصل مشيه الثقيل في السوق.

تفو!!!؟؟؟.

قالها صالح بحقد ضامر ثم هزّ رأسه بحزن شديد.

«آه يا ليّام.

يا بنتي مالك عوجاء».

تدحرج نحو القوال[1] الذي كان صوته يرتفع عالياً، عالياً في محاولة يائسة للإلتحام مع أبراج السماء. كان الناس يحيطون به كالنمل وهو يقص أخبار العرب القديمة. وصاحبه ينقر على القلّوز، وصوت القصاب ينطلق حزيناً من الأعماق.

- «متاعب القوال ولا هذا التافه».

سيره القديمة صارت مكرورة ومملة. حتى حكاية الجازية يحفظها بشكل أعوج. مللنا كذبه، وفمه المتسع الذي يفيض لعاباً ولا ينغلق أبداً.

يتوقف الدقّ على القلوز. يصيح القوال:

- «قبل البداية. عشرة دورو للوالدين.

وينك يا اللي تحب الوالدين.

والشهداء والأنبياء والصالحين.

عشرة دورو للمسكين...»

---

(١) الحكواتي.

في صمت وذهول غريبين تمتد الأيادي إلى فراغ الجيوب. بعضها يمتدُّ بشقة الى يد الفوال الطويلة. وبعضها يعود ليلتوي بإنتظام عند الصدر منتظراً بداية الحكاية. همس أحد الحاضرين في أذن صاحبه الذي يسمع بصعوبة. كان منهمكاً في تنقية أظافره من الأوساخ اليومية.

- «مِنْ اللي تقول يغلب. السيد علي والاّ راس الغول».

- «لا ذا ولا ذاك. إحنا الخاسرين في كل الأحوال».

- «أوف أنت راسك غليظة. تفلسف الأمور كثيراً».

إرتفع صوت القلّوز والقصبة من جديد، مصحوبين بصوت الفوال، بأنين يأكل من الداخل، في محاولة يائسة للالتحام مع الأنجم الجميلة التي لا ينفذ توهجها.

شُوفُوْ شِلَّه من العداء،
واقفه في البيبانْ.
والقلوبْ القاسْحة.
ما خَلاّتْ حَدْ يبانْ».

يا السامعين. يا الحاضرين والغائبين. إنس وجان. وكل المؤمنين..
كان. يا ما كان...

- «السيد علي وراس الغول. عرفناها ومن بعد».

وقبل أن يجبر نفسه على سماع الحكاية، على مضض، إمتلأ السوق فجأة بالصياحات من كل الجوانب. دوشة غير عادية وصراخات وفرحٌ ممزقٌ وبردٌ قاس.

«الديوانه مشاوْا. الديوانه مشاوْا».

«أخرجي يا الفيران مالغيران. أخرجي».

بدأ الناس يتفرقون. لم تبق إلاّ القلّة القليلة محيطة بالفوّال الذي كان يحكي. ويفتح عينيه ويرسم الأهوال التي قاسها السيد علي، بحركاته

التمثيلية القديمة، والزبد يتطاير من فمه. حتى الجمرات التي كان صاحبه يسخن عليها القلوز وجسد القصبة المسوك، خبت تحت أكوام الرماد.

« الديوانه مثاوًا. اخرجي يا الميران مالغيران ».

إختلط صوت الأطفال وهم يجرون بأكياس النايلون، بصوت براح البلدة وكافة الأسواق الشعبية بميردا. كان يقف على سطح سيارة قديمة مهملة قرب رحبة الأغنام.

- « يا السامعين. ما تسمعوا إلا سمع الخير.

توقف القوال عن سرد حكاياته. جمع أغراضه وجرى الى عين المكان بعدما أفرغ مجمره من الرماد الذي سرعان ما اختلط بالوحل تحت أرجل المارة.

- « يا السامعين. وقلوبكم كبيرة.

عبد الله ولد يا منه راه، قتلته الديوانه ».

نزل من على سطح السيارة. كانت عيون الناس موجوعة. ثم شق السوق وهو يردد كلامه من حين لآخر يمسح دموعاً تتدحرج على خده المتجعد.

« يا السامعين... »

تزهد صالح بنفاء ظاهر.

- « يا الله. هكذا تتحوّل الى مجرد كلمة، أو خبر خاص، يتفوّه به برّاح الأسواق ويأخذ عنه أجر يومه ».

« يا السامعين »

كان الصوت المخيف قد بدأ يغيب وسط ضجيج السوق. ظل صالح واقفاً مشدوهاً. يده على قلبه يتبع صوت البراح حتى تلاشى نهائياً، ليعود السوق الى حركته المعتادة، وكأن شيئاً لم يقع. هذا الطفل أسمع بشطارته لكنّي لا أعرفه. لعلّه كان أحد الذين عجنتهم تربة ميردا المحروقة. قد يكون ابن شهيد أو مسكيناً مثلنا، يأكله الجوع والبرد ليلاً. من يستطيع التهريب في هذا اليوم المخيف البارد، إذا لم يكن أحد الذين يقضون

ظلامهم في الصقيع والعراء.

- « كم هي رخيصة حياة النبي آدم في هذه البلدة. كلش غالي إلا ابن آدم يا صالح ».

تدحرج، منكسراً نحو سيارة الخالدي، يقضم بقايا يومه. غصة ما كانت تقف على رأس قلبه كالشوكة. حاول أن ينسى الهمّ بالصراخ، لكن الهمّ لم ينسه.

- «كتّان جانبتو. موسلين. أجر يا المسكين ».

بدا له صوته نشازاً مثل النهيق. كحّ قليلاً، لكن المسألة لم تستقم معه.

نزع قلمونة البرنوس من على رأسه. شعر بالبرودة تنفذ الى شعره. حمل الكيس على ظهره وبدّل زاويته التي كان يبيع فيها بضاعته. كانت الأمطار قد توقفت عن السقوط. طافت في عينيه وجوه كثيرة، لم يبق منها إلا قسمات السبايبي الحديدية. وعيون ياسين المخيفة وتذلله عند حوافر عود السبايبي. حاول عبثاً أن يتسلى بحركة السوق النشطة والوجوه الجميلة المتداخلة، والأشياء الغامضة التي تمرق بدون أن نستطيع القبض عليها.

وفجأة استيقظ من غفوته ليدرك أنه عليه أن يبيع هذه البضائع وإلاّ اضطر الى أخذها الى سيدي بلعباس. وسفرة سيدي بلعبّاس، هي السفرة المتعبة التي يضطر المرء الى قطعها مع أبي زيد الهلالي، والحسن بن سرحان، والجازية، من أراضي الموت والجفاف والقحط الى مدن ووديان بلاد العرب.

« سيدي بلعباس يا صالح شحال فيها تُرنات[1] ».

- « إجر يا المسكين ».

إيه يا صالح يا خويا. إرفع صوتك عالياً. أكثر. أكثر حتى تهتز لك قبور الهلاليين. حتى تمتلىء عظام الجازية باللحم الغضّ، وتأتيك من أعماق

(١) منعرجات.

الأرض، على جسدها رائحة عرق السفر، والحنّاء والتربة المحروقة. إرفع صوتك. فالسوق ما تزال عامرة، وطريق سيدي بلعبّاس متعبة وبعيدة.

– «جانيتو. موسلين. الرتيلاء. القطيفة. المسيرة.

الكتان الرخيص. إجر يا المسكين..

إجرِ يا المسكين..

إجرِ يا المسكين».

* * *

٣ ـ

في طريقه إلى سيدي بلعبّاس داهمته مرغماً أشياء عدة. وهو منهمك في إستنطاق صمت السهول والسهوب التي كانت تنفلت بسرعة. لم يكن يعلم أن المتاعب مرهقة الى هذه الدرجة. إرتخى برأسه على مؤخرة الكرسي تذكر الأزرق بالصفائح الجديدة. يصغي الى أصداء رنينها على الطرقات المزفتة وعلى الصخور الزرقاء، تماماً كطفل يمشي مزهواً بحذاء العيد. شاهد في كل مكان بقايا مضارب بني هلال. وحق محمد من هنا مروا حين فاجأهم مرض السلّ والتيفوس والطاعون والرمض والإسهال والجوع والجنون. هذه بقايا مواطىء خيولهم. التهموا كل الممالك بالحرب وحزوا رقبة الزناتي خليفة ورأس التيمورلنك. عيون المارية الخيفة، التهمت ملوك الأعاجم. أحرقت قلب الخرمند، وعلي شاه، الصنصيل، والمغلّ، وبندر والنعمان، سافر دياب من جنونه بالدم، برأس القمقام، والأوردة المقطوعة الى الأمير حسن بن سرحان. وبهذه السفرة أحرقوا بلاد الأعاجم.

ايه يا صالح بن عامر الزوفري. على هذه الأحراش اليابسة تنام بقايا الحرب الضروس. حرب الكلاب. حرب الذين تقاتلوا من أجل الملك وكذبوا علينا بأنهم تقاتلوا من أجلنا نحن الفقراء الذين نعيش من تهريب أعناقنا عن سيوف القتلة.

لو كنا مع بعض يا لزرق. تأكد أن لون هذه الأمطار سيتغير حتماً. كنا

ربما تمتعنا بهذه الأشياء الجميلة التي نشعر بها ولا نستطيع لمسها. لكن الأمطار يا صديقي. أمطار الشتاء غدّارة، والمسافات التي يقتل بعدُها ويسلخ الأرجل والأظافر. سيدي بلعبّاس يا حبيبي مرهقة. وطرقها وعرة وغير سالكة صيفاً فما بالك شتاء. الأمطار، والثلوج، وقطاع الطرق واين تهرب يا ولد آمّا). مع علمي المسبق بأن أجدادنا القدامى كما يصفهم سيدي علي التوناني، كانوا يقطعون القفار والمفاوز على ظهور الجياد المتوحشة، والبغال والحمير والجمال. لا شيء يستطيع الوقوف في وجه رحيلهم غير تعب المسافات الليلية والحروب التي كانوا يفرضونها على غيرهم. أو تفرض عليهم. الهلاليون الذين حفظنا حكاياتهم عن ظهر قلب من الناس الذين سبقونا في الشهادة، ومن أفواه القوّالين، لم تكن المسافة المتعبة بينهم وبين بلاد الغرب عائقاً. لكن يا ربه. أبو زيد الهلالي. كان قذراً. وحق محمد كان قذراً على الرغم من شجاعته. بربري وهمجي يحلم بتدمير العالم. بينه وبين هتلر شبه الدم والنجوم. ما الفرق بينه وبين الحاج[1] الذي أكلت دباباته العالم وخرمت صحة القهواجي. رومل مسكين. تفو يا لطيف. كل منهما عمل على تركيع المناطق التي دخلها بالنار وبالدم. والحق يقال. فأبو زيد الهلالي كان شجاعاً لكنه لم يكن شهماً. وحين تسقط الشهامة عن الخيّال، يتحول إلى قزم، أو قواد في سوق النخاسين.

آه يا لزرق. أنت والمكحلة[2]. عشرة العمر. الملح الذي بيننا يجعلنا لا نفكر في خيانة بعضنا بعض.

يا لزرق. يا لزرق. ما نبيعك. ما نشريك.
نخلّيك لمو العين. تزها. وتركب عليك.
يا ناري. يا ناري.
وعلاش حارقني يا ناري...».

---

(١) تُطلق على هتلر (إبان الحرب العالمية الثانية).

(٢) البندقية.

– «زد. زد. عمي صالح. طريق سيدي بلعباس لا يختصرها إلاّ صوتك».

– «إيه يا وليدي. هذا كان أيام زمان».

– «والله يا عمي صالح، كلامك ذكرني بالمصطفى بن براهيم[1] الله يرحمه».

– «سي المصطفى العامري. الله يخرب بيته ويخرب بيت مواليه».

– كه. كه. والله أنتم أولاد عامر، سلالة بني هلال. هكذا دائماً. إذا لم تتقاتلوا علانية، كرهتم بعضكم بعضاً».

– «أنت مخطىء يا السي عبدالكريم. الأمراء هم الذين تقاتلوا من أجل الملك. أما الأيتام والجازية، بقوا فقراء، وبسطاء يفكرون في جوعهم، وفي غسل الدم العالق بأثوابهم. ليس ذنبهم يا أخي. فالقبيلة قاسية، ووضعية المرأة فيها حرجة».

سرْ. سرْ يا وليدي سر. لو كان لزرق هنا، تعرف ما معنى طريق سيدي بلعباس، وما معنى مصطفى بن براهيم، كان سليل القياد والقوادين. من دم واحد هو وأبو زيد الهلالي. كان قواداً موهوباً. حارب الناس الذين رفعوه الى أعلى ووطّنهم بحافر عوده الذي ورثه من قوم كبار كان القتل مهنتهم. يقال أنه عامري. فهو جزء من هذه السلالة الخائبة. عندها كل شيء ويقتلها الجوع. حين هاجر الى بلاد المغرب، كانت القيادة قد طارت من يده. وحين رجع تمنّاها من جديد، لكن الزمن كان قد ولّى. وضع رأسه بين يديه ثم بكى دمعتين على أطلال لم تعد صالحة. آه يا المصطفى بن ابراهيم، يا تالي القياد. يقولون أننا من سلالة متقاربة. من بطون أولاد عامر. وحق راس عودي، ومحمد، فالسي محمد بلخير كان رجلاً حقيقياً. لم يخن الحليب الذي شربه من ثدي أمه الفقيرة، العمياء. المكحلة

(١) شاعر جزائري شعبي.

يا بابا، وجري الخيل، والمهاز، والنيف[٢] العالي الذي لا توقفه عوارض الأيّام، وكلام الحرب وغبينة المنفى الذي يأكل ركائز ابن آدم. تستحق العبادة يا السي محمد بلخير يا وليد البَيض. تستحق الرحمة. بينك وبين السي المصطفى إختلاف الليل والنهار.

تكوّم من جديد داخل نفسه كالقنفد. البرد والروائح الكريهة. حاول فتح زجاج السيارة، لكن التيار الذي تسرّب، أرغمه على إعادة إغلاقه من جديد. تحسس قطع الكتان الملفوفة حول جسمه. ضحك من كل أعماقه. بدا لنفسه منتفخاً على غير العادة.

يا الله يا سيدي. إنها الطريقة الوحيدة لتهريب الكتان. لا خيار ثالث في هذه البلدة. تمنيت لو سوّقتها بسوق البلدة لكنها بضاعة كاسدة. والله غالب يا الطالب. الأمطار كانت باردة، والوحل يصل إلى الركب، وعيون النمس التي لا تنام أبداً. بعت بعضها، وقلت أن بلعبّاس ستستقبل ما تبقى معك من كتان. وبعدها وبعدها نمرّ على «فلاج اللفت» آخذ دراهمي من طبطها وأغسل عيوني المتعبة على صدر إحداهن. هذه هي الدنيا. وإذا أضطررت الى أخذ سلعتي من طيطها سآخذها إذا لم تكن قد باعتها. يا أخي هذه السيدة أصبحت مملّة بشكل مقرف. تلعب على ستين ألف حبل. المسيردية، بدون أن تراها. كرهتها كدم الأسنان والأضراس الفاسدة. قالت لي ذات مرّة وأنا اهمّ بمغادرتها. وكانت في شهرها الرابع. النطفة بدأت تتكوّر في رحمها.

- «إحذر منها. هاذيك غولة. قادرة على أكل فلاج اللفت بكامله».

- «يا بنت الناس أنا لم أقطعه من عود صفصاف. أبيعها البضاعة وبدورها تبيعها وتدفع لي حق تعبي».

والحقيقة أني كنت أكذب عليها. فقد كانت عيون هذه المخلوقة على شيخوختها تأسرني. وأضطر في النهاية الى قضاء الليل معها على الرغم من

---

(٢) الأنف. الأنفة.

وجود ابنتيها الهجّالتين المزعجتين. وحين أستيقظ صباحاً أشعر بالقيء، من رائحة الدار المقرفة، وكثرة البني آدميين الغامضين الذين يدخلون ويخرجون. آه يا صالح. الدنيا (وشحال) قاسية يا وليد البلدة المقفرة. تتمنى كثيراً، لكنك حين تقف وجهاً لوجه مع الواقع الشرس، يتعقّد كل شيء في رأسك، وتتغيّر نظرتك.

أوه. لا يهم. سأبيع ما تبقى عندها إذا بقي شيء يستحق البيع. وأعود الى البلدة، هذا اليوم. وإذا استطعت بعدها، أن أترك هذه المهنة القذرة، سأتركها حتماً. لذعتنا في القلب وفي أعزّ الأعزاء، سأتزوج لونجا إذا وجدت شغلاً مناسباً، وأنجب منها طفلة بعينيها ونسميها الجازية. وإذا أنجبنا أطفالاً كثيرين، سأحكي لهم حتماً عنك يا الجازية وعن أهلك الذين حاولوا مسخك. وإذا جعت كثيراً، سأرحل مضطراً الى بلاد أخرى. فبلدتي أصابها القحط يا الجازية. لم يعد لنا فيها مكان. أنا يا إبنتي لست قواداً ولا نذلاً مثل أبي زيد. يستحيل أن أخون جمالك وملحك ودمك. وهذا سر الخلاف بيني وبين وغد بني هلال. فمصلحته كانت مع الملوك والأمراء الذين سبوْا أمّه ووضعوا قيود العبودية في يديه. ومصلحتي، في جوادي، والمكحلة، وفي رومل، وحنا عيشة ولونجا. وفي عينيك يا أخت الحسن. سيأتي وقت وأطالب فيه زوجك المقرف بتطليقك. فأنت مثل لونجا، خلقت للفقراء، ومحرّمة على الأئمّة والأولياء الملتحين. وسنكذب حتماً نبوءة سيدي علي التوناني الذي تنبأ منذ سالف الأوان وأغلب الأزمان بإنقراض هذه السلالة. وحق محمد كان تافهاً. يتعاطف مع من كان السيف لغتهم الوحيدة في الكلام، لكنهُ أمام أعين الجازية يتحول الى حيوان شرس ويحاول تركيعها تحت حدوتي حصان دياب الزغبي أو أبي زيد الهلالي. يخرب بيته. سحبها من قرى مكة البعيدة ثم رماها في وادي الرشاش مع قومها. وادي الموت، وتركها تئنّ من غربتها. والله تستأهل الشنق يا حثالة المؤرخين.

أوف. وشحال تخرّف يا بابا صالح،تنسى نفسك بسرعة. (لونجا وين، وأنت وين). عليك أن تتحوّل الى أبن العشرين وتركب « بو بركات » وتشق

القفار والفيافي بحثاً عن الوجه النبوي الذي يتحرّق شوقاً إليك. لونجا، تحاصر جمالها الغيلان وتنافسك فيها بلاد المصائب والأهوال. عليك أن تكون قادراً على الصياح عليها من تحت قمة جبل النار بصوت نقيّ وعالٍ.

« لونجا. يا لونجا

شعرتك خبالة.

دلّي لي سالفك نطلع ».

وعليك يا صويلح يا ابن بلدة الفقر والقحط، أن تكون قادراً على مقارعة الغيلان الآدمية، التي حين تعود من صيدها. تتأكد. تحسب شعرات لونجا الواحدة تلو الأخرى. تطمئن من أن أيادي بشرية لم تمسها. ستعلق شعرة بيديك يا صويلح الزوفري، وإذا كنت فاشلاً في الدفاع عن حبك لها إلتهمتك الغيلان لتذهب أخبارك مع الريح.

« لا يكفي يا حبيبي أن نحب. علينا أن نتعلم كيف ندافع عن هذا الحب ».

وأنت يا صالح. يا ابن الجنين والفرسان. أصبحت شيخاً هرماً. صحيح أن عودك ما يزال صلباً. لكن هذا غير كافٍ لمقاومة عدوانية هذه الأحراش الجافة، وشراسة أغوال. لا عمل لها غير شحذ أنيابها يومياً.

لكنّي متأكد أن سكورتي [1] لا ترفض لي طلباً. حين عدت لها من السوق، وسلمتها الخضر. كانت عيونها صافية مثل سماء زرقاء. ناضجة كالتفاحة. إستفزّتني بروعة جمالها. لولم أكن مضطراً للسفر إلى سيدي بلعباس كنت طلبت منها أن تعانقني حتى تتلون هذه الأمطار، وحتى تجف دموع الأيتام، وتقتل معي هذه الوحدة التي ترهقني. لا طبطها ولا بناتها قادرات على ملء هذا الخواء الذي خلفته في المسردية في سبطار [2] الغزوات

(١) كلمة بربرية معنى. حبيبي.

(٢) منسي

- « آه. بين المسيردية ولوبخا. شبه الدم والنجوم ».

« الله يجازي اللي كان السبب ».

شعر عبد الكريم، السائق، بتمتمة صالح بن عامر الزوفري، وبمسحة الحزن التي ملأت عينيه كمدينة جميلة، نزل عليها الضباب فجأة. إنتبه الى الطريق التي كانت تمتد على مرمى العين كأفعى صحراوية. شعر بشيء يخضع لعملية تحوّل مركبة داخل قلب صالح. إنتبه الى الركاب الآخرين. نياماً كانوا، من كثرة المتاعب اليومية، أو على الأقل يتظاهرون بذلك. نفدت الى أنفه رائحة أحذيتهم المطاطية. ألبستهم متسخة.

- « عمي صالح. واش سويت في قضية المسيردية الله يرحمها ».

- « إيه ».

قالها بأسى وأنين.

- « القضية في الشرع. والدولة ثقيلة. لو فقط بردت جنوني يا عبد الكريم ما يفاش الخاطر ».

- « لكن يا عمّي القانون موجود ».

- « قانون. كه. كه. لو كنا نخضع له جميعاً. آه لو كنت موجوداً يا عبد الكريم ».

- « صلِّ على النبي يا عمي صالح. ربنا كبير ».

- « إيه. الله يرحم الشهداء ».

تنهّد بعمق. شعر بحرارة تصعد الى رأسه. فتح زجاج السيارة، غير آبه بالركاب الآخرين. نفذ الى أنفه تيار بارد كالصقيع.

إيه يا صالح بن عامر الزوفري. يا أتعس سلالة بني هلال. إبنك. كان يمكن أن يكبر ويتحول الى رجل جميل يعشق أبويه وهذه الأراضي الرائعة التي أكلت أحلامنا، واضطهدت عيوننا. بكل تأكيد لن يجبر على أكل رؤوس الكلاب أيام الأعياد مثل العربي ولد رومل. ولا قوائم الدجاج التي كنا نتقاتل عليها أيام الشتاء الباردة.

سبيطار الغزوات كان مجزرة وكنت الضحية. رقماً من بين آلاف الأرقام كان ابني. كان ذلك الصباح بارداً على غير عادته حين إنتابتها آلام حادة في بطنها الأصغر. سألتها عن السبب. اعتبرت المسألة جد عادية، ونفتْ أن تكون آلام الولادة. صدقتها لأنها لم تكن جديدة على التجربة.

– «إذا كنت ستلدين قولي. سألغي رحلة الحدود. وقد أتغيب يومين. فالشتاء دخل يا بنت الناس». كانت إبتسامتها مشرقة رغم وخزة الألم التي كانت تنتابها من حين لآخر.

– «لا يا صويلح. رافقتك السلامة. ربّي يرعاك».

وخرجت. كانت أشياء غامضة تتقاتل في رأسي. لكن حين التقيت بالعربي وليد رومل القهواجي نسيت كل شيء وإستبعدت أن تكون آلامها، هي آلام الولادة. وحين عدت في ساعة متأخرة من الليل، بعد الخفر، وملفات فرنسا التعيسة. لم نستطع الإفلات من قبضة النمس، كان كل شيء قد إنتهى. الدار فارغة، إلا من الأرياح القاسية التي تهزّ الأبواب الثقيلة بعنف، والنوافذ الخشبية القديمة. شعرت بشيء ما غير عادي يحترق في دماغي. لم أحس بالإرهاق. جريت عند حنّا عيشة القابلة العجوز. لم أجدها. الله. القرية خلت من أهلها؟؟؟. لم تواجهني أية صعوبة في فتح باب مسكنها. فقد كان هرماً مثل أسنانها المخرّمة. (حوش) مسكنها تملأه روائح الجرذان الكريهة، والغاز، والمازوت، والخمائر المعتّقة. عند الوادي واجهني الشيخ الهرم البختاوي. لحيته بيضاء مهدّلة على صدره. يقطن قمم الجبال ولا ينزل الى القرية إلا ليترحم على الشهداء ويغلق فجوات قبورهم. يسميهم «أهل المدينة».

– «بابا البختاوي... ».

قاطعني. عرف البقية من عيوني الحائرة.

– «نزلوا للغزوات. للسبيطار. زوجتك ستلد. الله يجيبها في الخير. نزل معها القهواجي وحنّا عيشة. الرجاء في الله يا ولدي».

السيارات بالليل منقطعة. ذهبت الى عبد الكريم فهو مآلي الأول والأخير. بيننا خبز وملح، ولا يرفض لي طلباً. استحلفته بثدي أمه، وبحليبها، أن ينزلني الى السطار. كان طبب القلب مثل معظم أهل البراريك. بقدر ما هم قساة على بعضهم البعض، فهم جياداً أصيلة لا تتعبها شقاوة الأيام.

كانوا في الباحة. ينتظرونني وينتظرون سيارة لا تأتي.

سألت القهواجي. كنت مضطرباً بشكل لا يتصور.

– «كيف حال المسيردية؟؟؟».

لم يتكلم. كان واجماً كصخرة بركانية عتيقة. سألني عن ابنه العربي، لم أجبه. هو يعرف جيداً أن العربي مثل إبني. مرت كلماته متعبة على هامش حضوري.

– «حنّا عيشة؟؟؟».

هيأتي يرثى لها. ثيابي ممزقة، متقلة بالأتربة والوحل.

كانت هي بدورها، تمسح دموعها التي شاخت. عيونها المرهقة، حمراء، محروقة. تمسح دمعها، بطرف فوطتها المتسخة التي كانت تضع طرفاً منها على رأسها. سألت الممرضة المداومة بالليل.

– «أختي الله يرضى عليك. ماذا وقع لزوجتي؟؟؟».

– «أنت معهم».

– «أيوه. نعم».

عيونها كانت صغيرة وشرسة، إشتعلت تحت الأنوار كعيني كلب. باردة كهذا اليوم. يداها تنامان بهدوء في جيوب لباسها الأبيض. نفذت الى أنفي رائحة الأدوية التي كانت تنبعث من كل زاوية من زوايا جسدها. زاد خوفي. لست أدري لماذا كلما شممت هذه الرائحة تنتابني لحظة خوف غير مبررة.

واصلت سيرها. تبعتها.

- « يا أختي. أتكلم معك. زوجتي ».

التفتت نحوي. بكل برود قالت:

- « أوف. ماتت. وغداً يتم التحقيق في القضية. خلاص. شبعت!!؟؟ ».

تعجّنت الدنيا، وإختلطت الأشياء الخبفة في رأسي. تعفّنت كل العوالم التي كانت تحبط بي، لتتحول في النهاية الى كتل سوداء من الإسفلت والنفايات. فاض كل الدود والقيح الذي برأسي. إنهارت الجبال السوداء وسقط شيء بارد كالصقيع على نبض قلبي. فأنفتحت الجروح القديمة التي تحتلّ جسدي منذ صغري، وذابت البلدة العميرة. داخل حفرة سوداء عميقة الهوة. وبدأ الضباب المتسخ ينبعث من كل مكان داخل هذا السيبطار المخيف.

بدأت أتلوى كحيّة ضربت للرأس. شعرت « بقوائمي » تنفصل عن جسدي، وبعيوني تتحول الى صخور بركانية ملتهبة. قبضت على رومل من صدره بعنف حتى شعرت أن عظامه بدأت تتكسر تحت قبضة يدي.

- « أين هي يا ربك. صمتك يقتلني ».

أشار بعينيه الى القاعة التي كانت بالزاوية. كان يعرف جيداً، أني وصلت مرحلة التوحش، وقد أقدم على إرتكاب حماقة لا أغفرها لنفسي.

تمّ. تلك كانت كلماته الأخيرة، بعدها لم أعد أرى شيئاً غير الحجرة التي بالزاوية.

- « الله يجيبها في الصواب ».

لم أجد صعوبة كبيرة في فتح القاعة المغلقة. عادت بداوتي ورعونتي، تملأ رأسي. إستيقظت فيّ كل النوازع البدائية. ضربت القفل بالزرواطة[1]. إنفتح الباب عن آخره لتتسرب روائح الأدوية وأشياء

---

(١) الدبوس

أخرى الى أنفي.

فجأة وضعت يدي على قلبي. حاولت أن أصرخ، لكن الصراخ تجمّد في الحلق كالصخرة. يا الله. لست أدري كيف بقيت واقفاً وحافظت على إتزاني.

إنزلقت يدي اليمنى الى فمي. حاولت أن أصيح بأعلى صوتي. يا الله كل هذه الجزرة. كانت رجلا المسيردية ما تزالان مفتوحتين عن آخرهما. عينوها بيضاء. دماء على الأرض. بقايا أصابع دقيقة لطفل سقط في اللحظة من رحم موجوع. رأس الصغير مفصولة عن جسده. بطنه مفتوحة. أمعاء تمتد من تحت السرير حتى فتحة الباب. أرجل صغيرة تروح، وتتحرك، ما يزال الدم يجري فيها. تناسيت كل شيء. هرزت المسيردية التي إزرورقت شفاهها. على فتحتي أنفها تجمّد دم أسود قطران. كانت باردة كقطعة خشب.

بكيت بصوت عالٍ. تصوّروا ما أصعب أن يبكي شيخ بدأت تقهره قساوة السنين. في الليل بت أصرخ وأصرخ وأندب حظّي التعس. كان الزغب الذي تسلّق وجهي يؤلمني مع ملوحة الدمع التي نفذت الى فمي وجروحي. أطل المرضى برؤوسهم من النوافذ. في البداية ظنوني مجنوناً من لباسي وصراخي لكنهم سرعان ما تفهموا الموقف فعادوا الى أسرّتهم. جرّني رومل من المكان. ضمني الى صدره وربّت على كتفي.

وبعد أيام من ألم المرض، قيل لي بأن الممرضة المتسببة في العملة قد سجنت. وحكي لي الكثير عن ولادة المسيردية الله يرحمها. قيل أنه في لحظة الولادة، تلمستها الممرضة، وطمأنتها بأن المخاض ما يزال في بدايته. رجتها المسيردية بحليب أمها الذي رضعته وهي ملائكة، أن تحاول معها. فهي تعرف جيداً لحظة ولادتها. لكن الممرضة كانت قد إنزلقت الى الخارج، وسدت الباب وراءها بإحكام شديد. النوافذ كانت مشرعة. وأخرجت المسيردية رأس الطفل بيديها حتى أغمي عليها. وحين فتحت عينيها، لحظة قبل أن تسبل أجفانها الى الأبد. هكذا يقولون. وجدت دماء

وأصابع تتراقص تحت السرير. وعظام صغيرة. ومحاجر العيون فارغة. الرأس مثقوبة. الأمعاء الدقيقة تمتد من سريرها حتى مدخل الباب. ثم فوجئت بقطط هرمة تتآكل وبأصواتها الليلية المخيفة. حاولت عبثاً أن تضربها وأن تقوم من مكانها لتجمع شتات صغيرها.

حين أدركوها كانت قد نزفت حتى الموت.

تفو. تفو.

سيدي علي التوناتي لم يكن مخطئاً على ما يبدو، وروحه التعيسة، وراء إفناء هذه المخلوقات. كلامه مخيف يا لطيف. سيتقاتلون حتى يفني بعضهم البعض، ولن تبقى إلاّ القلّة القليلة، سيأتي عليها دهر مخيف، وتسقط كالنمل، أو تصاب بالجدب والعقم. سيطمع فقيرهم في غنيّهم، وغنيّهم في آخر فلس لفقيرهم. ستنقلب الدنيا على ظهورهم ويتحول مجدهم الى غبار ترفعه أرياح الخريف عالياً، كالقش والأوراق الصفراء. وتقيم في صدورهم الأوبئة دهراً من الزمن. وبعدها يأتي ذلك الشيء الحار الذي لا يعلم سرّه إلاّ الله والراسخون في العلم.

« إيه يا صالح بن عامر الزوفري. هذه المرة لم تفقد طفلك الرابع فقط ولكن المسيردية كذلك ».

إلتفت صالح الى السائق. كانت تتراقص في عينيه دموع ملتهبة:

- « تصوّر يا خويا يا عبد الكريم. القطط تأكل أطفالنا. هذا هو الزمن المتأخر الذي حكى عنه الأجداد ».

- « إيه يا بابا صالح. الله يجازي اللي كان السبب ».

- « أي قانون يا خويا يا عبد الكريم. حتى الشهداء تحوّلوا إلى أرصدة في البنوك العالمية ».

خفف عبد الكريم من سرعة سيارته وأشّر بأصبعه الى منحدر كبير:

- « هنا مات ولديا منه. تبعوه من سيدي بلعباس وقتلوه ».

لم يقل صالح بن عامر شيئاً ولكنه شعر بالأصوات التي بداخله تهتزّ

بعنف، وبرأسه تؤلمه بشكل فظيع.

حاول عبد الكريم أن يغيّر الحديث.

- «شوف يا عمي صالح المنكر. الخيوط جاهزة. الكهرباء موجودة. والقرية تعوم في الظلام».

- «كه. كه. يستنّو رئيس الدائرة حتى يرضى ويدشن كهرباء القرية».

- «والله، في لحظة جنون سأشعل المحوّل وخلّيها تتفرقع».

- «لازم لها واحد فهيم في الكهرباء».

- «يا بابا صالح المسألة لا تحتاج أكثر من تحريك القسم الأعلى من المحوّل».

كانت السيارة تهتزّ بعنف في المنحدرات.

«طريق بلعبّاس شحال فيها ترنات».

ساد بعدها صمت مطبق. حاول صالح أن يغمض عينيه، في محاولة يائسة للنوم. بدأ يتسلى بنقرات الأمطار التي كانت تتكسر على زجاج السيارة بعنف. وبشخير الركاب حتى غفا من شدة الإرهاق.

* * *

- ٤ -

ها هي ذي سيدي بلعبّاس بأحيائها الواسعة وشوارعها التي لا تحدّ. مدينة رحبة الصدر. قاومت في زمن ما، جيوش الاحتلال. واستماتت حتى أنسي فيما بعد، بأنها تحولت الى ذرات من الرماد، عبثت بها أرياح الشتاء. الأحياء الشعبية ما تزال بسيطة كما كانت. حيطانها محرمة، تسلقها بعض الكتابات الرديئة. أسودت ألوانها أكثر فأكثر. زاد عدد الأطفال الحفيين بشكل يثير انتباه الزائر العادي. الأطفال. يا لطيف. كالجراد. لا يأكلون إلا الحساء. وبقايا العظام التي يختطفونها من أفواه الكلاب كما كانت أمي تفعل. وفي كل الأوقات تراهم منتشرين عند أبواب

دورهم يتبرزون، ثم يقومون الى اللعب بأوساخهم، وكأن شيئاً لم يكن الصراخ والأوساخ، تملأ جوف هذه الأزقة المظلمة.

إنتهى به الحي الشعبي، الى رحبة السوق الواسعة. نفذت الى أنفه روائح المأكولات الجاهزة، والشواء، والكاسطروطات المعدّة في أتعس الظروف، ورائحة الدخان الذي كان يحجب سماء سيدي بلعباس الكئيبة، بخجل من وراء الغيوم المثقلة. يضاف الى كل هذا رائحة الأوساخ والجرذان التي تعشش في مثل هذه الأماكن.

«هه يا سيدي. أبيع هذه الأقمشة المتبقية من سوق مسيردا، وبعدها أمرّ على طيطها الهجّالة التي تركت حماية «لاله ستّي» لتأتي الى هذا المكان، وتتحرّك كما يحلو لها. أو كما تقول هي دائماً:

«باب الله في كل مكان. ولاله ستّي في القلب يا صويلح».

سقطت عيناه على علبة كرتون كبيرة. إنزوى في مكان ما داخل السوق، بعيداً عن حركة الجمارك والجندرمة. قلب الكارتون على ظهره، ثم أخرج الأقمشة التي كانت تحيط بجسمه وخصره. فرك يديه بنشاط غريب.

«مليح أن الأمطار متوقفة، وإلاّ كنا وقعنا في أزمة جديدة».

نحنح قليلاً، ثم بدأ يصيح بأعلى صوته:

– «كتان موسلين. المسيرة. الرتبلاء.. إجرِ يا المسكين».

هه. جيوب سيدي بالعبّاس سخية. وأسواقها عامرة بالخلق الطيبين والمحتاجين. وطبعاً، أينما كان الطيبون، حضر السراق والحرامية. لا يدخل المطوى جيوبهم. وجوههم مشوهة بتشوهات أبدية. عيونهم غائرة كعيون القطط تدعو الى نوع من الذعر والخوف. الفراغ يا بابا. يبحثون عن أي شيء لملء فراغهم ولو كان نزع الأرواح. جو جميل. لكن هدوءه مريب يذكر بهدوء البراريك.

وبعد لحظات وجيزة، كان صالح قد باع كل البضاعة التي كانت تحيط بخصره.

مرّ على أحد المقاهي الشعبية في درب الحمام الذي تملكه طيطما الهجّالة. ورثته عن رجل إلتهمته ماكنة حصاد كان يملكها يوم كان الاستعمار يقلّم أظافرنا ويجوّعنا. شعر بثقل القهوة المرة. صحت عيناه من كل الغيوم التي صاحبته من مسيردا حتى سيدي بلعبّاس.

مرّ في الدرب الضيق المؤدي الى فلاج اللفت الصدىء. نفذت الى أنفه روائح الماخور الكريهة. مرت برأسه أفكار عدة. تذكّر الجزء القديم من البراريك. العهر والمطوى الذي لا يعرف العمد.

بان له باب الحاجة طيطما كبيراً على غير العادة وصلب كقطعة حديد باردة.

مدّ يده. دق بقوة. سمع أصداء الخشب الجافة. شعر بالتعب يثقل جثته في هذا اليوم المطر البارد. قدماه لم تعودا قادرتين على حمله. إنتابه الملل وهو ينتظر فتح الباب. تسربت الى أنفه رائحة خاصة بهذه الزاوية. عطور ممزوج بدم الحيض، والصابون والحمامات التركية، وأصوات الشيخات اللواتي تأكلهن فراغات المواخير الشرهة. في البداية تقزّز، لكنه سرعان ما أنسجم مع هذه الروائح بالتدريج.

« يا أخي. بيننا وبين هذا المكان فترة ليست قصيرة ».

أعاد الدق من جديد، بعنف أكثر.

أطلّت إمرأة من الأدوار العليا. عرفها من شعرها المصبوغ بالأحمر.

« يا لطيف. تفو. الجلالية.. جملة لكنها مقرفة ».

صاح بأعلى صوته:

– « أمك موجودة يا الجلالية ».

– « الله!! عمّي صالح بن عامر الزوفري. استنّى نفتح لك الباب ».

– « أمّك موجودة يا جنرال ».

– « إيه موجودة. استنّى ».

إنزعج من وقع خطاها المنبعثة من الدرج الداخلي القديم، حتى قبل

أن يلمح تقاسيم وجهها العريض، وقامتها الجنرالية الخيفة، يسميها الجنرال تارة، وتارة أخرى «الحنش بومريات» لنظّارتيها الطبيتين.

إنفتح الباب الخشن على مصراعيه.

- «أمك موجودة».

- «نهارك خير عمّي صالح. أدخل. أدخل. أدخل».

سبقته برشاقتها المفتعلة. صعدت الدرج بسرعة. كان تحتها، يمشي بتثاقل، متعباً من القلب.

- «إمش عمي صالح. إطلع».

رفع رأسه تجاهها. لباسها القصير. بانت له أفخاذها مكتنزة مدورة تقوّي نزوع الشبق الأسود الذي لا يقاوم. ظهر تبانها الأحمر المثقب، مضغوطاً على لحمها بشكل يدعو الى الغوص في جسدها حتى التهلكة.

يا محمد!!!؟؟؟ هذه البنت مخيفة. عيونها بندقية صيد. زبونها لا يفلت منها. تصطاده من أعلى السابة بخرزتها. هكذا تقول أمها التي ربتها على يديها. مسكينة الجلالية. كانت متزوجة من سيد مشبوه، عندما يسكر يضع رأسها بين ركبتيه ويهددها بالذبح. خافت أن يقتلها، فهربت ذات فجر صيفي حار.

«يلعن الشيطان. الوسواس. الخنّاس».

- «مالك حال فمك؟؟ إطلع، عمّي صالح».

«يا لطيف. الله يخرب بيتها».

رفع رأسه نحوها من جديد. كانت رجلاها منفرجتين. النصف الأسفل من جسدها، حتى السرّة، تلفحه أنسام الظهيرة الباردة. تعمّق اللون الأحمر وثقوب التبّان، في عيني صالح بن عامر الزوفري. لم يقل شيئاً ولكنه زفر زفرة شعر بها تمزّق كل أشيائه الصلبة.

«صانعة فنّ إستفزاز الخلق التعساء».

حاول كبت رغبة، إلتهبت فجأة في دماغه. تحسّس ما بين رجليه. ضبّط هندامه بشكل جيد، وعدّل سرواله الذي إنعطف عند حزامه فجأة. ثم صعد بسرعة. سمع داخل البيت، صوتاً آمراً عرف أنه صوت الحاجة طيطما.

- «أقْلي الكبدة يا بنت. فهو يحب الكبدة مقلية».

- «حاضرة يا تيما طيطما».

كان واقفاً وسط الساحة كجندي بئيس ومهزوم. بدأت الحركة غير العادية تثير إنتباهه. هذه المرة ليست كالمرات السابقة. لاحظ وجوهاً شابة جديدة، تتحرك في أبهية الدار.

هه. ماذا حدث؟؟ كل حريم بني هلال إجتمع هنا؟؟؟ لكن لأي سبب؟؟ والله المسألة مثيرة جداً. وبقدر ما هي مغرية، فهي غريبة.

والغريب أكثر من كل هذا، هو أن طيطما لم تعطه الإهتمام الكافي. هذه حالتها في الحالات الشاذة جداً. تاه وسط الحركة. كان ما يزال متسمراً في مكانه كالصنم. طن في أذنيه من جديد صوت طيطما من الصالون القديم. حتى الروائح التي يكرهها أصبحت أليفة.

«تعب يا ربي سيدي. لا بد أنها تعدّ لي الفراش».

إعتقد في لحظة شردت منه هاربة، أن كل هذه التحضيرات له. وأن هذا التعب الذي تبديه طيطما الهجّالة ليست مجانياً. والمؤكد أن وراء هذه العملة، مسألة معقّدة تحتاج الى فكّ.

مرّت برأسه فكرة الرجوع، وبأقصى سرعة من حيث أتى، وترك القضية الى فرصة أخرى، حتى تأتي طيطما كعادتها للبلدة، لتأخذ منه الكتّان والأقمشة وتعود الى سيدي بلعبّاس. لكنه سرعان ما ألغى الفكرة حين تذكّر، أن طيطما يمكن أن تنزعج منه.

لكن كل هذا الإهتمام يا الله؟؟؟.

دهصته شابة، في عينيها كانت تتراقص جنة مشوهة وعلى وجهها

علامات نبوّة ضامرة. يكاد جسدها يتعرى عن آخره، وسط هذا البرد القارس.

هذه الخلائق مصنوعة من مادة إلّهية غريبة.

- « إسمح لي عمي صالح ».

- « هه. أنت كذلك تعرفينني ».

- « ومن ما يعرفش عمي صالح. أنا ياقوتة. أسكن هناك في أعلى طابق. أشتغل عند الحاجة رقية. مؤكد أنك تعرفها ».

- « الحاجة رقية ».

- « أيوه ».

- « م.م.م. أخير الناس ».

قالها صالح مسايرة مع أنه لم ير هذه رقية في حياته أبداً. لا أصلها ولا فصلها. الطفلة بانت له جميلة فوق العادة وظريفة. غمزته ثم سارت، في يديها، طبق الكاطو.

- « عمي صالح. تشوفك. جيت نساعد الحاجة طيطما ».

مرة أخرى تأكد من أن وراء كل هذا الإهتمام، وهذا الإهمال مسألة في غاية التعقيد. الكبدة. المشوي. الكاطو. الروج. لا. لا. هذه ضربة كبيرة تحضرها الحاجة طيطما. وحق محمد كل هذه الخسارة، ليست بهذه المجانية أبداً.

أنا أعرف جيداً هذه المخلوقة. فقد فتشتها ذرة ذرة.

فجأة تذكر أنه رأى وروداً عند مدخل الدار، تتسلق الدرج بكامله حتى الطابق الأعلى. وحقّ الله هذه المرة بدأت اللعبة تكبر. ماذا في رأسها يا ترى. هذه العجوز، بقدر ما هي طيبة وقلبها واسع سعة هذه الهموم التي تأكلها، لا تقدم على عمل إلا إذا دققت في تفاصيله. وحين تريد الوصول الى شيء ما، لا تهمها الوسيلة، كانت أخلاقية أم غير أخلاقية. فهي تقول دائماً بمرارة تظهر في عينيها الجميلتين:

« خسرت كل شيء. فلها الخوف يا خويا يا صويلح ».

- « عمي صالح. تعل. إرتح قليلاً ».

قالتها الخلالة وهي تمسح نظارتيها من ذرات البخار والضباب التي علقت بها. تزحلق قليلاً، ثم وقف بوجل.

- « أدخل مالك خايف. لن أغتصبك. ولا يوجد عندي عرسان ». أوف. مثل أمها لسانها طويل.

دخل حتى الركن. جلس على (سداري) كبير. التصقت عيناه بالحيطان، وبالملصقات والألوان. ياه. ذوقها يختلف عن ذوق أمها. الحاجة طبطها الهجالة، إمرأة تقليدية. تزوق حجرتها بالزرابي التي تأتيها من سدو، ومن تلمسان، وبالأواني (السدرية) التي تأتي بها من بلدة مسيردا.

وهذه السيدة شيء آخر تماماً. رأى صور النساء العاريات، والرجال، يمارسون الجنس في أشكال مختلفة. في البداية تمزز. شعر برغبة في التقيؤ. إنه نوع من الحياء. فهو على كل حال، لا يعرف هذه السيدة جيداً. أحنى رأسه، لكن عينه اليمنى ظلت كعين ديك، عالقة بالصورة وبالأجساد النسوية المعرية.

- « كيف أحوال ناس البلاد ».

- « كي. كي... بخير. يموتون، وكالنمل يتكاثرون ».

- « إيه ذكرتني. الله يعظم الأجر. يا صالح ».

- « إيه يا بنتي. المسيردية كانت إمرأة ونصف.. أمك هنا ??? ».

كان يريد إختصار الحديث، والرجوع فوراً الى البلدة. فمسيردا جملة يا بابا صالح هي الوحيدة القادرة على إحتضان أحلامنا وحماقاتنا.

- « فتش عنك. ستأتي بعد قليل ».

كانت منهمكة في نزع النظارتين. وفي حل شعرها الكث الخمل، وفتح أزرار قميصها، والصدارتين. نفضت نهودها بقوة. بانت الحلمتان المتوردتان. بدأت في نزع ثيابها الخارجية، ثم ألحقت التبان الأحمر الذي

تعمقت ثقوبه، حتى أصبحت كرة ملتهبة من اللحم. لاحظ أنّ الرعب الذي فوق فرجها، قد نزع، تنعَمت بشكل يثير كل الرغبات الضامرة. آخ هذه المخلوقة، جميلة، عيونها مدهشة. إمتعض. حاول أن يضغط على أعصابه. يا لطيف. هل هي تستفزّهُ، أم هي حركة عادية جداً من هذه المخلوقة العجيبة. إستقر على الرأي الثاني. استمر في شدّ أعصابه. فهي قادرة على تفجير الرأس بالرغبة المحروقة. حاول أن يشيح بوجهه عن جسدها ونهديها النّافرين، ولكنه لم يستطع.

«أوف. هذه السيدة، يحتاج الواحد معها الى أعصاب من حديد».

صدرها العريض، رحبة خيالة. شعرها يكاد يغطي مؤخرتها. آه يا بابا صالح القضية تعقدت يا وليد البلاد. الدنيا قاسية يا صاحبي.

فتحت الخزانة. شرعت بابيها جيداً. أخرجت فستاناً برتقالي اللون. أحنت ظهرها لألتقاط الفولار الذي سقط منها. ظهرت مؤخرتها بكامل عرضها. مرة أخرى إنتابته رغبة التقيؤ.

شعر بأن هذه الأجواء ليست أبداً أجواءه. وهذه الجنّية الساحرة المسحورة لا تهتمّ أبداً بشعوره.

المسألة قاتلة، تعرّق الواحد قبل أن يدخل في روعة الغيبوبة مع هذه السيدة. آه يا مرعي، أيها الطفل الهلالي الولهان العاشق. الدنيا صعبة، والجيلالية عيونها بندقية، لا ترحم. فسعدى التي فتح دياب ثدييها بسيفه لم تكن غبيّة. أحبّتك. تعرت بكامل طولها وعرضها على شرف وجهك النبوي. لم تقل شيئاً، ولكنك كنت كل ليلة تحترق كالقشة على صدرها. آه يا مرعي يا طفل الهلاليين. لماذا لا تكسر قيود الزناتي خليفة، وتعوم بحرية في قلب هذه السيدة، النابض بدفء مياه الوديان. لمسة من أصابعك يا وليد البوادي الجائعة، وتسقط سعدى في لجّة الرغبة التي لا تقاوم. لكن يا ربي سيدي صعبة. وحق محمد صعبة. الأم. ثم البنت. لا يا مرعي: أنت فوق الرغبة المشوهة. لست ثوراً هشاً، محشواً بالروث والتبن. فكبرياؤك فوق الأشياء التي تخثّر الدم، وتثير لزوجة الأعصاب.

تململ في مكانه، وعيناه تلحسان جسدها من أقصى الرقبة حتى أخمص القدمين. مرّ بدماغه المنهك أن يقلبها على ظهرها ويضعها تحت رحمته، وينزع البرد الذي سكن عظامه. أن يصفعها حتى تتردد الصفعة بين هذه الحيطان المحرّمة. أن يرغمها على الأقل على إحترامه.

أوف يا صالح بن عامر الزوفري، هل عملت شيئاً حتى يحترمك الناس؟؟؟ أنت نفسك لم ترحم شيخوختك ولم تحترمها. ما الذي جاء بك الى هذه المخلوقات المحروقة؟؟؟ ألم تكن علاقتك بطيطما وثيقة، للحد الذي دفع بك الى نسيان رائحة الحنّاء وتربة البلدة في شعر المسيردية؟؟ ما الذي جدّ يا أخي؟؟. لا تكذب علينا وعلى نفسك. صحيح أنك طيب، وكبرياؤك فوق كل شيء، ولكن مع ذلك بدأ مرض اللعبة يداخلك.

«أنا لست مريضاً. الجوع أقوى من أن أرحم شيخوختي».

نفذت إلى أنفه لفحة باردة تسربت من النافذة، مصحوبة بعطور الجيلالية. في اللحظة ذاتها، دخلت طيطما تجر وراءها ثياباً بيضاء ثقيلة، تتصنع طفولة غابت بين تجاعيد وجهها. هه. إلى كل هذا الحد إختصرت سنواتها العجاف. وجه محمد طفلة. أحمر الشفاه. الشعر المسدول على صدرها في شكل ظفيرتين صغيرتين. أنا كنت أحب المسيردية بالضفيرتين. لكن الفارق المخيف، هو أنها حين ضحكت، تلألأت تحت النيونات الملونة أسنانها المذهبة. هذه صرعة جديدة.

– «مبروك الأسنان».

– «الله يكثر خيرك. أهلاً بصويلح. عاش اللي شافك».

هذه المرة لم تعطه خديها وجبهتها. مدت يدها طويلاً. حيته ثم جلست.

– «غيبة يا صويلح؟؟».

– والله يا أختي هم الدنيا».

- تألمت لك حين سمعت بالخبر... ».

لم يتركها تتمم. هزّ رأسه مشعراً إياها بأنه فهم البقية.

- « إيه. الله يعظم الأجر ».

مدت اصبعها الأصغر الى فمها، تؤنب نفسها بحرج مفتعل.

- « تعرف يا صالح الخدمة كثرت هذه الأيام. منذ بدأ مصنع السونليك يشتغل، تكاثر الزبائن، وهربت لي بنات كثيرات كنت أشغلهن عندي. تفو. يبدو أن الدولة مصممة على تخريبنا ».

- « يا لالة طيطمة. هذه الصنعة صعبة وقلّ من يصبر لتعبها ».

- « إيه. قل لي، كيف أحوال حكاية السدّ ».

- « ما زال كلاماً في كلام ».

- « والضوء. دخل القرية وإلاّ ما زلتم في الظلمة ».

- كلش جاهز. وباش يطلقوا موتور الضوء ما طلقوش. اللي منورة عليه ما يفكر في اللي مظلمة عليه يا أختي ».

- « والله ما زال كلامك كبيراً يا صويلح ».

أراد أن يسألها عن سرّ هذه التحركات غير العادية، التي لم يألفها. ولكن طيطما كانت قد عادت لتنهمك مع هرج ومرج الخادمات.

- سيأتي بعد ربع ساعة. بسرعة شوية. القبطان يا ماما. تكلّم وأملأ فمك ».

هذه المرة تأكد أنه ليس المقصود بهذه الضجة التي تنتاب الدار على غير العادة، وعرف أن عليه أن يسرع في الخروج، التفت نحوها. كانت قد وقفت عند الباب، بالقرب من إبنتها التي كانت تختار أشد الفساتين جاذبية وأكثر التبابين إغراء. في لحظة ما، إستطاع أن يرى ما بين فخذيها المنفرجين، شعر بالاحتراق يبدأه من أعصابه. قفز من مكانه وتوجه نحو الباب حيث كانت العجوز واقفة تصدر الأوامر كحاكم عسكري.

– « كه. كه. كه. العسكر دخلوا البلاد يا الحاجة ».

– والله يا صويلح، إذا لم أفعل هكذا، لن أنتهي من توضيب المائدة. ثقيلات يا أخي ».

– « لا. قصدي الى القبطان ».

– « مثل هذه الأشياء لا تخفى. سأتزوج منه. أنا وهو نتغلب على قساوة الحياة. تعبت وحدي ».

– « الدنيا قاسية يا الحاجة ».

– « عسكري متقاعد. طيب القلب. وعدني بالقدوم هذا اليوم. وهي ذي الساعة تقترب. نتغذى وننام قليلاً، (أحنت رأسها مع إبتسامة مفتعلة)، ثم نرحل الى العاصمة وننجب أولاداً. سأخدمه بقية عمري. إذا كان طيباً معي. أتمنى قبل أن أغمض عيني، أن أشعر بالأمومة، ولو لمرة واحدة في حياتي. تعبت يا صويلح. كرهت. زوجي تركني مبكراً. كان من الجيل الأول الذي أكلته الغربة. هاه. نسيت أقول لك بأن القبطان عنده كرڤان وسيارة جميلة اشتراهما من الحرب. سنخرج كل سنة الى الخارج. هكذا وعدني. وعنده أموال كثيرة سنسخرها في بناء مركب سياحي في العاصمة إذا وفت الحكومة بوعدها وساعدته ».

– « لا. اطمئني. ستفي بوعدها. يقولون أنهم بدأوا يعيدون الإعتبار للمجاهدين القدماء ».

– « فمك لربي يا صويلح. القبطان صفحته بيضاء في الثورة ».

– « إيه. إيه ».

تنهد بعمق.

التفتت الحاجة طيطما بإتجاه الساعات الواقفات.

– « هل إنتهى كل شيء؟؟ لم تبق إلا عشر دقائق. مواعيده مضبوطة ».

– « خلاص يا ماما طيطما. المائدة جاهزة ».

- «باستطاعتك الذهاب يا ياقوتة. اليوم الأحد والزبائن كثر».

- «ربي يخليك يا ماما طيطما».

وقبل أن تخرج ياقوتة، إقتربت من صالح وهمست في أذنه بشهوة وإغراء:

- «أنا أسكن هناك لا هناك. في الطابق الأعلى يا بابا صالح».

إنتبهت لها طيطما. غمزتها بسخرية وإستفزاز:

- «روحي. روحي لشغلك، عمك صالح شاخ. كه..كه.. عينه على الجيلالية».

وقبل أن تنهي كلامها، كانت ياقوتة قد قطعت سلّم الدرج ولم يعد صالح يسمع إلاّ وقع قبقابها الخشبي الذي ترددت أصداؤه فيأبهية الدار.

لوت طيطما عنقها نحو إبنتها التي كانت ما تزال منهمكة في تسريح شعرها.

- «هزّي روحك يا بنت. الوقت لا يرحم».

لاحظ أنها تغيرت كثيراً. لم تدعه الى حجرتها كالعادة. لم تقل له، يا صويلح يا وجه الهمّ أرتح قليلاً. أنت تعبان. إقلع حذاءك. أنت جاي من بعيد يا صويلح. تمدد قليلاً. البرد في الخارج قاتل. يا بنت!! إشعلي الموقد. سخن رجليك. سخن ثيابك. كيف أهل البلاد. تعال يا وجه الهم. تعال. الفراش نار.

هي ذي تحولت. سبحان مغيّر الأحوال. في كل مرة تكرر كلمتها التي حفظتها عن ظهر قلب. يا بنت لم تبق إلاّ عشر دقائق. ربع ساعة. إسرعي. مواعيده مضبوطة. لم تسأله عن البضاعة التي يحملها معه. لم تجرِ الى السلعة كعادتها، وتفرطها على الأرض وتختار ما تحتفظ به لنفسها، وما يجب بيعه، وتتقاسم معه الغلّة في الأسابيع التي تلي حين يعود لها، ويقضي معها الليل بكامله. يتحاسبان. يتقلبان. يستمعان الى «السرّميتي» (مطربة شعبية):

« أنا وحبيبي
صدره على قلبي
بايتين قلبُهُ بقلبَه... ».

حتى الصباح. المسواك. الدفء، ومذاق عود النوار. تتحول طيطها العجوز الى طفلة في العشرين، حارة وملتهبة كالنار يا محمد. أنا أتعب وهي تظل كالشعلة.

إنتبه مرة أخرى أن وجوده هذه المرة غير مرغوب فيه. المرأة مصممة على الخروج من هذا العفن، مهما يكن فهي على حق. يا أخي عمرها كلها أكلته البرودة والروائح الكريهة، ورطوبة هذه الديار. تخاف كجميع خلق الله، أن تختنق داخل هذه البالوعة...

- « يا الحاجه أنا... ».

فطنتها خارقة.

« أعرف يا صويلح. كل شيء يقرأ في عينيك المتعبتين ».

فتحت يدها المغلقة، وأصابعها المنكمشة.

- « هاذو دراهمك. أريد أن أصفّي ذمتي قبل أن أذهب الى العاصمة. «يكثّر خيرك يا أختي».

- « شوف زبونة أخرى يا صويلح. أنا تعبت من ربّ هذا الماخور ومهنة التهريب. تعامل مع الجيلالية إذا شئت. فهي طيبة وشاطرة. تفرحك. حكيت لها عنك كثيراً. أنا خلاص يا خويا ».

ثم صفقت بكلتا يديها.

- « أنت كبير يا صالح، ورازن، وقادر على فهمي ».

الآن بدأ يدرك لماذا أدخلته الجيلالية الى حجرتها ولماذا إستقبلته بحرارة زائدة وإستفزته بعينيها وبجمال جسدها الغضّ.

- « سأدخل العاصمة يا صويلح. مللت مذلة فلاج اللّفت. مع إحترامي

لأولياء سيدي بلعباس الصالحين ».

– « وبناتك يا الحاجة ».

– « أوف. لسن أطفالاً. سأترك لهن السكن بكامله. يقيلوني في رأسي وخلاص ».

ثم نظرت الى الساعة.

– « الجيلالية. بسرعة. راك تولدي البيض؟؟؟ ».

في اللحظة نفسها، تحرك هو بدوره.

– « الحاجة. بقاي على خير. الله يكمل. حتى أنا كرهت من ربّ هذه المهنة القذرة ».

– « يرحم والديك يا صويلح. وفمك لربي يا خويا ».

– « سفرة سعيدة للعاصمة ».

وقبل أن يسمع كلمة شكرها، إنزلق بسرعة نحو الدرج. نادته الجيلالية من فوق.

– « عمي صالح. عمي صالح. وين رايح بهذه السرعة ».

لم يلتفت. بدت له مسيردا جميلة على غير عادتها. رنّ في أذنيْه كلام طيطما وهو عند الباب:

– « أتركيه يا الجيلالية. أتركيه يا بنتي. قلبه كبير. سيعود لك حتماً ».

إنطلق مباشرة الى رحبة الكار (الحافلة). كانت الأمطار قد عادت الى التساقط من جديد. بصعوبة كبيرة، إستطاع أن يحصل على مكان للعودة وسط الأمواج البشرية. مسافرون. تجار. بسطاء من البلدة. سيدي بلعباس يقصدها القاصي والداني.

وهو بداخل الحافلة مرت برأسه كل الوجوه التي رآها. وجه طيطما الذي بدا طفولياً، بالرغم من التجعدات والنتوءات التي فشلت المساحيق في تغطيتها. جسم إبنتها الغض الناعم الذي نزع كل شعره وزغبه. وجه

ياقوتة الصباني الذي كان يشتعل رغبة. يستقبل أيام الآحاد حشود عمال السونليك. الحركة المثيرة للإنتباه. العسكري المتقاعد الذي تخيله بشاربين طويلين، ورأس مدور أصلع كالبطيخة، ونياشين كثيرة تنام على صدره. العاصمة. البرودة الشديدة التي انتابته وهو واقف عند الباب. العشر دقائق التي ضجر من سماعها. الأمطار الثقيلة. ميردا الجميلة. جريه في السوق. الوحل، والبنت التي تبيع الزعفران.

– «الله يلعنها صنعة. تذل الواحد».

«يا الله يا خويا يا صالح. هذه هي الحياة. شي طالع. شي نازل».

غفا قليلاً كالقطّ الذي إستشعر الدفء فجأة. أنفاس الركاب المكتظين فوق بعضهم بعضاً كانت كافية لتسخين الجو الصقيعي، وبرودة جلد الكراسي. كان تعباً ومرهقاً حتى العظم. لم يفتح عينيه إلا عندما صاح الجابي.

– «مغنية. وصلنا الى مغنية يا اللي يحب ينزل».

وفطّنه أكثر حديث شخصين بدا له صوتهما مألوفاً جداً. التفت، بعد أن ربّت أحدهما على كتفه. مسح عينيه.

– «قم يا الراقد أنت في الحاجة مغنية».

– «وحق محمد خمنت أنكما أنتما. موح الكتاني والطويل. كيف الأحوال».

– «نحمده. كيف جاتك سيدي بلعباس».

– باهية ونشطة كطفلة».

– «سمعت بأخبار هذا الصباح عمي صالح».

– «إيه ولد يامنة. لا حول ولا قوة إلاّ بالله».

– «لا. أكثر من هذا. يقولون حتى العربي إنضرب على الحدود».

ـ «ياه. يمكن راكم غالطين. البراح ذكر عبد الله ولد يامنه».

- « يقولون والله أعلم. حتى العربي أصيب في ظهره ».

« يا محمد !!!!؟؟؟ ».

قالها بألم ثم إلتفت مثلما كان في الأول. أحنى رأسه.

يا الله. العربي. على الله يكون الجرح بسيطاً.

وإذا كان الجرح... لا. لا. هكذا يا العربي، يا وليد الأحزان ومسيردا الجائعة. العربي يا وليد رومل والأعياد ورؤوس الكلاب.

حكّ جبهته. أغمض عينيه. عض على شفته السفلى. حاول أن ينسى كل الأشياء والروائح والكائنات التي تحيطه. حتى نفسه.

كان قلبه طائراً كسرت أجنحته الملونة. بدأ ينبض بعنف لدرجة الألم.

« آه يا العربي..

وشحال من عربي

حذاته الحمله... ».

غنّ يا ولد أمّا. في هذه الدنيا المتوحشة لم يبق أمام الواحد إلا الغناء وإلاّ مت مختنقاً بروائح الجثث المتفسخة. غنّ يا صويلح. غنّ يا وليد مسيردا الطيب.

* * *

- ٥ -

أوف. الموت. الحياة. الأطفال الذين يتفسخون داخل الأرحام.

تفو. تفو.

إلعن الشيطان يا صالح. إلعنه وأنظر الى البعد يا وليدي. الطيبوبة لا تكفي في عالم كله شراسة وقساوة. الدنيا صعبة. قالها رجال البلاد الأوائل قبل أن تأكلهم الحروب والمصاعب اليومية. صعبة كهذه الكلاب

التي تنبح صبحاً ومساء. أن تكون يا صويلح يا النملة. أو لا تكون. إنها قاسية ويجب أن تعاش حتى العظم. وإذا حاولت أن تنطحها بغباء. تكسر رأسك وإنفلقت عظامك قبل أن يخربها دبوس دياب الزغبي الذي لم تعد ترى عيناه إلا الحكم، ولم يعد لسان يتذوق إلا كلمة سلطة.

« العربي كان قوياً. لكنه كنت أذكى منه ».

عدّل من برنوسه بهدوء. وضع القلمونة على رأسه ثم راح يتأمل سطح الباص الذي بدأ يتخرم. حتى أبوابه أصبحت تجد صعوبة في الإنسداد التام، وفي صدّ صقيع الشتاء القاسي « هذا باصي وباصك يا العربي، عندما نعوّل على غزو جحور سيدي بلعبّاس ».

متعبة أيام الشتاءات القاسية، حين يقف المرء ساعات طويلة في إنتظار قدومه. فهو أحياناً يتأخر ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات... ومع ذلك ننتظر وننتظر حتى يأتي. فبيننا وبين سيدي بلعباس ألفة غير عادية، ومحبة خارقة. بيننا وبينها فتات الخبز الذي نشتاق إليه ووجوه الناس الطيبين. آه يا يمّا الحنّانة، هكذا نأتي حفاة، عراة، جياعاً وبعدها نضطر الى العودة القصوى التي لا نتخيلها حتى ونحن نقدم على إرتكاب المعاصي جرياً وراء قطعة خبز معلقة على رأس رصاصة لا تخطىء هدفها. لا تتاح لنا يا العربي، حتى فرصة توديع أطفالنا.

« كح. كح. كح. ».

إنتابته نوبة سعال حادة.

وصله شخير الطويل وموح الكناتبي في الكرسي الخلفي.

بان له وجه العربي صافياً كالنور، ثم بدأ يتخذ لوناً أزرق كأن أفعى لدغته من صدره.

إنها زرقة الموت يا العربي يا وليدي.

أتعس وأجمل أيامنا، كان يوم النمس التافه الذي حرمني من حنان الأبوة.

كان الليل، وكانت الغيوم تراود عيون القمر الذي يطل بخجل من وراء الستارة الثقيلة. كنت على الأزرق، وكان يركب بغلة ثقيلة الظل، تشبه في خشونتها حماراً ضخماً. فاجأني بسؤال غريب، حتى سياق الحديث الذي كان بيننا لم يفرضه:

- «عمي صالح. ألا تخشى الموت».

- «لست أفضل من الذين يموتون. صحيح أني أحب الحياة، لكن الموت واجب».

كان يعرف جيداً أني فهمت التفاصيل التي يريد أن يعنيها. بان لي يومها في كلامه شيء من الفضول، والصدق الطفولي. الطفولة. هذا ما تبقى في فراغ أنفسنا. وحين نفقد هذه الطفولة النقية سنتحول حتماً الى كائنات جافة، تأكل وتشرب وتحترم أوقات التغوّط والتبوّل. تكذب وتتعاطى الجنس في كل الأوقات.

- «قصدي، ما رأيك لو يفاجئنا كلب من الكلاب الليلية؟».

- أنا أعرف نهايتي جيداً. إذا لم تثقب دماغي رصاصة موجهة، سقطت في براكتي كخرّوبة يابسة».

- «لا والله. البركة في أيامك الباقية».

- «لو كانت الدنيا تمشي بشكل صحيح. الطفولة أكلها الفقر، الشباب سحقته الحروب الفائتة، وها هي ذي الشيخوخة تهزم تحت ضغط الأمراض المعدية وأصوات الرصاص الليلية».

- «والله يا عمي أقول لك الحقيقة. أشعر أحياناً بالخوف من الموت. واليوم بالذات».

- «طبّيعي يا العربي. حورية تدفعنا الى التشبث بالحياة أكثر. صغيرة لكنها مُو العين. عندما يكون عند المرء مبرر للحياة فهو يتشبث بها حتى الموت. وأنت عندك هذا المبرّر».

- «لكن الفقر قتلنا يا بابا صالح. خمس سنوات وأنا أهرّب علّني

أدخر قرشين وأتزوج لكن... ».

– هذه المهنة لا تربح منها شيئاً إلا إذا تحولت الى سياسي آخر. الكيف. الشراب. النذالة. وربط الخبوط مع ناس وهران والعاصمة ».

– « صدقني أني في بعض الأحيان أفكر بفعل ذلك ثم التوقف نهائياً ».

– « أنت مخطىء يا العربي. عندما تتذوق الربح وحلاوته. ستتشوّه حتماً »

– « قل لي أنت مثلاً. ماذا تربح في الكتان، والزعفران والمحيرقا والـ ... ومع ذلك فأنت في عين القانون لا تختلف أبداً عن السامي. وربما وجد هو من يحميه... ».

– « هنا ضربت الحديد. أعرف أننا نخسر أكثر مما نربح. لكن الأهم من كل هذا، هو أننا لم نتشوه بعد. ما يزال فينا ذلك المعدن الصافي الذي ورثناه من نقاوة هذه الوديان وهذه الجبال التي لم تحن رأسها لأحد. من هنا. فإمكانية إصلاح أنفسنا ما تزال قائمة حين يتوفر العمل في هذه البلدة. وسيتوفر حتماً ».

يا الله. هذا الطفل، يذكرني بطفولتي الجائعة التي إحترقت في الأحياء الشعبية. ووراء البقرات، على قمم جبال عين البقرة، وزندل، والكوانين بسيردا. خضعت كآلاف الخلق لعملية بناء مشوهة، أو على الأقل لم تتم بالشكل المطلوب. وأنا الآن طبعاً، أدفع ثمن هذه العملية غير المكتملة. نصر الخماس. نعس النحوّف. حتى نفس لحظة الحب التي شوهتها ممارسة الجنس مع الدواب الهرمة التي لا تردس، والأبقار والأغنام والدجاج. وحتى الكلبة المحورة. آه يا العربي لو جاءت الحيوانات تتكلّم، لمشيت الآن مطأطأ الرأس كسجين محكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ. يا لعنف. كل شيء تمسه يدفع بك نحو التهلكة.

– « ماذا ... صالح لو تدري؟؟ كه. كه. كه. »

صحك غريب.

كانت الكلفة المفتعلة قد زالت بيننا. وعلى كل حال داخل هذه البلدة لا توجد كلفة بين رجلين. فالحياة الشاقة التي يعيشها هؤلاء الخلق متعبة، وقادرة على حرق كل حواجز الأخلاق الموروثة.

- «لو تدري يا بابا صالح ؟؟؟».

- «افصح يا أخي. أنا متأكد من أنك في مثل هذه القضايا أتعس منّي».

- «أبي. رومل. فاجأني ذات ليلة بعدما عدت من الحرث، ملتصقاً وراء البغلة. تصور ماذا قال ؟؟».

- «بأنه كان يمارس نفس الشيء عندما كان في سنك. رومل. يفعلها. وحق الله يفعلها».

- «لا والله. نظر إلي بعينين قاطعتين حتى تجمدت في مكاني ثم ذهب. يا أخي نظرته حادة كالنار».

- «وهكذا أخذت راحتك يا حلّوف».

- «تصوّر. حين عدت الى البيت خيّرني بين أن أختار بنتاً أو يزوجني هو على مزاجه».

- «قلت له حورية».

- «والله قلتها يا بابا صالح. وراس عودك عيني عليها. جرينا مع بعض، ونمنا مع بعض وخفنا...»

- «فحل مثل أبيك. عفريت. ضاجَعَ كل الألوان: الإفريقيات. الألمان. الفرنسيات. وللصراحة كان يتعشق الفرنسيات لغرض في نفسه. نام معهن حتى طاحت صحته».

- «إيه يا بنت أمّا يا حورية. الأيام حبلى بالمفاجآت ومن يدري».

- «يا ولدي. إنس الهم وخلّيك سبع».

نظر إلي بعينين طفوليتين، هادئتين. شعرت به، يحترق من الداخل كقشة يابسة. كان يريد أن يدخل تفاصيل الأشياء الجميلة حدّ الألم، التي

تتآكل في أعماقي.

- «آه يا بابا صالح. غنّ لنا على لونجا».

- «اتركنا من لونجا. ليس هذا وقتها».

- «والله يا بابا صالح أنت مقصر. إسمع هذه. إسمع. أعطيني وذنك».

« آ نارك. آبو نارين
آي نارك ما تطفاش
آ لسمر آ كحل العين
آي قطع خبرك ما جاش.. »

رفع عقيرته عالياً. كان صوته جميلاً، يدعو الى دهشة غريبة. لم تعد، في تلك اللحظة بالذات، تهمنا أصوات الجمارك وهي تصيح.

«قف.. قف.. أطلق النار.. يلعن أمك يا ولد القحبة.. قف.. لا تقف.. إجر وقل ما جريت.. فقد تحول الليل المخيف الى لحظة جميلة لا تقهرها هذه الأصوات المخيفة. لحظة متوترة تعطي شهوة لا تقاوم لعيشها حتى العظم دقيقة، دقيقة. تحوّلت الأتربة التي نمشي عليها الى ذرات دقيقة، معلقة في الفضاءات الواسعة. وتحولت الأحصنة، والذئاب، والخلاء، والديكة التي لوى أعناقها برد الشتاء، الى مخلوقات جميلة، تدب، تمشي، تعطي لهذا الليل وجوداً خاصاً. حتى الأشياء الشرسة دخلتها ألفة غريبة مع محيطها.

أنت فاهم يا العربي. أنت صغير يا وليدي، لكن عيونك فتحت مبكراً على تفاصيل الحياة القاسية. غنّ يا وليدي فجمال صوتك لا يقاوم. يعطي لهذه المخلوقات التي جمدها برد الشتاء رغبة مطلقة في ممارسة الحياة. الحياة حتى الموت. غنّ عن اللحظات التي يقتلها حزن الليل. عن هذه الأشياء الرائعة التي تسمو فوق تفاهاتنا اليومية. غنّ يا العربي يا وليدي، فوالله لم يبق لنا إلاّ الغناء قبل أن ترانا فتحة بندقية وتتوجه إلينا بحممها القاتلة.

غنّ. فغداً ربما سقطنا في خلاء مقفركحيوانات ضعيفة، فلا يجدون جثثنا إلا بعد أن تتفسخ وتحتل بؤرها الديدان البيض، والصفر، والخضر. غنّ يا حبيبي، عن حورية التي حرقت لياليها، عن الدواب التي كنت تضاجعها. عن مسيردا الجميلة، عن رؤوس الكلاب التي أتى لكم بها رومل صباح أحد الأعياد، عن جوعك يا العربي، فشبابك ما يزال عوده أخضر. عندما كنت في سنك يا العربي يا وليدي كان الغناء لا يبرح فمي، حتى أسماني ناس الحي الشيخ صالح بن عامر الزوفري. حفظت أغاني الرميتي الغليزانية. كانت هذه المخلوقة الغريبة تذيب كل الأشياء المتكلسة في أعماقي. لم يضع منّي عرس حضرته هذه السيدة. والشيخة العمياء. والشيخة حبيبة العبّاسية. والشيخ بن عبد الله المرّوكي. وحمادة. حمادة الله يرحمه ويوسع عليه.

- «غنّ يا العربي ولا تتوقف. فالليل لنا والمسافات طويلة».

إرتفع صوته أكثر مع إبتسامة جميلة أطلت بخجل. لمعت إحدى أسنانه المذهبة تحت ضوء القمر الذي خرج بصعوبة من تحت الغيوم المثقلة بالسواد:

«آقُولوُا لَخْلِيلِي / إلاَ مشيْت بِاللَّيلْ،
مَا بقِي لِي لَيْل / نشُوف فِيه لَخْلِيل(...) ».

مرّ الليل بارداً ولكنه جميل. كانت الطرق السرية والوديان التي قطعناها، كلها خالية. ومع الفجر الأول طلّت قرية «بني دار» بتربتها الحمراء وببناياتها الواطئة الفقيرة.

قضينا اليوم بكامله وراء الحدود. إشترينا الأقمشة والزعفران، و«المحيرقا»[1] للأعراس. تغذينا في أحد الأسواق الشعبية (الكبدة)، والكباب والبصل المشوي على الجمر. وفي الليل عدنا محملين بغنائم بني هلال. لكن لعبة التهريب كانت أكبر منّا ومن طاقتنا. الكلاب طمّعوهم.

---

(١) الألعاب النارية.

لم يعودوا يقبلون منّا الدراهم التي نبيع بها ونأخذ مقابلها سلعاً. (اللّهطة)[٢] دخلت أمعاء الحوانتية. أصبحوا يطلبون القهوة، والزيت، والسميدا. ودخان «الشعْرة»، والأغنام مقابل السلعة. تصوّر يا العربي، أصبحنا الممول اللاّشرعي لهذه الجبهة. التجار من سلالة الكلاب. «يا الله يا سيدي هم عايشين، وحنا ناكل الفنات، الله يلعن ربه زمن».

لم تدم مسيرتنا بهذا الليل الجمل طويلاً. فقد كانت مصيبة ما تفتح عينيها في وجهينا المتعبين. وجدنا صعوبة كبيرة في قطع الوادي الكبير. لقد بدا لنا متسعاً على غير عادته وعميقاً. نزلنا عن ظهور الدواب المرهقة. أرجلنا أتعبها الطمي، والطوب والوحل. الظلام غطّى المسافة التي تفصل الوادي عن اليابسة.

«بغلتك ثقيلة يا العربي. يا لطيف حجرة. إدفع إدفع».

بمجهود خاص استطاع لزرق أن يمر اليابسة، ووقف ينتظرنا على الحافة الأخرى. بينما كنت مع العربي، أدفع بكل قواي بغلته الثقيلة. المياه، كانت كلما تعمقت، إرتفعت أكثر. البرد. البوطات تعوم داخلها المياه الصقيعية.

وقبل أن تتنفس الصعداء، على الضفة الأخرى، سمعنا خرخشة صوت بندقية مصحوبة بصوت الكلب الملعون:

– «ها. ها. بدون أية حركة يا السي صالح. أمش قدامي وبكل هدوء ورزانة».

النمس يا لطيف. وحش الخلاء. لا أحد يزوغ معه. وحق محمد لا يتوانى لحظة واحدة عن إطلاق النار. وقد فعلها كذا مرة. هو الوحيد الذي يتوقف لصياحه المهربون. ربما كانت قلوب بقية رجال الجمارك أكثر عطفاً. ربما لم يعط إذن القتل إلا لهذا الوغد.

---

(٢) الخبز

- « أمامي كما أنتم، الى المخفر ».

كنّا مطأطئي الرؤوس. تنام في أكفّنا ملاجم العود والبغلة. كان هو في سيارة لاندروفير مع جماعته، يقهقهون بأصوات إستفزازية ومقرفة. أتعبنا شخير السيارة وهي تقتفي خطانا. حين تلتصق عجلات لاندروفير بالوحل ينادينا بأعلى صوته لندفعها. وحين تخرج العجلات من دورات الوحل الفارغة، نطأطىء رؤوسنا، ونواصل سيرنا، من حين لآخر نتعثر، نسقط، ننفض ألبستنا ثم نقوم وكأن شيئاً لم يكن.

كانت آخر مرة وأتعس مرة.

بتنا في المخفر نرتعد حتى ساعة متأخرة من الليل.

نظر إلينا بعيون شرسة ودموية كعيني غراب.

- « الليلة ليلتكم ».

- « يا أخي على الأقل أعطنا بطانية للنوم. البرد قاتل ».

- « وهل أنا خادمك يا السي صالح حتى تأمرني. ثمّة يموت قاسي ».

كان الجوع قد بدأ يخرّم أمعاءنا.

- « شوف يا العربي. لو كان رومل هنا. لن يتوانى في ذبح الكلاب. والله سأملأ بطني مثلما ملأته أنت ذات عيد ».

- « يا بابا صالح. الصبر. هذا السيد كلب ».

- « شوف يا العربي. والله أنا متحيّر. المسيردية تركتها مريضة ورائي وأخشى أن... ».

- « يا سيدي، لا أعتقد أنك تفهم في الولادة مثل زوجتك. لو كان هناك شيء ما، لما تركتك تخرج من البيت ».

- « ومع ذلك يا العربي. وجهها الأصفر لم يعجبني أبداً ».

إيه في الحظة نفسها، كانت زوجتي تموت في سبيطار الغزوات. وأصابع إبني تتلاعب بها قطط الحارات الشعبية التي إنتفخت من بقاياه، ومن

نفديت الأسوق المعمة. اه يا ابن الزانية إلى أخمثك وفاة إبني الوحيد يا المص. يا كلب خلاء.

البرد والجوع ووحد المحس الذي لا يرحم.

إنزلو نحو مكتبة الوثائق السرية. التي ملأ التراب رفوفها. ملفات قديمة. عددها مدهش حد الخوف. ذابت دهشتي، حين أدركت بأني في مركز شرطة قديم. أنزل أحد الملفات. نفض من عتبة التراب وعلى ضوء باهت بدأ يتفحص أوراقه. تمتم.

- « لا. ليس هذا. تفو ».

أرجعه الى مكانه. يبدو أن السيد مصرّ على المضي وراء المسألة حتى النهاية. مع أن ما يمس ويمسه ليس أكثر من روتين ألفه وألفناه. إسمك. إسم زوجتك. أبوك. أولادك. العدد. العنوان. لا تخرج حتى تدفع الغرامة. حجز الأغراض. حركات المص بدت لي مشبوهة. على كل حال. ليس وطننا أكثر منا. هو هكذا يعلق دماغه عن التفكير. يترك البعوضة الكبيرة حرة، تمتص دماء عباد الله، وخلقه الضعفاء.

- « نحن صغار يا العربي يا ولدي، وسط هذه الأسواق المعقدة ».

فجأة. فرت من فمه المتسخ بتربة الملفات، إبتسامة صفراء.

نظر إلى بعين ماكرة.

- « عندك النعمة يا ملف النحس. أنت هنا. وأنا قلّبت المكتبة بكاملها ».

نفضه من الأتربة التي كانت عالقة به. يبدو أنّ هذه المكتبة لا تمس إلاّ مرة واحدة كل عشرين سنة. كنت أنا والعربي في حالة يرثى لها. البرد. الجوع. اللباس الممزق عند الركبتين والأيدين. الجسد عائم في الوحل. ولعنة هذا الوحد الذي لا يرحم.

- « سوف أيها الخروبة العجوزة. هذا ملفك يا بطل أولاد بن عامر ».

- « بهذه السرعة يا الحاج ».

- «وماذا في رأسك يا السي...».
- «هذا ملفك من وقت فرنسا. تعرف ماذا كانوا عليه».
- «ما يرضي فضولهم».
- «هذه صورتك على ما أعتقد».
- «إيه...».

تذكرت الزمن القذر الذي ما زال يعذبني.

- «الله يرحم الشهداء. أنتم السابقون، ونحن اللاحقون».

ابتسمت، لست أدري لماذا. خفّ غضبي الذي كان قد تحوّل الى جمرة متقدة في داخلي. انتابني في أعماقي حزن شفاف اللحظة التي تصعب السيطرة عليها.

إيه. كانوا رجالاً بالفعل. إنها نفس اللحظة التي كنت أقف فيها للاستجواب، وراء مكتب المستعمر. نفس اللحظة. مع اختلاف الزمن فقط. إننا نعيش على ذكرى الشهداء والأبطال. فأنا متأكد بأننا حين ننساهم وننسى دمهم سنتحول حتماً الى تافهين. وحق محمد يا الشيخ. إنها نفس اللحظة. هكذا جروني من قمم الجبال. كانت رجلي اليمنى مكسورة من جراء رصاصة وأجبروني عنوة على ضوء الأخبار. وهربت، وظلوا طول حياتهم يبحثون عني، ويبدو أن العملية ما تزال مستمرة.

كان فمي يابساً. حين هزني الشيخ من كتفي.

- «إقرأ. إقرأ جيداً هذا كتابك».

أغمضت عيني. تراءى لي الشهداء سرباً من الحمام. ينزف دماً وقيحاً. يصيحون بأعلى أصواتهم في وجه إنذالي وتساقطي. أقسم بأني رأيتهم ينتحبون. يحملون الصخور العملاقة على ظهورهم. يشتغلون الأشغال الشاقة بدل الساقط عند أقدام التافهين. ويتوقدون كالحطب اليابس. يشتعلون وسط الثلج.

- « إقرأ يا صالح ».

• لا تقرأ. إذن سأتولى أنا القراءة:

(1) «Element très Dangereux»

- « .... ».

- « كتبوه لأني كنت فعلاً عنصراً خطيراً على وجودهم ».

كان منهمكاً في قراءة الملف. من حين لآخر تشرد منه نصف إبتسامة سخرية صفراء.

- « سُجنت يا صالح. قتلت. فأنت بكل بساطة مجرم خطير ».

- « خلَط يا النمس. هذه أيام الخلاط. خلَط ».

تشابكت تفاصيل الأيام الماضية في عيني. كدت أجهش. إنتابتني رغبة التمرّغ على الأرض والبكاء، والتلوي بكل ألم حتى يسمعني حمار الوحش في أعماق البحر السابع. نظرت الى وجه العربي المتعب. كان قد نام ككلب صغير في إحدى زوايا القاعة المقابلة لمكتب النمس. في لحظة ما، كدت أفقد صوابي، وأهوي على هذا الدماغ المتسخ بكل قواي بهذه الرزواطة، لكني والحق يقال، خفت العاقبة، ومن الناس الذين يراقبون كل حركاتنا ولا تغفو أعينهم دقيقة واحدة. خفت يا العربي يا ولبدي من خزرة الشهداء. ثم إن السيد يلبس لباساً حكومياً. اللباس ليس له. لقد سرقه من جثث الشهداء التي تُركَتْ غاية للرّيح.

- « على الدولة أن تنتبه لخطورتك يا صالح ».

- « تفو... ».

- « هذه عليّ... ».

- « لا على اللي حطّوك في هذا المكان ».

- « لسانك طويل ».

---

(1) عنصر خطر جداً.

- « خسارة الدم اللي ضاع. خسارة الدم اللي ضاع ».

نهض العربي لصياحي. فتح عينيه. لم يطلب إذناً حين داهم المكتب. كان يظن بأني علقت معه. ربت على كتفي. كانت بعض الدموع تحرق عيوني وتكابر عن التساقط. طوى النمس الملف بعدما سجل بعض الملاحظات، ثم أرجعه الى مكانه. وحين بدأ النوم يغالبه، والتعب يرهق مفاصله. كان برد الشتاء نافذاً. حجز البضاعة وأطلق سراحنا.

خرجنا كسكيرين حزينين. في خفاء ما، عدت لأتذكر الشهداء ووجوه الأنبياء والمسيردية. بكيت. كانت غيوم الليل قد إنتشرت، والأنجم تحترق الواحدة تلو الأخرى.

وحين عدنا الى القرية كان الهدوء مخيفاً.

- « هذا الصمت مريب ».

دفعت باب البيت. غزغز بقوة. لم أجد المسيردية. كانت القطط في سيطار الغزوات تتقاتل من أجل إبتلاع طفلي الذي تمنيت فقط لو قبلت عينيه الجميلتين.

وكان النمس يتهمنا بكل برودة دم بالخيانة والإجرام. وحق محمد، أقسم أنه كان بياعاً، والذين قذفوا به الى هذا المكان، ليسوا أقل خيانة منه.

- « آه يا الزمن الفايت. كم كنت قاسياً وعذباً ».

• • •

تململ في مكانه من جديد. إستشعر الدفء أكثر. لم يستيقظ من غفوته إلا عندما أيقظه موح الكتاتي والطويل، وهما يهمسان في أذنه:

- « عمي صالح، وصلنا مسيردا ».

- « عمي صالح، وصلنا. قم ».

- « يا معين العجزين. يا الله ».

حين فتح عينيه، تمنّى لو امتدت المسافة حتى تمس الزمن الأول. حتى تغوص تحته لتنفجر بعدها كقنبلة موقوتة، وتتطاير في الفضاءات الواسعة التي تحولت فيها عظام الشهداء والأنبياء الى بنايات شاهقة، وبارات وحمامات وشرطة وكلاب.

• • •

الفصل الثاني



ناسُ البراريك(١)

(١)

النجوم في هذا الصباح، إنطفأت بسرعة.

خرج صالح بن عامر الزوفري على غير عادته، مبكراً على ظهره فأس ورفش. فالتوناني يقول: بكِّروا ترزقوا.

إرتفع آذان السحر عالياً قبل الوقت المعتاد بقليل. قفز الأطفال من فراشهم البارد.

علا صياح الديكة. إنكمش الضباب الذي كان يحتضن الأرض كقطنة كبيرة أيام رأس السنة. بدأت الأشياء الغامضة تتضح وتكتمل أشكالها المبهمة.

بدأت بعض الوجوه تدب في القرية بخجل.

لم يخرج كل الرعاة كما هي العادة الى مراعيهم بالرغم من الأمطار التي بدأت تعطي شهية خاصة للرعي.

هزّ الإمام الجديد رأسه متململاً في مكانه. بدأ يتمتم. بعدها إرتفعت عقيرته عالياً، يتلو آيات قرآنية عن الآخرة ويوم الحشر. والعياذ بالله من يوم الحشر. دمعت عيناه المرهقتان، دمعات جافة كوجهه الذي تحوّل الى قطعة خشبية أكلتها سوسة الألواح.

أقام الصلاة. صلى وسلّم بصمت وخشوع.

(١) سوق السك.

في إحدى زوايا المسجد، نهض رومل القهواجي من جانب بوجمعة، تخطى الصفوف ثم جلس بالقرب من الإمام. كانت عيونه حمراء، متورمة. وجهه يابس بشكل مخيف كأنه قطعة حديد مر عليها قرن من الدهر. جسمه هزيل. على ظهره يلبس قميص أزرق التصق بلحمه. وجوارب قديمة، تضوع منها روائح كريهة جداً. على وجهه العروق. رغم أسود محروق. إجتاح عينيه غشاء محضي أصفر.

تمتم الإمام بعد طول صمت رافعاً يديه نحو سقف المسجد:

- «ترحموا يا مؤمنين. الله يرحمكم».

ردّ الجميع، وأنّوا، بصوت خشوع:

- «الله يرحم الشهداء. الله يرحم الشهداء».

بكى الشيخ رومل القهواجي. بكاء قاسياً مدمراً. كل شيء فيه قاس. كأن المحروق يتحرك في صدره، وفي كامل أعضائه.

- الله ما أصعب أن يبكي شيخ هزيل السحنة في سن القهواجي.

القهواجي الذي أركع رومل في صحراء العلمين. ثم ارتكب جرماً في جسده. كان كالآف خلق البراريك. يحمل قلباً طيباً وعطوفاً. فتح مقهى من عرقه وعرق ضمه الوحيد المتبقي من حرب الدمار العربي. فهو حين عاد من الحرب كان يحمل في جيبه عشر فرنكات، كانت رصيده الدرهمي كله. إشتغل برادعياً، ثم مزارعاً خماساً، ثم لست أدري ماذا. عبر أبد في تلك الفترة بالذات إشتغل في أحد المقاهي الشعبية. وفجأة قفز الى تلحيم الأواني الحديدية المكسورة. قدم من بلدة بعيدة (صطيف). ليست له عداوة مع أي شخص. ومع ذلك، فقد يكون أول من توجه له طعنة غدر في حي البراريك.

- «تموت ذئب الهم والغم».

تمتم صالح الزوفري الذي دخل متأخراً عن موعد الصلاة. يداه ملوثتان بالتراب والطمي. أثار الصوت الذي أحدثه وهو يضع الرفش

والفأس عند الباب، إنتباه الحاضرين من فقهاء البلدة وكبار الجماعة.

صمت الجميع لحظة من الزمن. لكن سرعان ما بدأت الوشوشات بين الحاضرين تتحوّل الى همسات فأصوات خشنة ثم الى شيء يشبه الحشرجة.

قال شيخ طاعن في السن ينام داخل جلباب ممزّق:

– « يقولون أنّ الرصاصة ثقبت ظهره ».

– « والله يا خويا. ربّما هو العالم. اللي جابو رجّعُه ».

– « شكون كان يقول، العربي يمشي شموتية ».

– « كالنمل. اللي ما وطأ علينا، أخذنا في الحافر ».

وراء حجاب الجامع، حيث تقيم النساء الصلاة. تمتمت إمرأة شقية، أعطى الكحل لعينيها إتساعاً جميلاً:

– « يقولون اللي زار المسجد في يوم موت، أجره كبير حتى ولو لم يصلِّ ».

– « الله يرحم الشهداء. الله يرحم الشهداء ».

إنزلقت دمعة من عينيها، حارة كالشقاء، تلفّها أحزان إنقلبت الى نار ملتهبة. رفعت إحدى العجائز رأسها الى السماء وحاولت أن تبكي لكن الدمع كان قد تحوّل الى قطع من الصخور البركانية في أطراف عينيها. كانت شيخة مقعدة. من زمن الحرب إثر التعذيب بالكهرباء والماء والصابون، وقناني الشراب المكسورة.

– « خسارة أمَيْنتُه[1]. الله يرحمه. اللي تيتّم يتيم من أمّه ».

– « إيه يا لالّه، يقولون أنه حاول قطع الوادي المسكون بالليل، فسقط في مائه. وطيء على إبن الجن الأزرق. فأقسم أن يفنيه مثلما أفنى العربي إبنه ».

---

(١) تصغير أمّه.

– يا أختي. لا جن أحمر ولا جن أصفر. المس وجمعته ».

في الخارج صهل الجواد الأشخم.

سكن الجميع، بعضهم إرتعدت في أعماقه الأشياء التي تدعو الى الخوف. كلّهم يعرفونه. وقاحة السابي لا تخفى على أحد. عيونه مشوكةومخيفة. يا لطيف. يشرشر في الدين والدنيا ويوم الحشر، وفي الأخير، يجدونه عند السيدة(...). التي لا تملّ إستقبال الرجال من كل أطراف القرى والمدن الرديئة. مع ذلك، فهو يلعن الشيطان الوسواس الخنّاس، الذي يلهي الناس عن الحساب.

لكن، يا الله، هناك شيء خاص، ومخيف، يقف بينه وبينهم. لا يفهمونه، لكنهم يشعرون به ولا يستطيعون تجاوزه.

آه يا السابي. بيننا دم الجازية وغربة لونجا ومضارب فقراء بني هلال التي أقدمت على حرقها بشعلة نار حملتها من مكة ووضعتها في أفقر خيمة، ووقفت على مرتفعات البلدة تتأمل ألسنة النار بجنون. تبقى لا أحد من هؤلاء الناس على إستعداد لأن يتحول الى أبي زيد، قواد بني هلال. لا أحد. ما زال دم الشهداء يجري في عروقنا. قد تكون أنت الحسن بن سرحان في هذه الحرب الكبرى، لكنّي بكل تأكيد لست أبا زيد الهلالي. أنت عاجز عن إصدار أمر أمراء بني هلال:

– « فإن كنت طائعاً لله وللأمير، فضع في رجليك هذا القيد ».

ولن أقول ما قاله أبو زيد الهلالي للحسن بن سرحان:

– « سمعاً وطاعة يا مولاي ».

ولن أحط القيد في رجلي. فالسيوف اليمنية التي تملكها بتّارة ومخيفة، لكنها عاجزة عن حزّ رقاب الفقراء. والله يا السابي أيامك محدودة. جاي اليوم (اللي) يقلبك على رأسك.

الكلب تحوّل الى أخطبوط مخيف. أياديه طويلة حتى وهران والعاصمة

والبلدان البعيدة والغريبة. فهو لم يعد الى حي البراريك. من يوم حاصره شباب الحي، وضربوه حتى تقيأ الدم وأخذوا منه كل ما كان يملك. كانت عيناه الوقحتان مثبتتين على إحدى بنات البلدة الفقيرات. بقي في الحي الثاني. حيث صعدت مساكن عالية للذين يشتغلون بالتهريب وتغيير العملة بفرنسا. تصوّر يا سيدي. ثلاثة ملايين دينار جزائري. بمليون فرنك فرنسي؟؟؟ سرقة علنية. وحق محمد سرقة. فلماذا يا عباد الله يحاربوننا في لقمة العيش. كلهم تحوّلوا إلاّ نحن. إسألوا الخيمر. فقد إحترف هذه الصنعة من الصفر. فاجأ البلدة ذات صباح بعمارة عالية جنب بناية السبايبي، وسيارة تملأ عرض الطريق. وإمرأة شعرها تسافر به الأرياح. قذفتها إليه أمواج البحار السبعة التي قطعها زحفاً على وجهه. إسألوا الخيمر أنه ورث أمواله عن أبيه.

سعل السبايبي بقوة حتى يثير إنتباه المصلّين.

«المؤكد أن أفخر سلعة في سبدو وتلمسان تنام في بيته العالي. ما الذي جاء به الى هذا الجوع كما يسميه هو بنفسه».

- «صباح الخير على جماعة الخير. الله يعظم الأجر يا القهواجي».

- «يرحم والديك يا السبايبي».

ردّ القهواجي من تحت أنفه بكلام شبه مقطع. كانت عيونه حمراء. متعبة. فقد قضى الليلة بكاملها بجانب العربي ينتظر موته بين الفينة والفينة. (السيلون)[1] كان ضيقاً وصخوره باردة. صرخ العربي كثيراً ثم صمت حين لم يعد للصراخ معنى. كانت تنام في عظام ظهره ثلاث رصاصات قاتلة. حين طلب القهواجي أن ينقل إبنه الى المستشفى قالوا له أن هذه قضية خارجة عن إدارة السجن وأنّ عليه أن يذهب الى العاصمة يطلب إذناً بذلك. ظل يدور ويدور. وفي النهاية جلس بالقرب من إبنه

(١) السجن (قاعة ضيقة للتعذيب).

الذي كان يحتضر. ينتظر لحظة موته.

« هكذا نحن دائماً. من لم يسقط في الخلاء، مات في قفر السجون ».

فرك السبتي يديه. وحاول أن يصطنع موقفاً من الألفة:

- « يا جماعة. لن آخذ من وقتكم كثيراً. السي إبراهيم. صالح. بو جمعة. قويدر. تعالوا في العشوة بأعوادكم. أنستكم أنتم وناس وجدة ومغاغا. خلينا خير ».

ثم لوى برنوسه حول عنقه وخرج. كان الميت أمامه فأراً. أو دودة. مجرد دودة قادها حظها التعس تحت حوافر الخيل الهاربة. لم تكن جثة العربي أكثر من دمية أحرقها طفل صغير عن طريق الغلط.

« تمو. غاسلين وجوههم بالبول. لا حياء ولا حشمة ».

قالها صالح بصوت مرتفع. ثم صمت مكدود الوجه. أصفر.

علت همهمة قطعها الإمام:

- « إلى المقبرة يا جماعة الخير. توكلوا على الله ».

كان صالح أول من إنزلق الى صدر مقام الولي الذي بني فيه مسجد القرية. وضع بين يديه الذراع الأول للمحمل القديم. وترك الأذرع الثلاث الباقية للناس الآخرين. المحمل، عبارة عن قطع من الأخشاب العتيقة التي أكلتها سوسة الألواح. في جنازة الإمام الأول. إنكسرت من الوسط فسقط الميت على الأرض. خاف الناس من المنظر، وظنوا أنها نهاية النهايات. فالطالع يقول أن جثث الأئمة حين تعجز المحامل عن حملها، فتلك دلائل القيامة. ورمت الأخشاب بالدوم، والحلفاء، وجذوع الأشجار اليابسة. ودفن الإمام. لكن شيئاً لم يحدث في هذه البلدة. حتى النهار لم يغير دورته.

إلتف مجموعة من الشباب على المحمل. رفعوه على ظهورهم.

إرتفعت أصوات النساء في الزاوية الثانية من المسجد.

حتى كلام الإمام لم يفهم إلا بصعوبة.

- «لتسبقنا جماعة الخير والأجر، لحفر القبر».

- «شبر واحد لا أكثر. لقد حفرته بأظافري ودم قلبي، حفرة، أقل شيء يمكن أن تقدّمه لهذا المخلوق حتى لا تنهشه الذئاب مثلما نهشت السي لخضر الله يرحمه».

شبر من التراب والطمي البارد. الله يلعنها لحظة تدمّر من الداخل.

تحرّك صالح والجماعة التي تساعده في حمل المحمل. حاول عبثاً مسح وجه المعرّق بكمّ قميصه الذي كان التراب يلوّنه بلون هذه الأرض المتعبة.

إمتدّ الناس خيطاً واحداً من باب المسجد حتى المقبرة التي تقع على مرتفع القرية. هكذا ناس البراريك لا تجمعهم إلاّ المآتم.

إلتفت صالح وراءه بصعوبة كبيرة.

كانت خالة العربي متكئة على صدر إمرأتين. عصابة رأسها (مطلوقة) تندب أيامها وتحاول إسترجاع وجه العربي. فقد كانت ترى في العربي خصب عقمها الأبدي. تناهت الى أذنيه حدّة الأصوات المخيفة التي تحوّلت الى ما يشبه عواء الذئاب الهرمة. وهو واقف عند الحفرة يتأمل الأتربة وهي تتفتت من جراء الأمطار التي عادت الى التساقط بقوة. تمتلىء الحفرة بالمياه الباردة. يبحث صالح عن إناء قديم، يجده عند شاهد أحد القبور. يبكي بحزن وشقاء. يحاول إفراغ الحفرة. تدمره قساوة اللحظة.

« العربي يا الغربي خويا.

وشحال من عربي قتله الضيم

إلّ نبكي ما نردك آخويا

وإلّ سكتَ ما راح يذوب الغيم...».

هدوء الأنبياء، التي كان العربي يتعبّد لعينيها. كان شعرها قد بدأ يتمرّغ على الأتربة والوحل. تمسح وجهها بأظافرها كقطة. تتمرّغ. تطلب من

السماء أن تتحوّل الحكاية الى مجرد كذبة مخيفة. لكن السماء كانت تعيد النظر في أشيائها الثقيلة. الرعود تقصف الغيوم تتصادم بقوة. تقشعر الأبدان. تتحول الظلمة الى نور غريب. تساقط الأمطار بقوة. البرودة لذعة أفعى صحراوية.

وضع جثة العربي بين يديه. وقف لحظة شعر بها تطول الى أكثر من سنة. تأمل الجموع التي كانت تأكلها الأشياء السوداء من الداخل. الأمطار تلطم وجهه بقسوة. شعره الأشخم الذي ورث خشونته من هذه الأحراج تملّس والتصق بجلدة رأسه. بشرته الجافة تلتمع كنجمة كلما أبرقت الغيوم المتصادمة. رأى فيما رأى، ليلاً ينزل على القرية بظلام أسود قاتم. وقبل أن ينحني على ظهره، شاهد لونجا تدع خرقة بيضاء بين أسنانها. تحاول أن تكبت حزناً تفجّر كالنار في عينيها الملتهبتين. تشهق في خفاءٍ ما. بخوف ورعب. كانت كنبّية مصلوبة في ذلك الصباح الممطر البارد. رأى كل الفقراء يبكون على الرغم من أن ناس البراريك، مذ كانوا ناس البراريك. في كل شيء يختلفون. يتقاتلون. يتذابحون. تسيل دماؤهم هدراً. لا يلتقون إلا لحظة الموت والميلاد.

– « آه يا العربي يا ولد مّا. الدنيا بنت الكلب. تعطينا مُؤخرتها[1] ».

غابت ألوان الشجر الجميلة. إنطفأت براعم اللوز التي كانت قد بدأت تفتح عينيها بخجل. سقطت الأنجم الجميلة وغرقت القرية بكاملها في لحظة حزن طويلة كهذا اليوم الذي لا ينتهي.

نام ناس البراريك في ذلك المساء باكراً على غير العادة المألوفة. الحيوانات صامت، أو على الأقل أجبرت على ذلك. تضوّر الأطفال جوعاً. بكوا ثم ناموا على رائحة الجمار والخشب المحروق. وروث الأبقار. تططت جراح حورية حتى أغمي عليها. نامت القرية على القرحة باكراً. لكن شيئاً واحداً ظل يطن في رأسه ويؤلمه. جثة العربي التي ظهرت بوضوح، من

---

(١) مثل شعبي بتصرف.

وراء الكفن الذي بللته الأمطار. والأغنية الجميلة التي كان يرددها كلها وصل الى الوادي.

آه يا العربي يا العربي..
خاطر والوادي أدّاني
نهز في الماء تشدَو
ونعبّط وين الرجال
والموجات اللاّ يزيدو...[1] ».

قبل أن يغادر صالح المقبرة. نظر الى السماء. لعنها في أعماقه ولأول مرة لم يستغفر الله. بصق على الأرض بقوة. أدخل إصبعه في فمه وتقيأ حتى سالت الدموع من عينيه. ثم أغلق سياج المقبرة بالأسلاك الشائكة والسدرة. نزل بهدوء. مرهقاً كان. حتى العظم. كانت عيونه ملتصقة بصمت الناس وهم ينحدرون من المرتفع في قلوبهم لذعة العربي والأطفال الفقراء الذين أكلهم العراء.

بصق على الأرض ولعن السماء من جديد ولم يستغفر الله.

- « يلعن ربها دنيا. إذا ضحكت تاكلك وإذا بكيت تاكلك ».

● ● ●

- ٢ -

توقف سقوط الأمطار منذ أكثر من أسبوعين. حالة الصقيع الفجري والبرد. ظلت قائمة. عاد الناس الى حركتهم العادية بعدما دفنوا العربي وعبدالله ولد يمنة وبقايا لحم وعظام السي لخضر الذي قددت جسده ذئاب الليل الشرسة عند الوادي. لم يجدوه الآ عندما تحوّل جسمه الى خميرة سوداء نبت الدود في عظامه.

---

(١) لشعر شعبي شهري (أحزان [illegible]

حزن الناس الطيبون ومشوا وراء عظم النبي لخضر. كما مشوا وراء ناس قبله وبعده. عدت حركة بني هلال الى طبيعتها. تحركت العيون النجدية ذات الإتساع الخفيف في كل الجهات ثم ثبتت خزرتها نحو بلاد المغرب. حزمت القبيلة أقمعتها وخيام أمرائها وملوكها وجندها وإنطلقت تطلب رأس الزناتي خليفة. بعدما دفنت أموات حروبها مع الغرب.

أقسم صالح بن عامر الزوفري في أعماقه. أنه لن يعود الى صنعة الهمّ التي لم تعلمه إلاّ المذلّة والبكاء في السر والعلن:

«أوف. بعد كل هذا العمر؟؟؟».

«ماذا ربحنا يا الله. غير الهمّ وتعاسة الشقاء. بدأنا ننقرض على هامش الحياة. لو تركنا هذه الصنعة. فماذا سنفعل؟؟؟. البارح دفنّاهم واليوم نُجبر على غسل أيدينا من دمهم. تفو. تفو على قلوب تحولت الى قطع مطاط تتمدد بالحرارة. ثم سرعان ما تعود الى وضعها الطبيعي».

بصق على الأرض.

هكذا نحن دائماً. حين نضرب في الصميم. كالأطفال الأيتام نبكي. ومع مرور الأيام التي لا ترحم. ننسى أننا عرفنا وجهاً كان بيننا. يتألم لآلامنا. يشاركنا مسراتنا. يشرب معنا. ويدخن روث الحمير اليابس. ننسى كل التفاصيل. فالحياة أحياناً أقسى من الموت.

خلق تافهون. لا يحددون الناس إلاّ من خلال ما تمليه عليهم تفاهتهم وتساقطهم. تصوّر يا رومل أني لو قصصت عليك الحكاية ستموت من الضحك الى حد البكاء. السبايبي دائماً. جاءني ليلاً. كان بكل بساطة يريدني أن أتحوّل الى أحد أزلامه الذين يلحسون نعاله. من الصعب يا بابا السبايبي. أنا إبن الأحراش أن تأكلني برجاجة وسكين. كان يريد مني أن أنفض أصابعي من دم العرق. وأركض كالأبله بالمُكحْلة ولزروق في عرس ولد أخيه. لكنّي لم أفعل.

كان المساء بارداً وكنت مرهقاً وحزيناً. لامني عن غيابي في العرس.

أعراسهم دعارة رسمية.

- « والله يا صالح، عودك يساوي الخيل كلها ».

- « يا سيدي. لزرق هو لزرق ».

يا لطيف الموت والعرس. والله العظيم هذا (اللي) بقى للعمياء. الكحل. العمياء تطلب الكحل يا لونجا وأنت موضوعة في برج الموت تدلين شعرك للغدي والرائح علّه يلتفت لآلامك. قيل لك. حتماً سيعثر على شعرك رجل ينقذ الخروج من الأهوال سالماً. سيكون أخاك. قيل أنه سيصعد. ويصل. وربما سقط في الطريق. فالطالع يا إبنة الناس متناقض.

سألني وهو يلفّ برنوسه على ظهره ويحاول إختصار الحديث الذي بدأ يتّخذ منحنيات غير التي كان يريدها الرجل.

- « إسمع يا صالح. الميت مات والله يرحمه. فكر في حياتك ».

- « يا خويا الولف صعب. والعش أصعب والعربي ولبدي ».

لفّ ودار مع دورة (البرّاد) وكأس الشاي. وحرارة الجمرات المتقدة التي كانت تتفرقع بقوة. لم أكن قادراً على إبتلاع تفاهته ببساطة.

- « العربي يا السبايبي ما يتخلفش ».

- « يا أخي. أنا لم أعد أفهمك ».

وسرعان ما أفرغ حشو دماغه المرهق.

- « أنا مسكين وأنت مسكين والمساكين لبعضهم ».

- « وحق محمد. لم أفهم شيئاً ».

- « أنت تعمل بعرقك وأنا أعمل بعرقي. أنت لا تملك شيئاً. وأنا الأرض أخدوها مني. والأغنام مهددة ».

- « يمكن رأسي خشنة. لم أفهمك جيداً ».

- « يا سيدي لنقلها صراحة. بيننا مصالح مشتركة ».

- « وين تحبّ تصل يا الحاج ».

- « شوف. أنا أوفر لك طريقة تربح بها أكثر. وأخطيك من خدمة الحكومة ».

- « الحكومة. أخدم يا التعس للناعس. ما زلنا نحلم بالأرض وبلسد. مجرّد حلم ».

- « ها. هاه. بدأت تفهم. ستأخذ الأغنام. تهربها. تقطع بها الحدود وتأتيني بالدراهم. وحصتك مضمونة. وهكذا تعيش كالملك، أحسن مما تموت في خلاء موحش كالقط. أعرف أنك قادر على هذا الهمّ ».

- « وإذا ألقي عليّ القبض ».

- « لماذا تقرأ الشرّ. أنت بعودك الذي لا يركع، لا أحد يقدر عليك ».

- « يا الحاج. إسمع مليح. إذا كنت تريد أن تحارب الحكومة، حاربها لوحدك. ما تفوتش على ظهري ».

- « أنت رأسك خشن ولم تفهمني ».

- « أنا صحيح، فقير وجائع لكن بكل تأكيد لن أتحول الى جرو في يديك ».

- « إسمع يا صالح يا وليدي... ».

- « إشرب كاسك. ما شفتني ما شفتك ».

ثم قمت. كان وخز غياب العربي، قد بدأ يحفر قلبي.

أنا متأكد أنه في أعماقه لعنني حتى الموت.

كه. كه. كه.

تافهون يتصورون كل الناس قابلين للبيع والشراء بمجرد بسمة من أفواههم التي تتضوع منها رائحة الأسن. لا يا السبايبي. أيها « الفرمند » الجشع. لست قشمر بن منصور المهرّج. فألبس فرواً من جلد الثعالب وأدلي سوالف رأسي وأرقص في ملكك كالقرد مع نسوة بني هلال. مع وطفا

والماريا، والستّ ربما وبدر النعام وجوهرة العقول وسعد الرجا. تأكد يا أيها الفرمند، ليس كل الناس (أبو زيد الهلالي) الذي خُلق للفقراء، لكن بريق ملوك البدو كان أقوى، فسقط، يهرّج عند نعالهم.

تعثّر صالح، كاد يصطدم رأسه بالحائط العتيق الذي ينتصب في الجانب الأيمن من الزقاق. بصق على الأرض مرة أخرى ثم واصل تدحرجه.

نظر الى الساعة التي أخرجها من صدره.

تذكر أنه متأخر عن الوقت الذي يفترض أن يكون فيه مع السي أحميدا القهواجي. فهو يكره الجلوس في المقاهي. لكنّ رغبته في البقاء مع رومل وتخفيف الجو المتوحش عنه، لا تقاوم. بل تحولت لديه الى واجب يومي. فالعربي كان يملأ خواءه، وفجأة وجد نفسه في صحراء قاسية. وأوسع من صحراء العلمين التي أكلت شبابه ولحمه. فللعربي فضل في هذا المقهى. صحيح أن وضع قرشين على جنب من خلال صنعاته المتعددة. ساهم في ذلك. لكن العربي كان أصيلاً وشهماً. فالقهواجي الذي كان يشعر بإنقراض الأيام أمام عينيه. عادت إليه الخمسة وأربعين سنة المفعمة بالحياة. على الرغم من الشيخوخة التي تسلقت رأسه باكراً. يبظ كأرنب عجوز داخل البراكة. يستمع برقّة الى كلام رواد المقهى. وإلى السبحة الرميتي التي ينحت صوتها في داخله أشياء مرمرية جميلة. في عيون الأطفال الذين يركضون بجانب المقهى. يرى إنكسار رومل بكل آلبته. ضجة الناس غير المتناغمة تعجبه. عمي حمد قهوة. خالي رومل الكارطا. أتاي[1] الله يرضى عليك يا القهواجي. السكّر يا عمّي أحمد. الدنيا غالبة وعيون لونجا تطحن الواحد، فهي دائماً تتوجه الى براكته حين ينقصها السكر والتاي والقهوة. كان يوفرها لها حتى قبل وفاة الإمام. تفاجئه بعيونها ذات الإتساع المخيف:

---

(١) الشاي.

- « صباح الخير عمي رومل ».

تحني رأسها بحزن. تتداخل أصابع يديها. يفهمها.

بدت لصالح جميلة فوق العادة. إرتبك حين فاجأته من فتحة الباب المطلة على الزقاق الذي كان يقطعه. تداخلت كل الأزمنة التي ما تزال تنبض في داخله.

- « مساء الخير بابا صالح ».

- « إذكر اللبيّة[٢] تهدف. مساء الخير يا بنتي ».

كانت جميلة. لم تكن مكحّلة ولا مسوكة. منذ وفاة العربي، أحجمت عن فعل ذلك. فهي تعرف جيداً مقدار حب صالح الزوفري للعربي. بانت شقرتها الخمرية بكل وضوح وتجلّى عنفوان قداسة الجمال البربري. قدّر فيها صالح ذلك الموقف. حين رآها، شعر كأنّ الفجوة التي بصدره إمتلأت بالأشياء الجميلة.

- « رايح عند عمي حمدا كالعادة ».

- « غياب العزيز صعب. والأصعب منه الوحدة ».

تأملته بشيء يشبه العطف والحنان. صمتت برهة ثم رفعت إبهامها الى فمها، كطفلة صغيرة، تستحي أن تطرح على الملأ ما يختلج بصدرها الصغير. إبتسمت. شعر بالعصافير المربوطة تطير بإنطلاق. إمتدت إبتسامتها لتتحوّل الى ضحكة لطيفة. فهذه الطفلة، حين تفرح تتحول الى فرس جموح. ينفر أنفها، ويتعمق الأخدود الجميل الذي يتسلّق شفتها العليا. وتظهر غمازتان رائعتان.

- « التبن. التبن يا بابا صالح ».

- « ياه يا لونجا ما زلت عفريتة. ألم نقل أن الكلفة التي بيننا إنتهت ».

---

(٢) اللبوّة.

– « قلت نخبرك على الأقل ».

– « الرحبة قدامك. هذه المرة لن أكون أحمق ».

لأوّل مرة بعد أسبوعين كاملين، تشعر بأنها أضحكته. ولاحظت شبه فرحة تنط على وجهه وتتجاوز الزغب الذي يعطي الشعور بالإنقباض والحزن. فرحت لذلك. حملت شكارة الخيش. وقبل أن تنطلق نحو القعداء، كان ياسين يمرّ نحو المقهى، شبه ممتعض. يسميه أهل البلدة « الثعلب » أو « أحمر العينين ». يبدو أنه في الفترة الأخيرة. سقط ضحية إغراءات السبايبي. لونجا تكرهه كدم الأسنان. يحاول دائماً أن يعاكسها. لم يعد يربطه بهذه الحياة غير المصلحة الخاصة، وإستفزاز الآخرين بوقاحة. لم تقل شيئاً ولكنها لا شعورياً بصقت على الأرض. بينما كان صالح الزوفري. يواصل تدحرجه نحو مقهى رومل مطأطىء الرأس مثلما هي العادة، كجندي مكسور بعد هزيمة مرّة.

الله. هذه الطفلة كفيلة بأن تقهر الجمل. الإمام الله يرحمه، كان يعرف ماذا يصطاد. عيناه الجاحظتان لا تخطئان أبداً في تقييم الأشياء الجميلة. فالطفلة كانت مقموعة مع هذه الجثة الهرمة التي كانت تغار عليها حتى من التربة التي تمشي عليها. كان يقول دائماً أن الطفلة صغيرة والشيطان قوي. فقد أغوى حتى الأنبياء.

الله يرحمه. كان مهترئاً ويابساً كحطبة، عاجزاً عن ترويض نمرة، عيونها آسرة، مثل لونجا. مسكينة مقطوعة من شجرة، والغربة صعبة. فلولا هذه الوجوه الأليمة التي ترغمها على البقاء، لما بقيت لحظة واحدة. ربّما كانت قد رجعت الى جبال جرجرة تبحث عن ذويها، عن أمها. فأبوها يكون قد مات بكل تأكيد. تقول أنه مريض وأن صدره تخرّم من كثرة رطوبة المناجم التي كان يشتغل فيها.

– « لونجا مثلي. مسكينة. مقطوعة من شجرة يابسة ».

أوّل ما أطلّ على المقهى، رأى القهواجي، بجانب الوادي يمارس طقوسه الإعتيادية. يقضي بقية أيامه قرب هذه الحيطان العتيقة التي

كانت في ماض قريب سجناً مخيفاً. يكرر نفس العمل ونفس الحركات، وحتى نفس الإشارات ونفس الكلام. يكسر الخبز اليابس بشكل دقيق ثم ينشره على حافة الوادي التي كان يجلس عليها. وفي ساعة مسائية ما، تأتي الطيور الملونة ويأتي الحمام. تأكل فتات الخبز من الحافة ومن كفّه. وحين تنتهي تطير عالياً، عالياً. يتتبع حركاتها وهي تحلّق في الفضاءات العالية. يلوّح لها بخرقة بالية، يضعها على عنقه دائماً. يقال أنها من بقايا حربه مع رومل. ثم يعود، ليتهالك على كرسي قديم. ينتظر الزبائن، ويأكل ما تبقى من يومه. يبحث عن الخبز اليابس الذي يرميه الأطفال، والرجال والنساء العائدون من الحمّام. وفي بعض الأحيان يضطر الى إدخال يده داخل كومة الأوساخ ليخرج منها قطع الخبز اليابس. ويوم يداهمه المرض والتعب ويلازم الفراش مضطراً. يأتي الحمام والطيور الملّونة. ينتظر بعض اللحظات على حافة النهر. تصفق عيونهم الصغيرة بيتْم وألم ثم يطيرن من جديد ليعدن في نفس الوقت، من اليوم التالي.

هذا هو حميدا القهواجي، الملقب برومل، حياته كلها بين حيطان عتيقة كانت سجناً ذات يوم، وواد لا يتوقف خرير مياهه، يهدد القرية بالفيضان. صيفاً وشتاء. يسقي الفلاحون منه أراضيهم بالدّور، وكم من مرة وقعت بينهم مشاحنات ومشادات تصل حد إستعمال الفؤوس والعصي. كل واحد منهم يتّهم الآخر بإحتكار الماء. ابن عاشور يمسح السكين في بوزيّان، وبوزيان يتّهم أحمد المشّ وآخرون يتّهمون الحسين بوكحكوح لأنه أول من يمر الماء على جنانه. وحين ترفع المذاري والفؤوس وتخرج سكاكين ذبح الأبقار والأغنام، ويشهد الجميع، يا قاتل يا مقتول. يتدخل الشيخ البختاوي بوقاره، يؤتى به من جانب المقبرة في البستة البيضاء. فهو يقول دائماً أن مجاورة الشهداء أحسن من الجلوس مع أحياء خانوا الدم والملح.

هؤلاء هم ناس البراريك. تقودهم أحياناً عواطفهم، فلا يفكرون لحظة واحدة في العاقبة. يتقاتلون من أجل أتفه الأسباب. الماء إحتكره

فلان.أغنام فلان أكلت قمحي. أبقار الفرح ابن الفرخ[1] إلتهمت كل الحصدة. وحق محمد رأيت فلان الأقرع يغازل بنت فلانة بعينيه. الأحسن أن تتزوجها وإلا طار رأسك. المسائل المعقدة كثيراً ما تحلّ في عين المكان وقليلاً ما يتدخل القضاء. تبدأ الأمور بسيطة، ثم سرعان ما تتعقد، فتخرج السكاكين وتشهر البنادق، وتتكاتف القبائل متجاوزة تناقضاتها الداخلية وصراعاتها الثانوية.

وماذا عنك يا صالح بن عامر الزوفري؟؟؟. أنت ولزرق وشعر لونجا. والجازية التي باعت ذهب بني هلال لتدخل قلبك. كلكم مساكين. مقطوعون من شجرة يابسة. الناس أحبابكم. والناس أعداؤكم يا صويلح.

كانت الأمطار قد توقفت. الكراسي كالعادة، منتشرة في فوضى، تحيط بالبراكة. ما تزال على بعضها بقع الماء التي لم تيبس. رأى رومل صالح قادماً. فتّت قطعة الخبز المتبقاة في يده. نثرها على حافة الوادي. ثم قام متوجهاً نحو صالح بن عامر الزوفري.

– «واش راك يا صويلح».

– «كالأحجية. إذا بتّ تقول ما تصبح. وإذا أصبحت تقول ما تبات».

– «واش راك تخدم».

– «لا شيء. أندير الخير في اللي يستأهله. واللي ما يستاهلش».

كانت الأطيار والحمام الملّون. قد بدأت تغزو المكان وتحط بالقرب منها. تنقر حبّات الخبز. تحرّك رؤوسها. تشعر بألفة خاصة. بعد لحظات تطير في الفضاءات العالية الواسعة. تبحث عن النقاء ولحظة الوجد الهاربة.

– «تفضل يا صالح».

---

(١) اللمسط.

سحب له كرسياً. بينما بقي هو جالساً على حافة النهر.

- «لا بس. وجهك اليوم مليح يا روميل».

- «يا سيدي واش تحب. إنس الهمّ ينساك. هذه هي الدنيا، شي رايح، شي جاي. نبكي. نحزن. نتصور العالم لحظة الضعف تحت سيطرتنا. لكن سرعان ما تعود الأشياء الى روتينها العادي. إيه يا خويا يا صلح (قَدْ ما عندَك. قَد ما تَسْوى)».

- «الدنيا قاسية، لكنها ما تزال بنت ناس».

- «كبرنا يا صالح، وهذه الدنيا لم تعد لنا».

- «إهَهْ. وين الفطَ الخارق الذي هزم آليات روميل».

- «كان زمن وإنتهى يا بابا. وروميل دفعنا شبابنا».

- «وشطارة أكل لحم الكلاب، أيام العيد».

- «كه. كه. الله يخرّب بيتك. هذا ما ورثناه من الحرب. كنا مجبرين يا أخي. الجوع ولعلعة الرصاص. على كل حال لحم الكلاب أطيب من قوائم الدجاج المغلية في الماء الساخن. كه. كه.».

ضرب على ظهر صالح بقوة، ثم تضاحكا عالياً كما لم يحدث منذ زمن. الأيام الماضية قاسية. تأتي معتقة. حارقة كهذه الذاكرة المنقلة بالنار وأخبار عظام الشهداء.

«الله، على زمن مشوّه كالطعنة».

قالها صالح بن عامر الزوفري ثم تنهد بعمق، واضعاً رأسه بين ركبتيه المتعبتين.

أحمد القهواجي، عود زيتون، لا يخون الملح والعشرة. والأيادي التي غرسته معدن صافٍ. عاشر الحياة حتى أرهقته. شعر بوجودها، بشكل جيد. لم تكن أيامه مجانية. كان الصيف في تلك الأيام حاراً، حين ركبنا قطارات «وجدة». وكانت الحرب العالمية الثانية في أشدها. سجلونا في

سجلات كبيرة ومخيفة. كان هو من الدفعة الأولى التي غزت الصحراء المصرية، على أمل أن نقيم عرساً ذات ليلة على أحراش بلدتنا المتعبة. كان كل الناس يعولون على هذا العرسْ الذي كان حارقاً كنيزك طائش. كان يقول دائماً أنه سيقدم على إرتكاب حماقة في حق نفسه. وأنه سيقوم بعملية إنتحارية. يقتل رومل وبعدها فلينكسر هذا العالم المشوّه. القهواجي كان مولعاً بمحاربة هتلر والنازية. وحين عاد، كان مثقلاً بالأحزان التي لا ترحم. الهمّ ودموع الغربة التي تكلست في العيون، ويحكي بغصة في الصدر. أنه صبيحة أحد الأعياد وجد نفسه مجبراً على ذبح كلبه وطبخه، ودفن رأسه في أحد الوديان الجافة. كانت أيام الحرب قد أرهقته، وكان يعزّ عليه أن يرى أطفاله يتضورون جوعاً. فقد أكلوا يومها حتى الشبع. العربي، كان صغيراً، ومع ذلك فقد شعر بالملوحة الزائدة في اللحم. سأل عن السبب وحين لم يتلقّ إجابة، واصل أكله ولم يتوقف. مرت أيام، وتفطن ناس البلدة الذين يلتقطون الأخبار. لم يكذّب المسألة، ولكنه تمنّى في أعماقه أن لا يصل الخبر أبناءه.

في ذلك الصباح لم يخرج. متعباً حتى العظم، كان.

خرجت العائلة. لقد قضوا الليلة بكاملها في صنع علم. لم يكن العلم جيداً. خصوصاً النجمة والهلال. ولكنه كان كافياً لإشباع الجفاف الذي كانوا يشعرون به طيلة هذه المدة. مع برودة الفجر الربيعي ١٩٤٥، كان الناس يحملون الأعلام، يخرجون من الجحور التي يسكنونها دفعات متتالية. وفجأة سمع رشقات رصاص. إسترق السمع أكثر. دوّى إنفجار مخيف، تلته إنفجارات متتالية. حين عاد بالعربي وحيداً في يده، شعر بأن الوطن ما يزال حزيناً، وأنه بدأ يستكمل شهادته.

دفن عظام العائلة المحروقة، كما دفن الكثيرون أحبابهم، وبكى كما بكى جميع خلق الله الطيبين.

- «واش بك يا صالح ساكت ؟؟؟».

- «والله يا أحميدا خويا تعبت. الرأس إمتلأ».

- « هل وجدت شغلاً غير ربّ التّرباندو ؟؟؟ ».

- « لا والله. ما زلت على ما تبقى من دراهم الحاجة طيطها. بعد أيام سأعلن إفلاسي ».

- « إذ انفلقت الدنيا. تعال تخدم معي والربح نتقاسمه ».

- « الله يكثر خيرك يا أحميدا. حرام الواحد يطمع فيك ».

صمتا لحظة من الزمن، إحترقت فيها كل الكلمات العادية.

- « القهواجي ».

صاح ياسين بصوت إستفزازي.

إمتعض صالح بن عامر الزوفري، من هذا الوجه الذي لم يعد يألفه.

- « قهوة كحلة وتكون ثقيلة. هيّا ».

لم ينتبه القهواجي بشكل جيد الى صرخة ياسين الذي كانت عيناه تدوران في محجريها بشكل مريب جداً.

- « يا خويا يا صالح. الرجاء في الله. يوم لك، ويوم عليك. إذا إحتجتني فأنا هنا ».

- « حالياً الحمد لله. قد أنزل غداً الى دار البلدية استفسر عن إسمي. فأراضي السبايبي أممت، ويقولون أنهم سينصبون تعاونية بعين المكان، وربّي يفرجها بحكاية البراج[1] وننتهي من صنعة الهمّ ».

- « والله يا صويلح، السبايبي ذيب ».

- « وموح الكتاتبي أذيب منه. عنده كل شيء بالوثائق، ويقول بأنه سيأتي يوم ما ويفضحهم ».

- « ولكن القضية مدخولة يا صاحبي. عرّس وابن أخيه قبل أيام. يقولون أنه دعا رئيس البلدية ورئيس الدائرة لتدارس القضية، لأنه حتى أغنامه صارت مهددة بالمرحلة الثالثة. والله يا صويلح ما زلنا صغاراً.

---

(١) السدّ

فالسبايبي غول. كلهم في جيبه ».

- « لا. لو كان كذلك لما سكت عن أراضيه التي أمّمت. ثم ما الذي جاء به إلي يطلب مساعدتي لتهريب أغنامه، إذا لم يكن ضعفه ؟؟؟ ».

إنهمكا في الحديث. وحكى صالح عن تفاصيل الحادث الذي وقع له مع السبايبي. لم ينتبها الى ياسين الذي كان يتلّون كالحرباء.

- « العمى. هذه قهوة وإلاّ مزبلة؟؟؟ ».

صاح ياسين، ثم ضرب الكرسي برجله اليمنى.

إنتبه القهواجي الذي لاحظ بأنه مقعد الكرسي، ثقبه رأس حذاء ياسين. لم يقل شيئاً، ولكنه قام من مكانه. دفع، بصعوبة كبيرة، سحنته الهزيلة التي سحقتها الحروب، نحو ياسين.

- « تفو. هذا مقهى وإلاّ مزبلة؟؟؟ ».

تسمّر القهواجي في مكانه. لم يقل شيئاً. لم يحرك ساكناً لهذه الإهانة، ولكنه تذكر شبابه، والعربي الذي كسر عوده قبل الأوان. إنزلقت دمعة يتيمة متحجرة من إحدى عينيه.

- « مزبلة يا ياسين؟؟ لو كان العربي هنا، ما قلت هذا ».

- « طز عليك أنت والعربي ديالك ».

إستاء صالح من الموقف. حاول أن يهدّىء الوضع الذي بدأ يتوتر.

- « يا ياسين، يا وليدي. عمك احميدا كبير، والكلام الزايد علاش؟؟؟ ».

- « ... ... »

- « تعرف عمك رومل. قطع الصحاري كذئب البراري. والبحار التي لا تحد. فهو متعب. احترم شيخوخته يا وليدي ».

هؤلاء هم أصحاب البراريك. كأنهم في « بورديل »[1]. كل واحد يحاول

---

(١) ماخور

أن يفرض نفسه على البقية بأدواته الخاصة. عالم يا لطيف. عالم آخر. يعيش بطقوسه الخاصة. العمال. المخدرون. الطيبون. المهربون. القوادون. القتلة. كل واحد رمته منطقته الحائمة الى هذا المكان. الغرائب تحكى عن هذه الأشكال البشرية. فالأحسن للغريب، أن لا يتمادى معها في القيل والقال. يحكى مؤخراً، أن أحدهم دخل مقهى في إحدى المدن الساحلية، وبقي حتى ساعة متأخرة من الليل. رفض أن يخرج. ألح صاحب المقهى. رفض مرة أخرى. حاول إرغامه، فأخرج من حزامه نصلاً قديماً، وأفرغ أمعاء صاحب المقهى بكل برود، ثم إنزلق بين الأزقة السوداء والدروب الضيقة. ولم يلق عليه القبض إلا بعد أيام، وبالمصادفة. كان من الذين سكنوا البلدة متقدّمين. فتوهه تهريب المشروبات المسكرة والشّيشي[٢]. سكن جحراً مخيفاً وضع عليه قطعاً من الزنك، بالضبط في النقطة الفاصلة، حيث تختلط البناءات الطينية، بالبراريك التي تمتد على رقعة واسعة جداً. حتى لولحا، فلولاي، ولولا هذه الخلائق الطيبة، كانت قد أفترست منذ زمن بعيد.

– «يا ياسين الله يهديك. هذا أبوك».

كان الشيخ حميدا القهواجي، قد دخل البراكة، وعاد، في يده، كأس القهوة. يدب كالحشرة العجوز، ويحاول جاهداً أن يصطنع إبتسامة صفراء، عاجزة عن تأدية دورها كاملاً.

– «خذ يا ولدي. هذه قهوتك التي طلبتها. قوية، وتحرك الدم. خذ».

تراقصت عينا ياسين كالذئب. شعر بأنه الأقوى. ضرب كف العجوز بقدمه. فإتسخ وجه حميدا، ولباسه، وتكسرت الكأس التي سقطت على حجرة إسمنت يجلس عليها عادة زبائن المقهى. تدحرج في مكانه. ساعده صالح على الوقوف، ثم دفع بياسين بعيداً، فاصطدمت ركبتاه بحافة

نوع من المخدرات.

الوادي، وكاد أن يسقط على فمه. فرّ الحمام الذي كان يتأمل بعيونه الرائعة المنظر. طار في الفضاءات التي بدأت تضيق. تلامست الغيوم بقوة. شعر صالح بن عامر الزوفري، بأن سواداً ما بدأ يطوف على قمم الجبال التي تحتضن بلدة مسيردا المرمية على هوامش الإنقراض. شمّ صالح رائحة إحتراق الأشياء الجميلة في داخله وأحس بلحظة إحتضارها.

بدأت الأمطار تتساقط. زاد غليان المعدن الأسود في دماغ صالح. شمّر على ذراعيه. لعن الشيطان والملاك والدنيا قاطبة.

- «تتفنطز علي يا كلب الملاقي؟؟؟».

تحرّك في مكانه. شعر بشيء ما يسدّ حلقه.

يا ربي سيدي (واش) هذا الهمّ؟؟! يعرض عضلاته عليّ. هكذا يا ياسين!! هكذا يا بابا صالح تموت قبل أن تشيخ. هكذا يا عود السَّسْبان. وحق محمد، وراء المسألة ألف حكاية. كل الناس تنسى، ثم ماذا في القضية، إذا تأخر حميدا في إعطائه القهوة. (سَبَّه وَوَالْتْها حدوره). هذه ليست مصادفة. قادرون على فعل أي شيء من أجل تنفيهنا. أقسم ولا أحنــث، أنه السبايبي، دفع بهذا الجدو الممسوخ الى هذا المقهى والمقصود الأول هو أنا. آه يا إبن مريم الحولاء، ووراءك الزناتي خليفة. أعطاك مدينة وسعدا يا لخضر بن موسى مقابل أن تمرّغ أنفي على هذه التربة. سأقلّم أظافر طمعك وجشعك ولن تفرح إلا إذا مررت على جثتي. لن تأخذ، لا سعدا، ولا المدينة. فالمدن الجميلة لفقرائها الذين تعرّقت وجوههم من أجلها. وسعدا لمرعي الذي قطع القفار ليصل الى قلبها.

ستحصد الموت يا ابن مريم الحولاء، يا لخضر بن موسى يا دابة الزناتي، الهرمة.

- «يا أنا يا أنت يا ولد قحبة العسكر».

- «أنت نسيت نفسك يا قوّاد».

تدحرج ياسين الى الوراء. أخرج من حزامه مطوى حاداً، إلتمع تحت

حبات المطر الثقيلة التي بدأت تكبر أكثر فأكثر، وتقوى بشكل مخيف. خرج الناس من براكة المقهى. حاولوا أن يتدخلوا، لكن ياسين، أحمر العينين منعهم، مهدداً بإفراغ أمعاء كل من يتقدم نحوه.

– «وحق محمد اللي يقرب. ستبكي أمه».

يا لطيف. ذئب، يخافه جميع الذين عرفوه. إذا حطّ عينيه على واحد، لا يستريح إلا إذا ذلّه أمام جميع أهل البراريك.

إلتفت نحو الناس الذين تراجعوا تحت تهديده. تقدم نحو صالح منحني الظهر، يبحث عن زاوية يفتحها في جسد خصمه، الذي ظل متسّمراً في مكانه كالصنم. شامخاً كجبل. لكن وجهه الذي كان الدم يجري فيه قبل قليل، تحوّل الى قطعة حديد ساخنة. إنتفخت عروق الرقبة بشكل مخيف.

تقدّم ياسين بنفس الحركة البطيئة، ثم التفت الى الناس:

– «هذا هو الكلب العجوز الذي حوّل زوجة الإمام الى قحبة».

حاول رومل من بعيد أن يهدىء من الموقف الذي إرتفعت حرارته:

– «يا إبني إتّقِ الله. عمك أكبر منك. ثم لونجا ليست لا قريبتك ولا أختك».

علت صفرة حافة وجه صالح بن عامر الزوفري، على الرغم من البرد والأمطار التي يفترض أن تعطي وجهه حمرة جميلة. مدّ يده الى خصره الأيمن أخرج زرواطته بيد مرتجفة، ضيّعت صوابها.

هه. سأقف في عينيك كالنار. لن أكون بخساسة دياب الزغبي. عمرك أو عمري. سأدافع عن نفسي حتى الموت إذا إقتضى الأمر. لن أدعوك الى صيد الوعول والغزلان البرية. فالسوادقد وقف بيننا. لا شهباء لدي ولا خضراء. لن أدفعك أمامي ثم أصيح «خذها» وتلتفت أنت اليّ مذعورا، فتجد في يدي سنبلة. وأكرر اللعبة معك ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة أصيح وراءك. تظن أنها لعبة. ألكد الشهباء، فتطلع كالريم، حتى تقترب منك، أسحب دبّوسي، وأضربك على الرأس، ليطلع مخك فتتسخ به

ملابسي وسرج الشهباء الحريري. تشهق الشهقة التي أودت بروحك، وبيابيعي، خوفاً وقمعاً، بنو دريد وبنو زحلان. لا يا ياسين لن أكون بخساسة دياب حين فجّر دماغ أبي زيد الهلالي. لن أتيح لك هذه الفرصة. أنا لم أطلبك. أنت الذي طلبتني. عضلاتك شابة. لكن عيوني المتعبة، رأت الكثير من أمثالك يا ولد البراريك الحشّاش.

– «تتفنطز عليّ، يا وحد الفرخ».

إرتعدت الزرواطة في يده. إسودّت الدنيا في عينيه. لم يعد يرى إلا الأشكال السوداء، وعيون جاحظة، ومطوى حاداً يلمع بقوة، وأمطاراً غزيرة تقف بينهما.

هجم ياسين، بكل قواه، كالوحش المجروح. كانت عيناه مثبتتين على عروق الرقبة التي كانت تنبض بقوة. كاد يمسخ وجه صالح الروفري بختم أبدي. تلافى الحركة، فجرح في ذراعه الأيمن جرحاً عميقاً. شعر بنوع من الوهن. وقبل أن يلتفت أحمر العينين كما يسمّونه في البلدة، مرّة أخرى ويعيد الكرة، هذه المرة من الظهر، كان صالح قد عالجه بضربة على دماغه. فاحمرت عيناه. نظر الى الشيخ بحقد وبعيون متعبة. تدحرج في مكانه. عاوده بضربة ثانية على الظهر، فإنطوى مثل شجرة مقطوعة، وهوى على وجهه، حاول أن ينهض، لكنه قبل أن يرفع رأسه، وضع صالح ركبته على صدره، وأخرج سكينه الحاد الذي لم يخرجه في وجه أحد منذ إنتهاء الحرب. وضع يده على رقبة ياسين. كانت عيناه تتراقصان، ووجهه يرتجف. وقبل أن يجهز عليه. قبض رومل على يده.

– «في مقهاي يا صالح. الله يرضى عليك وعيني المسيردية».

إلتفت نحوه. كانت عروق عينيه قد إحمرت أكثر من السابق:

– «طز عليك وعلى مقهاك».

– «يا صالح اتق الله. الكلب كلب. لا تلطّخ أصابعك بدمه».

– «حرام أولادي. تبكي أمه ولا لونجا».

قبض على يده. شعر صالح ببرودتها وبنبضها الذي ما يزال حياً:

- «يا صالح. هذا وجهي لك».

- «لونجا ليست لا وحيدة ولا يتيمة».

تيقّن يا رومل. أنها لن تكون سعدا إبنة الزناتي خليفة التي تقاسم مصيرها أمراء بني هلال. وضعوها في آخر الميدان واتفقوا على أن من يصل الأول ستصبح ملكه. وجرت الخيول، وكان ذياب هو السابق. فأبو زيد، فالحسن بن سرحان. قلب دياب كان أسود كالمطران، هوى على وجهها فشقها نصفين. لن تكون لونجا هي سعدا يا رومل خويا. للونجا من يحميها، ومستعد أن يمنح ما تبقى من عمره فداء لها ولعينيها. وحق محمد الذي ينسانا أحياناً، تبكي أمه ولا تذرف هي دمعة واحدة من عينيها. لن يتقاسم لحم لونجا ملوك العجم ولن تتحول الى مارية المسبية. آه يا ياسين يا إبن الزانية. لن أتيح لك حتى فرصة التحوّل الى الخرمند،لتجبر عيون الماريا المسبية، إبنة القاضي بدير على النظر في قسمات وجهك الرخيص.

- «يا صالح. لونجا أكبر من كلام هذا الكلب».

ربت على كتفيه من جديد. كان الناس ما يزالون مندهشين لحركات صالح الزوفري، وخفته التي لم يفقدها على الرغم من الشيب الذي علا شعر رأسه. نهض صالح من مكانه واضعاً يده على جرحه. تنفس ياسين الصعداء. حاول أن يقف ولكنه لم يستطع. ساعده الحاضرون. كان متسخاً كدابّة هرمة تمرّغت على الوحل. تدحرج في مكانه. ثم وقف. نظر الى الشيخ بعينين تتطايران حقداً. بصق على الأرض، واضعاً أصبعه الشاهد في فمه.

- «سترى. الأيام بيننا».

- «وحق محمد المرة القادمة سأقلع لك رقبتك».

مشى ياسين قليلاً. إلتفت وراءه. بانت له جثة صالح، أكبر من اللازم. لم يقل شيئاً. تدحرج بتثاقل نحو البراريك، تمتم صالح في أعماقه:

«آه لو كنا في الزمن الفائت، كنت ذبحت له ربه».

تفرّق الناس. خلت البراكة. أصبحت كجوف باخرة مهجورة على شاطىء مقفر. أصلح الزوفري من هندامه ثم تهالك على كرسي عتيق. تنّهد بعمق:

- «آخ يا القهواجي خويا. يأكلونك حياً إذا بقيت ساكتاً».

- «يا صويلح ما بقى في العمر قدّ ما فات».

- «قهوة سخنة، الله يرضى عليك».

- «من قلبي وعينيّ. قلبك كبير. إنس كل الأحقاد».

هه. هه. يا بابا حميدا. وحق محّمد، لن أكون أبا زيد الهلالي، فأرسل له قومي يأتون به (دياب) من بلاد الحبش، هو وعشيرته. وبعدها أعطيه ظهري ليغرس مسامير دبوسه على قفاي. لا يا بابا حميدا. ياسين ذئب، ومهادنة الذئب خطأ. حين يؤول الأمر له، تأكد أنه سيمزقني، ويمزقك أمام الملأ. لا تخطىء يا رومل، فصحاري العلمين التي أكلت شبابك لم تكن طيبة معك ولولا شجاعتك وشجاعة الذين كانوا معك، كانت قد إلتهمتك مع آليات رومل الذي سدت حنجرته رمالها.

- «الصبر يا صالح، والواحد يكبّر قلبه».

- «الصبر يدبر يا خويا. الدنيا يوماً عن يوم، تزداد شراسة، وأولاد الكلبة يعرضون علينا عضلاتهم. الجنازات تكاثرت بشكل مخيف. يختطفونها من أفواهنا. حرام يا خويا حميدا أيتّم لزرق ولونجا. صدقني، إني بدأت أقرف من هذه المهنة. عندي نية لتركها، أو ترك ربّ هذه البلدة التي أخذت منّا كل شيء، ولم تعطنا شيئاً. ولا أتصور إني سأندم. لو كان الصيف على الأقل كنا عدنا الى مهنة الشوالة[1] والخماسة».

- «قدامك البراج (السدّ)».

---

(١) الحصاد بأجر.

قالها حميدا، وهو متكيء على خشبة عتيقة، يحضّر القهوة على البنُّور.

- « حلم يا حميدا خويا، ما يزال بعيداً. لم تبق أمامنا إلا الثورة الزراعية، موعودون بأراضي السبايبي. على الله يكون الكتاتبي قد قال الحقيقة ».

- « جرّب يا صالح. جرّب. هذا ما قلته دائماً للعربي، لكن رأسه كان خشناً ».

- « سأجرّب ».

وحق محمد. فليكن. يا تجيب يا تخيب. سأقتحم الخوف. سأنزل الى البلدية وسأقول كلمتي، سآخذ حقّي غصباً عن أولاد الكلبة الجرباء. يقولون بأنهم سيعزلون رئيس البلدية لأنه مورّط مع السبايبي في قضايا تهريبية، وربّما سيطردون حتى الكتاتبي، لكنهم يحسبون حسابات كثيرة قبل الإقدام على حماقة مشابهة. عمرهم بين يديه. لم تبق إلاّ أنت يا خويا أحميد السطايفي، القهواجي الطيب، من تراث هذه البلدة التي تحترق يومياً. الوضع قاسٍ والناس بدأوا يتوحشون كالحيوانات الضارية. وأنا يا صديقي ليست هذه مهنتي أبداً. خلق البراريك غير متجانسين. كل واحد جاء من منطقة. سمعوا بحكاية إنجاز سد بسيردا فجاءوا من كل فجٍّ عميق. من عنّابة، سيدي بلعبّاس، القبايل، الصحراء، وهران، وسكنوا هذه البراريك الممتدة على مرمى العين. ومع كثرة الإنتظار تحوّل أكثرهم الى تعاطي الحشيش والترباندو والحياة الرخيصة، والربح السريع، والى بنات سيدي بلعباس وشيخات[٢] سعيدة. حتى أنا سقطت في مهنة تعسة لم أطلبها. آه يا خويا يا حميدا، لا أحد يعرف قيمة شيخوختك المبكّرة. ذات فجر بارد سيدخل فيك أحدهم نصله الصدىء، مع أنك حاربت الألمان حتى سقطت أضراسك، وتمت، ودخلت مع رومل حرباً، خرجت منها منتصراً. وكان أن دفعت أبناءك ثمناً لهذا النصر. أنت طيب يا

---

(٢) مغنيات شعبية.

حميدا القهواجي. ما تزال في قلبك تنبض بقايا عظام الشهداء الذين سقطوا في العراء ولم تعرف أمكنتهم. لنا ضمائرنا يا صديقي. حتى الله، يبدو أنه قد نسينا في هذا الربع الخالي وتركنا نتخبّط وحدنا بتعاسة.

- «أستغفر الله».

- «إشرب يا خويا صالح. إشرب. الدنيا قاسية، صحيح، لكن من كان يقول أن الحاج[1] ستأكله رمال العلمين».

ضحك صالح، شعر في أعماقه، بطفولة غير عادية تعود إليه، تجري في دمه بحرارة.

- «الحاج كان عبقرياً مجنوناً. النملة كي تطمن تريّش لتصبح طعماً للطير».

- «... ... ...».

حين رشف أول قطرة من القهوة، شعر بالدفء يسري في أعماقه وبأعصابه تهدأ أكثر فأكثر.

- «يا صالح إشرب، رحمة ربي واسعة».

انتبه الى الأمطار التي تحولت الى خيط من السماء، والى القطرة التي كانت قد بدأت تمتد من الجهة اليمنى من سقف البراكة الى الوسط حيث وضعت الطاولات والكراسي والبنّور وبعض أكياس الخيش. تحرّك القهواجي في مكانه. حاول أن يبعدها عن القطرة ولكنه لم يستطع.

- «ساعدني يا صالح».

نهض. كان يشعر بإنقباض في صدره. وبآلام حادة في ذراعه الأيمن.

- «هذه هي الدنيا يا رومل مليحة مش مليحة. مجبرون على عيشها حتى العظم».

• • •

(١) هتلر

بدا يتعرّق على غير العادة.

خُيّل له أنها مدّت يدها المرتجفة نحوه. مدّ يديه لها ببطء وبحركة جد ثقيلة. لم يكن وجهها واضحاً، ولكنه شعر تجاهها بألفة غريبة.

تتصاعد سحب الدخان متعرجة. تتلوى كراقصة آلمتها لحظة الإشراق التي شعرت بها في آخر الرقصة. تمتلىء الحجرة بالروائح المختلفة، المختلطة. يغيب وجه صالح وتذوب عيناه في أفق بعيد، وغير محدود. تتكاثف سحب الدخان المتعرجة. ينشق الحائط العتيق. تتآكل على أطرافه ديدان قزحية الألوان. تحاول عبثاً أن تكتم فرحتها التي تشعر بها في مثل هذه اللحظات التي تغيّب وعي الإ: ،ن.

فتح صالح عينيه أكثر بمشقة كبيرة.

هوذا وادي «الرشاش» يفيض دماً على غير عادة الوديان، ساحباً في طريقه جياداً عربية أصيلة، ووجوهاً جميلة، وجثة إبن أخت الزناتي خليفة، العلام بن غضب، وجثث الأربعة وعشرين أجيراً، وآلاف الجند الفقراء.

يا الله. ماذا يمكنني أن أقول. فأنا عاجز عن فهم هذه التحولات. لماذا يا ربّك أدخلت أنفك في تلك التفاصيل يا أبا سعدا. كل منا حاول تحويل مجرى الوادي إلتهمه. وأنت أخطأت يا أبا سعدا. صحيح أنك طيب يا هذا الرجل المغربي، لكنك عاجز عن مقاومة قبيلة قادها الجوع والبرص والتيفوس لتتحول في النهاية الى طامع في أملاك قبائل أخرى. من الجوع للفنطازية يا بو ربَّ. أبواب المدينة، الحديدية عاجزة عن صدّ هجمات الجنود المتوحشين يا صديقي. فالشجاعة يا أبا سعدا لا تكفي، ولا حتى الطيبوبة في عالم غير طيب.

يصاعد الدخان أكثر، مصحوباً برائحة خمرية لا تقاوم تحوّلت في النهاية الى رائحة إمرأة خرجت من الحمام في اللحظة.

ينهار الحائط الثاني الذي كانت حجارته تتكىء على جذع شجرة قديمة. تطلع من وراء صخوره البركانية جثة تقترب من الهيكل العظمي، ولكنها ليست هيكلاً عظمياً بالضبط.

يرتعد في مكانه. خيّل له أنه رأى قبل لحظات وجهاً نبوياًمشرقاً ولكنه غاب وسط الأدخنة، وها هو نفس الوجه يعود ولكنه يبدو يابساً كحطبة مهملة.

يهتز الهيكل في مكانه. يسمع صالح أصوات غير متناغمة. يخاف. الدخان يتعرّج ويتماوج في الحجرة الضيقة التي أنهارت بعض حيطانها.

- «أعوذ بالله؟؟؟ ما هذا».

تمتلىء العظام باللحم. يبدأ الدم حركته السريعة التي تمتد الى كامل الجسم. تمتلىء محاجر العيون الكبيرة. الشفاه ترتسم بإتقان وبشكل مغر. يا الله ثمة يد خفية تصنع هذا الجمال. ينسدل الشعر، يصل الخصر، يمتد حتى الركبة ثم ينسحب على الأرض كثعبان صحراوي. رائحته جميلة وتسكر، وتدوخ الابن آدم.

- «مساء الخير يا زين الرجال».

- «الزمن يجري بسرعة البرق. كدت أن لا أعرفك».

- «الجازية يا صالح. الجازية التي سقط تحت قدميها الدهم فرس بني زغبي».

- «ياه. ياه. ياه. دنيا هذه».

إرتجفت الكأس في يده.

سحب من سجارته، نفساً إمتدّ حتى أحسّ به يجري في عروقه، ويختلط مع دمه.

شعر بعينيه تحرقانه، ولكنه لم يعط للمسألة أهمية.

ياه. الجازية.

الجازية أيتها النبيّة الهلالية. سحبوك من ربوع مكّة، وطافوا بك مرابع، ومنتجعات بلاد المغرب المتعبة. أخوك كان طيباً يا إبنة سرحان، لكنه كان خائباً. كانوا أقوى منه ألف مرّة. لعبوا له لعبة الغولة. فالملك يا الجازية يطيّر العقل. قطعوا بك أهوال بلاد نجد، ومصر، والعراق، وحلب وأجبرت على تذوق متاعب، ومباغتات الأسفار التي لا تنتهي مسافاتها. ويوم فقدت مبرّر عيشك معهم في بلاد الموت، وكانت مضارب بني هلال قد تمزّقت، وجروحهم تنزف، وسيوف دياب الزغبي تقطع الرؤوس بدون حساب ولا خشية، بكيت دمعتين على جثث الميتين ثم ركبت جواداً أصيلاً وهربت مع غفير اليتامى. حرقتِ أملاك أخيك وعدت الى التربة القاسية، تتدفئين بحطب الغابات والخلاء الموحش، وأقسمتِ في سرّك، أن تطحني دياب الذي قطع رأس الحسن بن سرحان.

حين كان أهلك يتحاربون. كنت تشعرين دائماً أنها حرب قوّادين وسماسرة وتجار أسلحة ومخدرات. فتنتابك غربة باردة، قاتلة تدفعك أحياناً الى التفكير في الإنتحار. فالمُلك يا الجازية شيطان. فرّق بين أهل القبيلة الواحدة. غزوا بلاد المغرب وقاتلوا أهلها، ثم قاموا بتصفية أنفسهم بأنفسهم. حتى أبو زيد الذي إتكلنا عليه كثيراً، لم يكن أكثر من مهرّج سياسي صغير، رضع من حليب الملوك. ذاق حلاوة بلاط الملك، فلم يستطع لحظة واحدة ترك أثداء بلاد نجد.

كانوا حقراء، وكنت الطيبة الوحيدة، ولهذا حزّوا رقبتك من جذورها.

دمك يا الجازية كان عزيزاً.

– « مالك ساكت يا بابا صالح ».

– « أحبك يا الجازية، لكن لست أدري، هل ألومك أو ماذا؟؟؟ ».

– « لقد طهّر الدم قلبي. لم أقاتل من أجل الملك. كان بيني وبين دياب دم لا يمحوه إلا الدم ».

– « دياب كان أقوى، وحقيراً محترفاً ».

– « لكنه سقط وبقيت أنا. حتى بلاد الأحباش لم تستطع حمايته من الميتة الرخيصة ».

شعر بأنسام خفيفة تصعد من أنفه الى دماغه. إنتعش قليلاً. تحوّل وجه الجازية الذي كان يراه برتقالي اللون، الى تفاحة حمراء مغرية. تفرقعت الجمرات التي كانت عند أقدامه. تحسس وجهه. لم يشعر بالزغب الذي نما بقوة على صدغيه. في لحظة ما لم يستطع فهمها، أحس كأن قامة الجازية الفارعة، تُوقفُ دَوْرتهُ الدموية وتأسر عيناها كل حركاتِه.

– « يا لطيف. جمال يقتل ».

وحق محمد. أقسم يا الجازية، أنك كنت الأعظم هذه المرة. والأقوى. صحيح أنهم قاتلوك حتى قتلوك، لكنهم حين رشقوا سيوفهم على ظهرك، تفسخت لحظتها جثثهم، وتفتت عظامهم، ولعبت ريح الشتاء بنفايات وذرات أجسادهم حتى غيّبتها في حفر العدم.

كنت جميلة كهذه اللحظة، حين طلبت أن ترشق السيوف على الصدور. رفض الدهام أن يحاربك لأنك إمرأة. عيناك إمتلأتا بالدم والنجوم التي لا تنطفىء. جرت بينكما معركة الدم وتقاتلتما، حتى حان عليكما الحين، وزعق فوق رأسيكما غراب البين. كان وقتها ملوك الهلاليين يحاولون ملك الشرق ليعودوا فيها حاكمين بحدّ السيف ووديان الدم. هلكت بلاد المغرب. وأفل نجمها فجأة، وبقيت أنت يا إبنة سرحان. كان الدرع بيدك ثقيلاً. فصلتِ رأسه عن جثته.

دافعوا عن الملك. ودافعت عن اليتامى والدم.

اللثام الذي كان على وجهك زاد من جمالك ومن دهشة أعدائك، فانتصرت حتى وأنت تهوين مضرجة على التربة التي ساقوك إليها مرغمة. طلبت مبارزة دياب. في البداية ظنّوك مُخَيْبَر بن أبي زَيْد، لكن مُخيبر كان قد مات في بلاد الكوع. حاول حمزة بن الأقرع مداهمة صدرك

الشامخ، النافر كفرس جموح، فثقبت صدره برمح لا يلين. صلب كأحجار الوديان التي أجبرت على قطعها. وحين خرج دياب شعرت كأنك أمام جبل مخيف. طلب منك أن تزيلي اللثام لأن نفسه، كما أدعى، تأبى محاربة من لم يُعرف حسبهم ونسبهم.

إرتجفت أمعاؤه حين داهمه إتساع عينيك الخيفتين.

قهقه عالياً. كنت مندهشة في طوله وعرضه، كأنك تكتشفينه لأول مرة. وقبل أن تخرجي من سهوك وتنتبهي أنك أمام طاغية كان نصله قد شق جبهتك وصدرك، فتفجّر نهداك بالدم مختلطاً بحليب الأمومة المحروقة. لكن اليتامى قتلوه، حتى قبل أن يخرج نصله من صدرك.

– «كان القواد ابن القواد، قوياً؟!».

– «لا يا صالح. لا. كنت أنا المنتصرة. لو قاتلني برجولة وسقط أحدنا كنت أحترمت شجاعته. لكنه لعب لعبة الغدر، فهزم نفسه من حيث لا يريد».

– «أقدرك، لكني في بعض الأحيان يا الجازية...».

– «ماذا يا سيدي. قل. قل كل ما تريد، فقلبي هذا المساء متّسع لحبك وشكواك».

– «لماذا أحببت بغل الهلاليين. أبو زيد الهلالي».

– «أبو زيد ليس بغلاً. أحببت شجاعته. كان بطلاً مغواراً، ولكنه كان تافهاً ومرتزقاً».

– «تتعاطفين معه».

– «ربما تعاطفت مع ماضيه. لكنه خان الملح، ومحبة الفقراء ودخل لعبة المُلك حتى العظم. لكن صدقني أنه كان رجلاً مقداماً. بفضله سقط جبروت الزناتي خليفة. لولاه لما تشجع أبو وطفا دياب بن غانم. ومعه سلكنا أنهار المدن الغربية. وفتحنا الأبواب الموصدة، والمراعي المقفلة في أوجهنا. حماقته الكبيرة أنه سجن دياب سبع سنوات بسبب الملك. وحين بكت

نوفلة أخت دياب عند أقدامه أطلق سراحه ليجد بعدها نفسه مضرجاً في دمه، ينام في رأسه ألف مسمار من دبوس، إذا سقط على الأرض شطرها شطرين ».

- « هل أنت مجبرة على قول كل هذه التفاصيل ».

- « لأني أحبك يا صويلح يا الزوفري ».

- « لماذا أنا بالذات ».

- « لأنك واحد من يتامى بني هلال الذين هربوا معي حين تيتّمت فعشقتك بشغف ».

- « وماذا يمكن أن تفعلي من أجل هذا الحب ».

- « الموت ثانية على صدرك الذي لا يعرف البأس ».

كلامك يا الجازية، هذا المساء، يشبه كلام الأنبياء والشهداء. وحق محمد، يسحق المرء من الداخل. يؤلم يا إبنة الناس جميعاً. لكن يا الله ؟؟؟

- « حكاية عشقك لبغل الهلاليين تؤلمني ».

- « قلت لك عشقت جرأته وقدرته على الموت ».

- لكن الذي أعرفه يا الجازية هو أنك تجرأت وتخاصمت مع عليا إبنة غانم زوجته لأنك كنت تحبينه. لكن كلب نجد الخصي رفضك. وطلب غانم رأسك يا الجازية. وهربتِ في النهاية خرجت بريئة من محاكمة القاضي بدير، مع أن سيوف الهلاليين كلها، كانت مشهرة لقتلك ».

- « يتعبني حبك يا صالح، وتتعبني أنت أكثر. كل واحد فينا يخطىء. ثم أنا أخت الحسن بن سرحان، وربيتُ في جو الإمارة والملك ».

- « وهذا عيبك ».

- « ليس عيباً، إذا كانت رغبتي كبيرة في عشق فقراء بني هلال ».

- « وهذا كاسك يا إبنة سرحان ».

ثم إنفجر باكياً.

– « مغبونون حتى العظم ».

هبت الريح بقوة في الخارج. إنفتح الباب الخشبي العتيق. تناثر الرماد. مسح عينيه بصعوبة. شعر بها حزينة. حزينة كما كانت يوم سقط أخوها.

مدت يدها نحوه.

مد يديه نحوها ببطء.

إنغلق الحائط المترهل. تشابكت شقوقه ليعود الى وضعه القديم. فصلت بينهما الأحجار الباردة ولم يعد يسمع إلا صوت الأرياح وصهيل الجياد، والجازية وهي تأمر اليتامى بالرحيل الى بلاد الكوع.

شعر بالتقيؤ.

ملأ فمه بالدخان والنبيذ. أحسّ بتيار بارد يتحرك في دماغه. فتح عينيه. رأى الفراش الموضوع في فوضى في أحد أركان الحجرة. سمع خشخشة الجرذان وهي تتحرك في السقف وفي زوايا أخرى لم يستطع تحديدها.

– « ياه. شربت كثيراً ».

حاول أن يقوم ولكنه لم يستطع.

نظر الى الساعة. متأخرة جداً.

أوف ماذا ينتظرني غداً، وماذا أخسر. صنعة النحس تركتها أو على الأقل النيّة متوفرة لتركها الى الأبد.

– « خليها على ربي والوالدين ».

إتكأ على الحائط. أغلق الباب ثم عاد الى مكانه الأوّل ليلف سيجارة جديدة ويفرغ كأس روج أخرى في أمعائه.

تذكر وجه ياسين. بان له حقوداً. قطعة حديد. يا لطيف مثل وجه دياب الزغبي.

مرّ جُرْذٌ أمـامه . فكر في قتله، لكنه قبل أن يلغي الفكرة، كان الجرذ قد دخل بين شقوق أحد الصناديق الخشبية الضيقة التي يُخبىء فيها عادة المشروبات الكحولية.

- « ياسين والجرذان من سلالة واحدة ».

كانت عيناه حمراوين من كثرة الدخان والشرب. لم يلعن ياسين كما تعود، ولكنه، حاول أن يجد له مختلف الأعذار. وصمم في داخله، أنه لو يلتقي به مرة ثانية سيطلب منه أن يغفر له حماقته. ويضعه تحت إبطه كأحد أبنائه الصغار ويجري به حتى التعب. مع علمه مسبقاً أن ياسين حين يُهزم، يتحوّل الى كلب غادر. يتحيّن كل الفرص للإنتقام ولو دفعه ذلك الى المرور على جثة خصمه.

« أوف. أوف ».

يا سيدي. يا الله. أنا لم أظلمه ولم أظلم أي واحد في البلدة. دافعت عن نفسي ليس إلاّ. وكل الناس يعرفون ذلك. جرحني. مطواه كان حاداً، لكن الحمد لله لم يختم وجهي بتشويه أبدي.

تحسس الجرح الذي في ذراعه. شعر بألم خفيف.

إتكأ على الحائط من جديد. نهض بصعوبة كبيرة. أنزل بندقية الصيد التي كانت معلّقة. حاول أن يتسلى بتنظيفها للمرة المئة بعد الألف.

- « هذا ميراثنا من الحرب. ما تزال صالحة ».

قبلها. تذكر الملاحظة التي كتبت في ملفه: Element très dangereux شعر بحزن يحفر أعماقه.

قلّب البندقية بين يديه.

هه. في هذه النقطة بالذات، كان يختلف السي بلخير عن المصطفى بن براهيم. فالأول كان شاعراً شعبياً وخبّالاً لا تعرف بندقيته الراحة وعاشقاً في فمه عسل وشهد. أما الثاني، واسمحوا لي على الكلمة. فقد كان قواداً.

أقبح من أبي زيد. زانياً بغياً. ذكره قَطَعَةُ من خشبه، يا لطيف. من سلالة القيّاد. يركب «رخلة» ثم يجوب شوارع سيدي بلعباس ويوهم الناس بأنه خاتم أنبياء الشعر والمقاومة. وحق محمد، في هذه النقطة يختلفان. يختلفان كما تختلف هذه الخلائق البسيطة عن السبايبي.

– «السبايبي. الغش والفنطازية والإجرام العلني».

مدّ يده الى الزجاجة. صب كأساً أخرى.

ياه الجازية مسكينة!!!. لباسها كان شفافاً ورائعاً، يدعو الى الاحتراق كيف جاءت؟؟؟ كيف رجعت الى بلاد الكوع. إنها الدنيا يا صويلح. سائرة دائرة.

شعر بالنشوة وبالدفء يصعدان من أخمص قدميه حتى شعر رأسه، فيتململ في مكانه بعياء، وبالبرد الساخن يتحرّك داخل أعضائه، وبالعالم يشتعل وسط هذا البرد الشتوي.

– «ياه، على الله ما يفيض الوادي. ناس مسيردا، في كل شتاء يرتعدون خوفاً من النهايات المفجعة. الترباندو ياكل الناس، والوادي ياكل الخيرات والديار».

إقترب أكثر من الجمر أشعل لفافة جديدة من دخّان «الشعرة». صب كأساً جديدة. لم يعد يتذكر العدد، مع أنه في البداية أقنع نفسه بأنه لن يزيد على عشرة كؤوس. ومع شعوره بخفة وزنه، أحس برغبة ملّحة في البكاء حتى الصباح. الوحدة. البرد. الزلط[1]. الموت الأزرق. الوجوه الأليفة. هذه التحولات وهذا الحنين، بدأت تنتابه في الفترة الأخيرة بعنف.

آه يا ربي العالي، لو لم تكن قاسياً. لو لم تَنْسَنا، ربّما كانت المسيردية، قد تركت لنا طفلاً نملأ به هذا الخواء الموحش المتعب. شيء جميل أن نتلذذ

(١) الفقر

بعشق الأطفال، لكن أن يتحول الطفل الى «العربي» وتقتله في خلاء موحش، جمارك الحدود، الأحسن أن لا نرتكب ذنباً في حقه، أو أن يُمسخ الى شيبان والبريقع ونصر الدين، وتلعب برؤوسهم سيوف بني هلال. فهذا أقصى ما يمكن أن نرتكبه من ذنوب في هذه الدنيا.

أوف. إنهم يأتون أحياناً بالرغم منّا نتيجة الرغبة السوداء المعلقة على أسلاك الرغيف. ماذا نقول. هكذا نحن دائماً، وقلب المسيردية كبير، كبير، أكثر من همومي.

«إيه يا المسيردية».

تسرّبت دمعة ساخنة من عينيه. سقطت على الجمار المتقدة محدثة خشخشة خاصة بين الجمار التي كانت تتفرقع. صعد الدخان بكثافة. تمنّى عبثاً لو يصعد جسد الجازية المرمري، فهو بقدر ما سكر، بقدر ما تمنّى رؤية الأشياء الجميلة التي لا ينفذ رونقها.

آه يا الجازية، يا ابنة سرحان. تصوري!!!؟؟؟. الذي حزّني ليس موت البريقع.أنا أعلم مسبقاً أن القبيلة الطويلة العريضة، ستتمكن من إنجاب بريقع كامل الأوصاف، يستطيع أن يحارب لا دياب الزغبي وحده، ولكن كل «ديابات» العالم، ويبقى بريقعاً صحيحاً. الذي أبكاني يا إبنتي هو ضعف سحنة البريقع أمام جثة نصر الدين. صحيح أنهما كانا كلبين. ولا خير لنا من وراء كلبين يتقاتلان. لكن، مع ذلك، قد نتعاطف لحظة ضعف إنسانية، مع الأضعف. حزّني في قلبي أن يصرخ نصر الدين في وجه البريقع، وكنت أعرف مدى محبّتك لهذا الأخير:

– «إلى أين يا ابن كلب العرب وأنا وراءك في الطلب».

لقد شقه هو وجواده الى أربع قطع.

أنت سقطت قبل أن تري المعركة، لكنك لو رأيتها، كنت قلت مثلي أنها معركة غير متوازنة حتى أقاربه يا الجازية خانوه لحظة الفصل ولم يطالب بدمه إلا أربعون نفراً من بني زحلان.

الحرب يا بنت الناس، وكل الناس، لم تكن متوازنة.

حين انتهى كل شيء، ركب نصر الدين الشهبا. عيونه بحرية محنفة، وسط صحراء لا تنجب إلا الصفرة. على يمينه الملك صالح صهره، ووراءه عشرون راية، وتحت كل راية خمسة آلاف فارس. ركبوا الجياد وامتصت أراضي «عين برشان» دم البريقع وشيبان وزيره الذي كان أول من قُطع رأسه.

مدّ يديه نحو الجمر. شعر بالوحدة القاتلة. تمنّى فقط لو تفاجئه الجازية بعينيها الواسعتين الى حدّ الخوف وتدفعه الى الشكوى أكثر والى إفراغ البراكين التي تتأجج في صدره. تمسد على شعره، وتواسيه بحنان.

«إيك يا صالح الزوفري. إيك يا شعلة الليل والنهار التي لا تنطفىء. إيك يا ولد البلاد التي تمتص عظام أحبابها. ففي عيون المسيردية تتقاتل أزمنة القهر وقبائل بني دريد وبني زحلان ودم الشهداء الهلاليين الفقراء. إيك. فالمسيردية الطيبة تستحق أن يذرف عليها المرء دموع الحرقة، وغبنة الزمن الأرعن الذي لا يرحم. إيك».

بكيت العمر كله يا بنتي وما زلت. تمنيت طفلاً بلون عينيك يا الجازية من المسيردية وبشعرك الجميل الذي يشبه «سالف» لزرق والشهباء والخضراء المسبول على رقابهم الطويلة. حين بدأ بطنها بالإنتفاخ تحوّل كل شيء فيها الى ذرات من الفرح. لكن الفرحة سرعان ما قتلت. في المرة الأولى وُلد الطفل في شهره السادس. كان مُتعجلاً على الموت. في المرة الثانية ولد بستة أصابع، ولم يعمر طويلاً. وأقسمنا أن نتحدّى الزمن، ونجرب حظنا مع الطفل الثالث وإذا لم نفلح، فالدنيا يمكن أن تعاش بدون أطفال. وذات شهر حبلت بكتلة لحمية ثقيلة، ولدتها بعملية قيصرية. قال الطبيب وقتها أن التشوّه راجع الى مشكلة عناصر دمنا المتشابهة وقال أموراً أخرى لم أعد أتذكرها. وقالت جارتنا التي كانت تنجّم للصاعد والنازل، أن البيت مسكون بالرعب والخلائق الغريبة وعلينا تغيير البيت. وبقينا مرغمين في براكتنا. حين يقدم الشتاء، وتهتزّ

الحيطان المتعبة، نهرب الى مقهى رومل، ونتخبأ بين الصناديق العتيقة. وبعدها رممنا البيت وبقينا مع بعض بيننا الحب وطفل تتمناه، وأيام وُعدنا بها.

الدنيا يا صويلح ضيقة. أشياؤها الجميلة مكسورة. فردة حذاء يا لطيف.

غزته إبتسامة. خرجت من الأعماق، ما تزال في قمة توقدها، وهو يرتشف كأساً جديدة ويكوّر القنينة الفارغة على الحصير.

– «قم. لم تعد زوفرياً».

آه يا المسيردية يا ربك. علمتني الزواج ودفء الفراش. وها أنت تغيبين وتتركينني مثقلاً بالغربة والهمّ وتعاسة الجري ليلاً والترباندو. آخر مرّة حين أخصبت ثم أنجبت كنت حاضراً بالبلدة. كان ذلك بعد أربع سنوات من الإنتظار، حتى ظننا أنفسنا أننا خصبنا، ولن ننجب أبداً. حتى الدراهم التي إلتهمها الدكتور لم تفدنا في شيء. قال أن البرد هلك التناسل في أحشائنا. كنا نبيت عاريين. ننتظر متى تثمر هذه الرغبات المحروقة في البراريك، شيئاً يصعب تحديده. نشعر بجماله حتى قبل أن نراه. كنت في ذلك اليوم، واقفاً على حافة الطريق العام مع أهل البلدة، أنتظر الولادة وخروجك بسلام من المحنة. أرسلت لي بنت جارتك. فنزلت معها بسرعة، وكنت في أعماقي أدعو الله أن تنجبني بني صغير. خفت عليك. توقعت مكروهاً. جريت وراء بنت الجارة حتى أدخلتني الى بيت الولادة. كنت ملتصقة بالحبل المعلق على أخشاب السقف. تزحمين وتئنين. حين رأيتني إبتسمت بعياء وتنفّست بعمق. وتغيرت علامات الكآبة والخوف التي كانت على وجهك. أحنيت رأسي. خزرتني القابلة حنّا عيشة بنظرة مخيفة، تجاهلتها. كانت (مربّعة) عند رجليك. تفاديت النظر الى وجهها من جديد. ثبتّ عيني في وجهك. إبتسمت مرة أخرى وأشرت برأسك أن إقترب. إقترب. فاقتربت. لا. إقترب أكثر. فأقتربت أكثر. وحين

حاذيتك، لمست شعرك. كنت مشمراً على ساعدي. الوقت ضيق. رائحة عرق النساء اللواتي كنّ بالبيت. وجهك حار مثل الجمرة. رأسك كان متكئاً على ذراعي الأيمن. ولحظة الألم، فجأة عضضت بكامل قواك على زندي. شعرت بشراستك حتى صرخت بأعلى صوتي. ومع تكشيرة وإبتسامة خبيثة، قلتِ كمن أشفى غليله من شيء ظل يحزّ في قلبه من قرون.

- « هذه نتيجة أفعالك يا وحد الشيطان. شكون قالك جيبُو ».

خرجت أجري بأقصى سرعة. تطاردني قهقهات العجائز اللواتي أعجبهن المنظر. أسنانك مرسومة على ذراعي الأيمن في شكل شبه دائري. حين حكيت الحكاية لزملائي الذين كانوا ينتظرونني على حافة الطريق. ماتوا عليّ ضحكاً. وحين توفيّ الطفل بعد خمسة شهور ببُوحَمْرون. ذكرتك بالعضّة. ضحكتِ ثم بكيت بشكل هستيري، فأنّبت نفسي وإكتفيت بالبكاء مثلك.

آه يا يّما الحنّانة.

عيناك قاسيتان لحظة البكاء يا المسيردية. قاسيتان يا بنتي. أنا قلتها منذ أن وُجدنا ههنا نمارس طقوس العيش القاسي في هذه البراريك. الله نسينا. وحق هذه البراريك نسينا. وأنت تقولين دائماً (قولة) حميدا القهواجي المكرورة.

- « الرجاء في الله. الرجاء في الله ».

وقبل أن يفتح قنينة (الروج) الجديدة، خُيّل له أنه سمع حركة الباب وغزغزته. ظنها في البداية وهماً من أوهام الخمرة، لكن الصوت تكرر من جديد.

- « هه ربّما كانت الجازية. لكن الجازية حين تأتي تشق الحيطان ».

أوه يا المسيردية. هكذا نحن دائماً. نأتي ونعود بعاهاتنا وبؤسنا. لم تبق إلاّ القطط لتختم بقايا حلمي المرهق. يا دين الله. هل يستطيع القضاء الذي يشارع المتسببين في موت الطفل، أن يصل الى ذروة المأساة التي أشعر

بها. أنا لا تهمّني نتائج قضائهم بتاتاً. عليهم أن يتوصلوا الى الشعور بالبراكين التي تشتعل في صدري وإلاّ لا قيمة لكل ما يفعلونه.

- «العين اللي تُغمض أهدابها، انتهت يا بابا صالح».

إنزلقت دمعة تحجّرت في عينيه المرهقتين.

على القضاة أن يشربوا حتى السكر. حتى العمى. حتى اللحظة التي يشعر فيها الإنسان بأنه فقد كل شيء ليتحول صياحه ونحيبه الى عواء ذئاب شرسة. آه يا يمّا الحانة التي لم أرتو من حليب أثدائها ورضعت الدم من صدرها. يبدو أن مؤرخ القبيلة سيدي علي التوناتي وراءنا حتى الفناء، مع كل مؤرخي القبائل الهلالية. فإذا كنت سأعيد بني عامر الى الوجود بهذا الغبن. فلا عاش الخفاجي الذي زرع ألف نطفة في هلالبات بني عامر ولا عاش أطفالي. فسيف مطاوع خطيب الزناتي خليفة كان الأقوى، فقتل فيكَ خصب الأشياء. الشجاعة يا خفاجي العامري لا تكفي. ولوسمعت لحلمك الذي رأيت فيه سيقان ذؤابة إبنتك، تطول لتصبح جاهزة للقطع، لما وقع الذي وقع. عليك أن تكون ذكياً قبل أن ترتشق على ظهرك حربة غادرة.

رفع عينيه المثقلتين بالعياء والدمع المتكلس والدخان. بانت له فجأة لونجا منتصبة عند الباب، بجسد مرمري، طويل. في يديها إناء من البرغل المغربي، والحليب الفائر الذي إختلط بخاره بالدخان الذي يملأ الحجرة الضيقة. في البداية ظنّ نفسه أمام الجازية. لكنه سرعان ما تنبّه الى تفاصيل وجهها عندما تسربت أنسام باردة الى دماغه المرهق من فجوة الباب الذي لم يكن مغلقاً بشكل كامل.

مزح كعادته، حين يريد أن يتحقق من لونجا، لحظة السكر:

- «لونجا. يا لونجا.

شعرتك خبالة.

كليت سبع رجالة

والنامنة هجالة.

واش عشاك الليلة / آ بنت أمّا. (...) ».

وبإبتسامة عذبة إستجابت لفضوله.

- « عشايا نزيلة

ورقادي قرينة

واش عشك النلة / آ ولد أمّا ».

لونجا. يا لونجا. دلّي لي سالفك نطلع. الله. هل وصلت مرحلة الهذيين؟؟؟. حاول أن يتلمسها. لكنه خاف. فهو بالعادة يخشى أن يتلمس وجه الجازية أو المسيردية حين يراها خوفاً من إنزلاقها من بين يديه.

نهض بصعوبة من مكانه. لم يصدق عينيه. وبعد أخذ وردّ، تلمّس وجهها. لم تنطفىء كالنجمة. تذكر أنه شرب كثيراً، وأن الهواء المتسرب من فجوة الباب كان بارداً.

- « إسمحي لي يا بنتي. الواحد بعض المرات يخرج من عقله ».

- « معليش يا بابا صالح. سمعت أن أحمر العينين جرحك. جيت نشوفك ».

- « ما عاش اللي يمسّ ظفر من لونجا ».

دغدغتها فرحة إكتشاف الطفولة التي ما تزال في قلب بابا صالح. إبتسمت بإشراق.

- « لكنّك يا بابا صالح أهمّ من كل شيء ».

- « ماذا في يدك يا لونجا؟؟ ».

- « عشاي. معاش وحليب. قلت أقسمه معك ».

لونجا تقاسمني عشاءها. ها قد وصلنا الى قمة المحبة يا صويلح يا وليد أحراش مسيردا. الملح صعب يا بويا. هي ذي تأتيني مع بدايات سواد الليل، وتبدأ في نسج خيوط للمستحيل.

– « أتدركين يا لونجا بأني لا أصدق عينّي ».

– « أوف يا بابا صالح. خفت عليك، لست أدري لماذا ؟؟؟ أنت طيب وياسين كلب ».

– « لا تخافي يا القبايلية. الصحة ما تزال كاينة ».

– « فرحت حين سمعت أنك قلت: تبكي أمه ولا تبكي لونجا ».

– « قلتها. ومستعد لقولها أكثر من مرة ».

– « الله يخلّيك لي يا بابا صالح ».

– « أعذريني على سخافاتي يا بنتي. فأنا شارب والله غالب ».

إبتسمت في أعماقها تدحرجت أشياء مضيئة ونجوم جميلة. هه. ما يزال في قلب باباب صالح متسع للفرح والحب.

– « تمنيت لو تفاديته. فهو كالكلب، ضربته لا تروح في الهواء ».

– « هو اللي بدأ. والبادي أظلم ».

– والله يا لونجا منذ رأيته يتتبع أقدام السبايبي في السوق، تيقنت من أنه مستعد حتى العظم ليكون تافهاً ».

– « الأحسن تفادي مثل هذه الأشكال. بودلخة رئيس البلدية السابق كان طيباً فقتلوه ثم أشاعوا في البلدة بأنه إنتحر وألقى بنفسه في الوادي. أخطيك من جماعتهم يا بابا صالح ».

– « والله يا بنتي تفكرين أحسن منّي بكثير. الله يعطيني عقلك يا ربَ. فأنا ما تزال جلافتي هي التي تحرّكني. صدقيني يا لونجا. ما يزال ذلك الشيء البدوي الحار هو الذي يدفعني الى البقاء بين هذه الخلائق الشرسة ».

– « حتى في رحبة التبن، كان هو السبب. كه. كه. ».

ثم تحركت بسرعة من مكانها، لتضع البرنوس الذي كان على ظهرها،

على رفوف عفش البيت، وعادت لتجلس بالقرب منه وتنظر الى عينيه اللتين، على الرغم من الشرب، لم تتسوّه خضرتها الجميلة.

مدت يدها الى اللعقة لتملأها بالبرغل ثم تضعها في فمه، حتى قبل أن يقول أية كلمة. كانت حارة وجميلة ومؤلمة مثل هذه الأشياء التي تترسّب في قاع الذاكرة. حركت زندها. بان الشعر الذي تحت إبطها وبان له ذراعها بكامله ممتلئاً ومقولباً بشكل يثير الرغبة التي تحجّرت وترملت قبل الأوان. تصاعدت الى أنفه رائحة عطور غريبة، مصحوبة بالعرق وماء الزهر والحناء البدوية وكتّان «مرزاية» الذي كانت ترتديه. غابت رائحة الشراب وسط هذا العالم المتناسق المتجانس. في لحظة شردت من ذاكرته المرهقة، تذكر رحبة التبن والنادر الفامل، وجسدها المتمدّد بكامل طوله. غنّى في أعماقه لو لم يرتكب تلك الحماقة. لكن تلك الحماقة ذاتها هي التي شجعت الطفلة بأن تركب رأسها وتأتيني في هذا الليل الذي يدفع المرء الى اليأس، لولا هذه الأنجم الجميلة التي لا تطمسها قساوة الأيام. تذكر الباب البرّاني. خاف أن تداهمه كلاب الحارات الجائعة. شعرت بحيرته.

- «وضعت الخشبة وراء الباب. ريّح بالك».

لم يقل شيئاً. كان غائماً في تفاصيل وجهها وجسدها الغض. نظرت إليه جيداً، ثم بتثاقل أسبلت جفنيها.

- «بابا صالح. أحك لي قدّاش تحب السيردية».

- «كان زمن وانتهى يا بنتي. لماذا نحش الماضي».

- «قلبك أكبر من الهم يا بابا صالح. لا تهرب».

- «أوف. ماذا أقول لك. كنت أحبها قدّ[1] البحر بأمواجه. قد المسافات التي تأكلني كل سنة. قد الموت الذي يهددني في أية لحظة. قد الدموع التي بكتها وهي تشعر بافتقاد الأمومة. وهي تكتشف أن الابن

---

(١) بحجم

السوي الوحيد الذي تمنته طيلة حياتها تأكله قطط المستشفيات. قدَ السنوات العجاف التي آلمتنا حتى كدنا نموت. قد أمّي التي جنّت وماتت ميتة بشعة. قد الجارية التي أحببتها وأنا صغير، أستمع عند الجمر المتقد الى حكايات جدتي التي لا تنتهي. قد لونجا التي تزرع في قلبي الفرح وتعطيني معنى للحياة. قد الليل والنهار في تعاقبهما. قد الأشياء التي لا تفنى. قد قلب لونجا الذي يتّسع لكل ذنوبي. قد الألم الذي يثمر الرجال والشهداء والأنبياء. قد عيونك التي لا تحدها مسافات الدنيا. (...) ».

سالت من عينيه دمعتين متعبتين. نظر الى الحائط. لم ينشق. لم تخرج لا الجارية ولا المبردية. ولكنه شعر بدخان الإحتراق يصاعد من قلبه.

مدت لونجا يدها الى يده. أرخت رأسها على صدره. لم يقل شيئاً. أخذت تدفع برجليها طاسة[1] البرغل، حتى أبعدتها عن الفراش.

- « عفواً يا بابا صالح. سامحني. أنا بنت طايشة ».

- « لا والله يا لونجا. أنت خاتمة الأنبياء والرسل ».

- « كل هذا الحب يا بابا صالح ».

قالتها، مفرجة عن أسنان جميلة، منتظمة بشكل رائع.

- « وأكثر يا لونجا. مثل الشمعة التي تحترق لتنير هذه الظلمة ».

- « خلّينا من الهمّ. غنّ لي عن الشمعة ».

- « صوتي لا يسمح ».

- « أنت تغني لي أنا. وليس لغيري ».

- « شرط أن ترقصي رقصة جمل جرجرة ».

لم تتوان لحظة واحدة. قامت بطولها الفارع. شدت حصرها، وأفخاذها بخرقات حمراء. بان جسدها ممتلئاً ومثيراً للدهشة. رفع صالح عقيرته عالياً،

---

(١) إناء

عالياً حتى بانت له الأنجم تصطدم مع بعضها البعض. كانت الشمعة التي أوقداها قد بدأت تذبل، وتتراقص بألم. أشعتها الملونة التي يغلب عليها اللون الأزرق. إتقد جسد لونجا الذي إختلط بالشعاع الممتد من السماء حتى الأرض.

- «بالله يا الشمعة سألتك
ردي لي سآلي.
آش بك في الليالي تبكي،
ما زلت شعله.(...)».

تلوت لونجا بألم مع إختلاط الألوان التي كانت تأكل الشمعة. هزت أوراكها وتطاحنت في عينيها كل أزمنة البؤس. متاعب الإمام الذي نسي أنها شعلة من النار. شعرت بنفسها تتحول الى طائر نورس، يحلق، يحلق في الفضاءات العالية. يثقب النيازك وصدر السماء، ويتمدد كألسنة النار المقدسة. تحرك نور الشمعة. تحولت الى نسمة. الى شعاع عمودي من شمس صيفية حارقة. سرى بين جلده شيء يشبه المعدن الساخن. هي ذي لونجا تحترق كالفراشة، وتستيقظ متأخرة لتذرف دمعتين على بقايا عظام دفنت في بلدتها. حتى وجه أبيها لم تعد تتذكره جيداً. ربما يكون قد مات. فقبل أن تأتي الى هذا المكان، كان قد تحوّل الى حطبة يابسة جافة من كل نسغ.

أغمض عينيه جيداً. بانت له لونجا صغيرة. صغيرة. تتّمت منذ طفولتها. في يدها قصبة صغيرة. تجري وراء بقرة غير حلوب. أحنى رأسه. سخّن يديه. إنتبه الى حركاتها المتسارعة. بانت له عيونها محروقة. تحوّلت الى خيط رفيع من النور الصافي. يشع من وراء شجرة لوز أثقلتها الثلوج. نحنح كما ينحنح لزرق لحظة الرغبة في الجري والتحليق ثم أنّ كقطّ جريح.

- «يا وعدي، لو جيت يا الشمعة،
نحكي لك ما جرى لي،

تنساي غرايبك،

وتسمعي لغريبتي طويلة(...) ».

دخلت الأغنية قلبها كالسهم. دارت في مكانها طائراً مذبوحاً ثم تهالكت على صدره. كان قد مضى على الليل وقت طويل. قلبها كان مثل فرس جموح لا يستقر في مكان. إرتعدت. تحولت الحرارة الى برودة سامة. طلبت منه « البورابح[1] ». وضعه على صدرها ثم أسند رأسه على رأسها.

هو كذلك، كانت أعماقه تتفتت كالتربة التي دفن فيها الأنبياء والشهداء والصالحون. رفع رأسه قليلاً. نظر الى عينيها المسكرتين. حاول أن يتجرأ على وضع يده على شعرها. أوف. دخله خوف غير مبرر بتاتاً.

الله. ماذا يحدث لو تجرحني وأنا في هذه الحالة. لا. يبدو أنها أشجع منّي. أتكل على الله يا صويلح وخلّيها على ربي والوالدين. تسللت يده اليمنى، لتتزحلق من على ظهرها الناعم، وتستقر داخل جمال شعرها. بقي لحظة متجمداً، لا يحرك عضواً. لونجا لم تقل شيئاً. كانت تركب موجة برتقالية، وتسافر على متنها، قاطعة البحار السبعة. تشعر بلذة غريبة تحرك دمها على غير العادة، وتعيد لها حرارة جسدها. إسمع يا بابا صويلح. لونجا جاءتك وفي رأسها بابا صالح. فلا تكن غبياً أكثر من اللزوم.

أضاف كأس روج أخرى.

كانت هادئة عند صدره. تستمتع بدقات قلبه التي إزدادت بشكل متواتر.

« ياه. وحق محمد، صدق اللي سمّاك لونجا ».

ثم أخذ يدندن في أذنها، متعب الحلق.

- «لونجا يا لونجا.

---

(١) غطاء صوفي ثقيل.

شعرتك خبالة .

دلّي لي سالفك نطلع » .

- « غرقت يا بابا صالح . غرقت . البحر والبرّ بعيد والعيون المتعبة التي لا تقاوم الزرقة » .

- « أنت شمعة واللي يقترب منك . يحترق » .

نظرت الى خطوط وجهه بعمق . فجأة . تشبثت به ، وكأنها شعرت بأنها ستفتقده الى الأبد . وفي اللحظة ذاتها تأكد بابا صالح من حبّه لها . لم يعد يخاف على فقدها . زحلق يديه تحت إبطيها وجرها نحو صدره بقوة ، حتى شعر بأنه أكسر عظامها وعظامها وأدخلها في قفص صدره . نفذت الى أنفه رائحة العرق المختلطة بأشياء أخرى . لم يدر كيف حل ضفيرتها وأسبل شعرها على جسدها البض . لم يدر كيف نزعت ثيابها وثيابه وإستلقت بكامل رغبتها المحترقة في حجره . لم يكن يدري قبل هذا العهد . أن للونجا لساناً بهذه النكهة الطيبة ، وشفتين ، إمتلاؤهما مخيف . لأول مرة يحس بها ، بقوتها بحبّها . بروعة حيائها . بنبوّتها التي لا تموت . بلذة إكتشاف كل شيء جميل تتفرّد به لونجا دون غيرها . بغموضها . وحق محمد ، هناك شيء يصعب إدراكه ، لكنه موجود في هذه المخلوقة الغريبة .

حين عادت لتلتمّ وتتكوّر عند رجليه . سمع نشيجها وحزنها يتحوّل الى كتل محرقة تشبه الصخور البركانية لحظة القذف .

- « آه يا بابا صالح لو تدري ؟؟؟ » .

- « خير . هل ارتكبت حماقة جديدة » .

- « لا يا بابا صالح . هذه المرة جئتك برضاي . حتى لحظة التبن الغامل ، في أعماق أعماقي ، لم أرفضها . شيء واحد كان وما زال يخيفني حتى هذه اللحظة . الدنيا قاسية يا بابا صالح . البرد . والثلج وأولاد الحرام الذين يملأون الطرقات . العربي مات . العربي لا يبرح مخيلتي . اضطررت تحت تأثير الخوف أن ألعنه وأقول له (أحجارك يشدّوك) . يملأ أحلامي

بشكل مرعب يا باباب صانح. موته لم يكن عادياً بالنسبة لي. شعرت بك وحيداً، كمن أخذوا جزءاً كبيراً من قلبه. أخاف أن أفتقد ذات فجر بارد، حنانك ومحبتك لي. أنت بابا ويمّا وجبال جرجرة التي لا ينتهي إمتدادها. أنت الأراضي الجبلية التي لا تنجب إلا التين والزيتون والغربة والبؤس ولحظة الفرح الهارب. أنت كل شيء في حياتي يا بابا صالح. أنت لم تتسخ يا هذا المخلوق البسيط. لم ترتكب حماقة. جئتك برضاي. ونمت في حجرك الدافىء برضاي. الدنيا قاسية، وحرام يأكلني الدود من الآن. أخاف. أخاف أن تأكلك المسافات التي لا تنتهي. إبن آدم رخيص في حيّ البراريك. حين سمعت أنك تشاجرت مع أحمر العينين إرتعد قلبي.

– «اللي عنده لونجا ولزرق والبندقية، ما يخاف لا من الليل، ولا من البرق، ولا حق من ياسين».

– «لا يا بابا صالح. الدنيا بنت الكلب لعّابة، دوّارة. تأتي من الخلف».

– «الدنيا قبيحة صحيح. لكنها ما تزال جميلة بالناس اللي مثلك».

– «الجوع والفنطازية؟؟؟».

– «لا والله. أنا كذلك مللت من هذه الحياة. غداً سأبحث عن عمل. سأنزل الى البلدية، لأسأل عن أراضي الثورة الزراعية. عن بداية الأشغال في سد الصواني. عن أي شغل يحفظ ماء الوجه. تيقني يا لونجا، لو كنا بالصيف، كنت عدت الى حرفة الشوالة، لكن الشتاء يا لطيف والبرد والموت الأكحل لا يرحمون».

– «أحسن. فأنت كلما خَرَجْت، خرجَت معك عمري. صنعة قاسية. حافظ على روحك وعليّ. فلو بذلت مجهوداً، حتماً، ستجد شغلاً يناسبك».

– «فمك لربي يا بنتي».

كانت يده اليمنى قد عادت لتندفن في شعرها المنسدل على كامل جسدها. بانت له صغيرة. صغيرة. طفلة ما تزال بكراً. حادة كهذا الوطن

الذي يقتل كل يوم ألف مرّة. تذكر رقصتها التي ذبحته مع الأغنية ومدى الإنسجام الدقيق. أقسمت هي أنها ستحبل منه. أقسمت برأس عوده وبشيب رأسه. العرق يملأ خياشيم أنفه. الجنة تسري في عروقه المحترقة، فوجهها كان قد عاد الى توقده.

كبرت في عينيه أكثر حين بكت على صدره وحكت له عن أهلها الطيبين الذين إذا تغدوا لا يتعشّون، وإذا تعشوا لا يتغدون. رزقهم من باب الله الذي ينفتح مرة في السنة. نبتوا في تلك المناطق الجبلية الوعرة حتى أكلهم الجوع والمرض، والحروب.

لم تغف أجفانهم طيلة الليل. ومع الفجر الأول، حين بدأ النعاس يغالب لونجا، والتعب يرخي كافة أوصالها التي لم تفقد حيويتها لحظة واحدة، تصاعدت الى أنفها رائحة العرق، فالتصقت بجسده العاري، أكثر فأكثر حتى شعرت بنفسها تدخله وتندفق في أعماقه. عاودتها رغبة النوم في حجره.

– «بابا صالح.. بابا صالح..».

قالتها متقطعة. بكل ظاهر وعيون نصف مغمضة

– «يا عين وقلب صالح».

– «وين القَلْبة اللي درناها البارح، هيا نعاودها يا الله. هيّا نعاودها».

ثم أرخت رأسها على صدره وتلاشت كالومض.

كانت حركة الجرذان قد إنقطعت بالبيت وإنقطع تساقط الأمطار. لكن البرد في الخارج ظلّ قوياً وسقوف الزنك تئن بأصوات مسموعة.

• • •

– ٤ –

«القلعة العالية وشحال أدّات ناس.

العربي . ويا العربي خويا .
لو كان جيت سما ونجوم
نخلّيك كي الطير تحوم(. . .) » .

القلعة عالية وكبيرة ونحن ما زلنا صغاراً . كل الأشياء تغلق في وجوهنا حتى أبواب المدن الغربية الثلاثة التي بنيناها بدمنا ، باب « منصور » يستفز ضعفنا بثقل أخشابه التي لا يحركها جيش بكامله . بوابات « صارة » التي تتخبأ وراءها جيوش الزناتي خليفة لم تطحنها حروب السنتين مع بني هلال . باب « حسرة » لم تدمره حتى الجيوش التي سبقت بني هلال في غزو المنطقة ، بعدتها الثقيلة التي جرّتها وراءها من بلاد العجم ، ولا حتى سيف دياب الذي يزن الأطنان .

القلعة عالية يا العربي وأبوابها مغلقة . من أين ندخل يا هذا الطفل الذي أرهقه قلبه الذي لا يصبر على الهم .

من أين ندخل .

بان له باب دار البلدية عالياً وبان هو تحته كالذبابة .

ضغط على الزر ثم وقف يتأمل في الحديقة المحيطة بدار البلدية .

في هذه البلاد الواسعة يا العربي التي تشبه أراضي بني هلال ، كلما لمسناها تزداد ضيقاً ، يحدث أن يموت المرء كما تموت أبسط الحشرات . فالمحاكم في هذه الأرض ، لحظة الغضب ، تجري في دقيقة واحدة ، في دماغ كل واحد فينا . نحن الرؤساء . نحن الحكومة . ونحن الضحايا . وكما يقول سيدي علي التوناني ، فإذا اختلط الحاكم بالمحكوم ، والمحكوم بالحاكم ، فأذن لهذه البلاد بالدمار . التوناني كان مؤرخاً فاشلاً وتافهاً وأحد أزلام الزناتي خليفة ، ولكنه مع ذلك لا ينطق إلا من خلال تجربته .

- « نايمين وإلاّ واش » .

يا لطيف . هذه بوابة دار بلدية أو بوابة قلعة ملكية .

رفع الدبوس الذي ينام دائماً على خصره ثم دق الباب من جديد .

فتح الباب. إنزلق داخل البهو. سأل الحارس عن مكتب موح الكتاني، أشرَ له بيده إلى أحد الأبواب المسدودة بدون أن يتفوه بكلمة واحدة. ضغط على الزر. فتحت الباب. ولج الحجرة.

- «آي آي والقلب عاي. صباح الخير يا السي موح».

- «صباح الخير يا بابا صالح. زارتنا بركة».

- «هذه قلعة وإلا دار حكومية».

- «الدنيا هكذا يا بابا صالح».

باب عالية دائماً مغلقة. يشعر الواحد تحتها بصغره. يطلّون عليك من الفتحة الصغيرة، فإذا لم تكن مشاغباً فتحوا لك الباب، وإذا كنت غير ذلك يتركونك تنتظر وتنتظر حتى يكنسك العسس الذين يحومون مساء حول البلدية كالكواسر.

- «خير إن شاء الله يا بابا صالح».

- «والله يا وليدي مللت الوحدة قلت أشوفك علّك تربَح عليّ».

- «قهوة وإلا... شاي».

- «اللي تحبّ».

- «قهوة يا موسى الله يرضى عليك».

قالها للنادل الخاص بالبلدية ثم إلتفت الى صالح مقترباً من أذنه:

- «عندي لك أخبار سارة. بدأوا بإعادة الإعتبار للمجاهدين القدماء. الكثير منهم ساعدوهم بالدراهم لبناء مراكز سياحية على الشواطىء ومقاه، وفنادق وحمامات تجارية، وسيارات».

- «المجاهدون. المفترض أن يكونوا أكثر الناس تضحية. ها هم يبادلون عظام الشهداء بالفلاّت والمقاهي والتجارات المربحة. تصور يرفعون ناساً. ويحاسبون ناساً إعتماداً على الملفات التي خلفتها فرنسا...».

- «خلّيها على الله يا بابا صالح».

- « والله يــا موح الكتــاتــبي الــلي قتلوا بودلخـــة ، يقتلونــا الآن بالتقسيط » .

- « مسكين . كان طيباً في عالم صعب لا تكفي فيه الطيبوبة » .

- « لو لم يسقط لبقي رجلاً عظيماً » .

- « لم يسقط تماماً وإلا ما كانوا تخلصوا منه » .

- « خسارة . خسارة . الدنيا ظلمة . يا موح يا وليدي » .

- « يبدو أنهم متورطون حتى العظم . الأسبوع القادم سيزور الوالي المنطقة وسيقلبها على رؤوسهم » .

- « إذا لم يكن واحداً منهم » .

- « يقولون أنه رجل نزيه وسريف » .

- « كالعادة إذن . سيزينون الشوارع . يذبحون الذبائح . يشوون . يقدمون اللبن والتمر ووجهاً طفوليا مرحا ، ويعود الوالي مسروراً ، فرحاً ، جازماً بأن الرعيّة تمشي باستقامة . وقد ينسى مهمته . ثقي يا وليدي بدأت تتقهقر في كل شيء ألمسه ، أو أشعر به فقط » .

- « لا يا بابا صالح . الناس الطيبون موجودون وأنت مقتنع بهذا . ولعلمك حتى تقتنع أكثر ، فأراضي السبايبي أممت رسمياً وستوزع قريباً . طبعاً سيحاول من جهته أن يفعل أي شيء من أجل إحباط قضية توزيع الأرض على الأقل . له معارف كبيرة وكثيرة الفوق » .

- « هذا أمر مفرح . فليس من السهل أن يضرب رجل كالسبايبي . ومع ذلك يا وليدي ، فتخوّفي ما يزال قائماً » .

- « طبعاً من ناحية التخوف ، فلست أقل منك . تصور يا بابا صالح . السبايبي ، الغني ، سليل القياد ساعدوه هو بدوره واستفاد أكثر من غيره بقضية إعادة الإعتبار للمجاهدين » .

فكّر صالح بن عامر الزوفري لحظة ثم قال بنوع من الحياء :

- « قل لي يا وليدي . هل أسمي مقيد على قائمة المستفيدين من أراضي

الثورة الزراعية ».

ثم فرك يديه بقوة.

- « أنا قلت لك، اللي يصبح عليك، يصبّح على الخير ».

- اسمك مقيد وسأعمل على الحفاظ عليه. إشرب قهوتك. وأدخل المكتب الثالث على اليمين. هناك إسأل عن قوائم تعاونية الشهيد مبارك، وتحقق بنفسك ».

- « الله يجازيك يا وليدي ».

- « وإذا كانت تهمك قضية إعادة الإعتبار، فسجل اسمك ».

- « لا والله. عرقي ودمي أكبر من الحمامات والفلات والعمارات. من هذه الناحية، حاسة الفهم عندي معطّلة ».

يا الله يا صالح. الدنيا تفتح عينيها فيك وأنت تشيح بوجهك. لماذا الحزن. لماذا البكاء يا شمعة الليل والنهار يا لونجا. فالدنيا ما تزال جميلة. وإذا دخلنا الثورة الزراعية، سنتخلص حتماً من همّ صنعة الموت.

بسرعة شرب قهوته التي بردت بين يديه.

وبسرعة دق الباب الثالث على اليمين.

- « تفضل ».

تدحرجت في دماغه الكلمة بخوف. بدا له الصوت مألوفاً. شد حزامه. نفض مؤخرته، ثم دلف الحجرة بكل عرضه وطوله. في لحظة ما لم تدر أين تستقر، إنقشعت كالبرق، تذكر الجيش الفرنسي وأوامره المخيفة، والشهداء والناس الطيبين الذين طعنوا في الظهر. فهذه الباب الخشنة ما تزال قائمة بينه وبين طموحاته. كانت موجودة مع لالونجو يا عمّا.

دخل. كانت القاعة عريضة وطفلة في جمال القمر، منحنية بشعرها القمحي على المسؤول الذي كان منهمكاً في حديث معها. الى جانبها كان يجلس السايبي بكل أشيائه الثقيلة ونياشينه التي ورثها عن « القيادة »

التي تمتعت بها عائلته الكبيرة. فهو حين يدخل البلدية أو يطلع الى العاصمة، يضعها على صدره للإثارة والإدهاش.

- «إسمعني يا الحاج السبايبي. إذا كان رئيس البلدية لم يستطع حلّ العقدة، فكيف أستطيع أنا العبد الفقير. إرفع القضية مرة أخرى للعاصمة. أما فيما يخصّ إعادة الإعتبار لجهادك، فأنت على رأس قائمة المسجلين. ملفك محفوظ في مَمُو العين».

- «على كل حال أشكرك. والله يعطيك العافية. سأعود فيما بعد. ثقتي فيكم كبيرة».

قام من مكانه. هزّ برنوسه على كتفيه. إلتفت نحو صالح الذي كان منهمكاً في تأمل جدران القاعة. خزره بحقد. ثم انفلت كالبرق يجرّ عصاه الثقيلة المذهّبة.

وقبل أن يغلق الباب وراءه، إنتبه الى صالح الذي تنفّس بعمق وألم.

- «والله ما تطفروها[1]. بيننا الأرض والنار. وسترون».

ثم صفق الباب من ورائه.

ياه. والله يبدو أن الحاج دمه محروق. البارح لم يكن يجرؤ على الحديث بهذا الشكل. وها هوذا يتحوّل اليوم الى كتلة ملتهبة من الإنزعاج واليأس. مؤكد أنه أكلها، مثلما كان يقول موح الكتاني. يبدو أن القضية تجاوزت صلاحيات البلدية. إيه (شحال) من عظيم، تعظّم وللخلاء (خلاّها).

القضية يا صويلح يا المسكين وصلت العاصمة وتفرقعت هناك كالقنبلة. الناس ناس. (شي) معه، (شي) ضده. خبثاء هؤلاء السماسرة والتجّار. حين شعر بأنه سيفقد الأرض، حاول تسخيري لخدمة مصالحه، وعندما فشل، وجد ضالته في ياسين أحمر العينين، فقاده من أنفه

(١) لن تفلحوا.

كالنعجة. فباسين من أجل الدراهم يبيع أمه. المؤكد أنه سيدفعه الى القيم بـ رفضت أنا القيم به. تهريب الأغنام وتوفير «الويسكي» و«الباستيس» للمسؤولين. أعط تأخذ. الرشوة. وبعدها، كل هذا من فضل ربي.

لا يا السايي. مُتْ إذا شئت. فلست بالساطة التي تتصورها. دمي مرّ لا يُشرب. هذا الفقر وهذا العراء علّمنا أن نكون فوق البيع والشراء.

«أعط تأخذ».

تخسر من هنا. يربح من هناك. تخرجه من الدب. يدخل من الطاقة. كالقطّ الهرم، من أي علوٍ رميته، يأتي واقفاً على قوائمه الأربع، والعياذ بالله. وسهرة صفقة في أحد «كاباتوهات» المتوسط. كفيلة تجعله مستفيداً من حكاية إعادة الإعتبار للمجاهدين القدماء. فالحصول على وثيقة المجاهد في هذه البلدة لا تكلفه أكثر من سهرة وبعض زجاجات الويسكي. أما نحن. ولله الحمد، إذا متنا، فأكثر شيء يعملونه، يحضرون جنازتنا وربما يدفعون ثمن الكفن. وبعدها يمصون أيديهم وتنتهي الحكاية. وكأننا لم نكن أبداً. وإذا لم يتذكرنا فقراء سيردا، ذهبنا مع الريح.

والله يا صويلح. رؤية السايي على هذه الحالة، كافية بأن تجعلك ترقص فرحاً. فلأول مرة ترى هذا الدبّ بكل هذا الإنزعاج. فهذه الأشكال تكاثرت في الفترة الأخيرة. في الزمن الصعب، الذي مضى، كانت تبيع الله والأرض، وتنام ذليلة عند أقدام (الكولون)، وها هي الآن تنفش ريشها في وجوهنا بقوة كالديكة المريضة، غير واثقة من شجاعتها. وتستغل الظرف القاسي لتجيّره لصالحها. إنها الوجوه الشرسة التي أرزأتنا في أعزّ أحبابنا.

– «عمي صالح. تحتاج إلى شيء ؟؟؟».

لم ينتبه له. كانت عيناه عالقتين بجدران الحجرة وبسقفها.

– «بابا صالح. مالك ساهي في الخط. هذه صورة نابليون، منقوشة

على الجدار من زمن فرنسا. لا البلدية نزعتها ولا نحن إنتبهنا لها. إيه زمن رايح، وزمن جاي، وكلها دنيا واحدة ».

- «لو عرفت قساوة الزمن الأول، كنت غيرت رأيك حتماً في الصورة ».

- « يا سيدي ماذا تغير. بحر راح، وموج جاء ».

- ٣ -

فكّر أن يواصل الحوار لكن عدد المعلقين في السقف أتعباه، فأنزلها عن الجسم المنقوش على الحائط الخشن. إنتبه الى وجه الرجل. كانت الكاتبة ذات الشعر القمحي قد عادت لتجلس في مكانها. لم يصدق نفسه أبداً. يحدث هذا معه لأول مرة.

- « يا الله. وصلتم حتى الى هذا المكان. خرّجناكم من الباب دخلتم من الطاقة ».

- « حظنا يا باب صالح. والدنيا تدور، واش تحب ».

- « المبلود ولد السي لخضر. أنت هنا، وبين يديك ملفات قدماء المجاهدين، والمستفيدين في الثورة الزراعية. ومكلف بإعادة الإعتبار لدمائنا التي شربتها الوديان والليل وجلد الفصول الشتوية. أنت هنا يا المبلود ».

دنيا والله. أنت تقيّم الناس؟؟؟ آه يا المبلود. (آش) من زمن هذا يا ولد السي لخضر. البارح تذبحني وتذبح والديك واليوم تقيّم مقدار قدرتي على التضحية من أجل هذه التربة التي سحقتنا.

- « والله يا عمي صالح الذنب ليس ذنبي. هم أمروا بذلك ».

لم يفهمه جيداً. كانت الأرض قد بدأت تدور تحت أقدامه التي لم تعد قدرة على حمل جثته الضخمة.

- « سمحوا لك بالتسجيل في قائمة عمال السد. لكن الثورة الزراعية قالوا... ».

– « إيه. كمّل. ماذا قالوا ».

– « قالوا أنّ ماضيك يكتنفه الغموض. وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم ».

– « من وقت فرنسا ».

– « آي نعم. ومكتوب عليها... ».

– « [illegible]. عنصر خطير ».

– « أنت تعرف كل شيء ».

– « ... ... ».

– « والله يا بابا صالح هم اللي نزعوك من القائمة ».

بدأت الأرض تدور بسرعة. وبدورات متعاكسة. شعر بتوازنه يختل، وبابتسامة صفراء تتدحرج في أعماقه كقنديل زيتي مهمل في قبو. تطاير زبد أصفر من حسنات فمه الذي أبيضّ كقطنة جافة. أحمرّ وجهه. جحظت عيناه، مسحهما من دمعتين هرمتين. هذا ما تبقى من الزمن الهائت الذي سقط بين أحجار قبور الشهداء والطيبين.

– «أنت هنا يا الميلود، ولد السي لخضر. أنت هنا، وبين يديك مصائر؟؟؟ تبدو تحت نظارتيك ومكتبك الأنيق مجرد ذبابات تافهة تستحق السحق ».

– «خير إن شاء الله يا بابا صالح. إسمك مقيد مع عمال السد. عن الثورة الزراعية والإستفادة من إمتيازات قدماء المجاهدين. تحتاج الى إثباتات رسمية. في العاصمة لا تنفع معهم العواطف. لا يعرفون إلا بالأوراق والوثائق ».

– « المجاهدون والوثائق الرسمية؟ ».

تمتم بحزن. تدحرجت في أعماقه بقايا الأنجم الجميلة التي تكسرت على صخور هذا الليل الذي تضاعف سواده.

آه يا إبن القحبة لو كنت أريد إبدلت بحذائي بورقة. وبراهني. كنت فعلت ذلك يوم نزلت من الغابة أول مرة. وكانت الفوضى ما تزال تعم البلد.

إرتجف ساعداه. سقط الدبوس من يده. بدأ الدم يجري في عروقه بسرعة الضوء.

- «أنت هنا. أتذكرك يا لخضر. وحق الله أتذكرك كهذه اللحظة».

- «وأنا أتذكرك يا عمي صالح. وأعرف أنك كنت مجاهدا فاضلا. لكن الأوراق. الله غالب».

- «الأوراق يا ربي سيدي».

آه يا ماما حنا التي قتلت وفي حلقها صرخة لم تخرج. أتذكره كالقطران. كنار الشهداء التي حين أستعيد وجوههم تحرق كبدي. أراه الآن بكامل جثته وهو يؤمر بالبول على رأس أمه العجوز التي ظلت تبصق على خلقته كلما رأته حتى جنت. وماتت بغصة في قلبها. أراه الآن بكامل وقاحته وسخفه. ألفت وجهه في المسجد حتى كدت أنسى أنه واحد من الذين باعوا قلوبهم للكذب والذل. وجه النحس. حتى لحيته الطويلة التي كان يعرف بها، نزعها. يقال أنه تاب. لا يتكلم إلا عن الدين والقيامة ويوم الحساب، الذي لا رحمة فيه إلا لوجوه المؤمنين التي لا تلمسها النار. لهم الحوريات اللواتي لا ينصب دفؤهن. يتحدث عن الصلاة ومناسك الحج وفقهاء سيدي بلعباس. مجنون حتى الموت بطلعة عثمان الذي باع المحكمة والقضاة، ابتغاء لرحمته تعالى. قيل فيما قيل، أنه يحيك مع غيره خيوط لإغتيال كاتب ياسين. أنا لا أعرف كاتب ياسين. لكن إسمه تملأ الدنيا. وأنا متيقن من أنه شخصية فذة ما يزال في وجهها دم. وإلا لماذا يريد بوخنة إغتياله. آه يا كاتب خوي، لو تدري ماذا يدبر في الخفاء ؟؟؟ لطم رأسه على الحائط بقوة. شعر بالبناية تهتز.

- «آه يا لوغي يا العذيلة. نحب بلادي لكنها ليست لي».

لونجا يا لونجا. شعرتك خدّالة. دلّي لي سالفك نطلع.

دخل الكناتي حجرة بولحيا حين سمع صياحات بابا صالح تتردد وسط أبهة دار البلدية.

- « يا محمّد فرقعها. مع أني قلت له مراراً تمّهل. سيأتي يوم ونكتشف كل أوراقهم ».

إنتبه لدخوله. كان غارقاً حتى الآذان بدم الشهداء الذي فاض من عينيه. ومن كل زاوية من جسده.

- « شوف يا الكناتي خويا. السي الميلود، ولد السي لخضر. يطلب مني تبرير ما ورد في ملفي. تصور يا خويا الأرض الواسعة تكتض بالتعدهت ».

هزّه الكناتي من كتفه بقوة. شعر بصلابة عود صالح بن عامر الزوفري.

- « عمي صالح واش قلنا. جننت؟؟؟ ».

- « آه يا موح. أكاد أجن. لا أصدق عيني. خرّجناهم من الباب، دخلوا من الطاقة ».

- « عمي صالح، إسمع لي على الأقل ».

- « يلعبون بدمنا، ويوزعونه على أغبياء البلد أوراقاً وفلاّت وكباريهات ومراقص ».

ضرب رأسه على الحائط مرة أخرى. سال الدّم على جبهته.

- « ها هم قد عادوا. خرجناهم من الباب، دخلوا من الطاقة ».

حاول موح الكناتي عبثاً أن يربت على كتفيه. أخذ صالح بن عامر الزوفري رواطبه التي سقطت على الأرض. إلتفت نحو الميلود ولد السي

لخضر. كشّر عن أسنان حادة، حادة كسكاكين الجزارين. شعر الميلود كأنه يبول في سرواله من تخوفه من هذا الوجه الذي تحوّل الى قطعة حديد ساخنة. اصفرت تقاسيمه كميّت لحظة الإحتضار.

- « هذا أنت يا الميلود. واه يا صاحبي!!؟؟ ».

- « عمي صالح. عمي صالح، يرحم والديك قل لي مالك؟؟؟ ».

تدحرجت الكلمات مرتبكة داخل حنجرة الملود الذي حاول بتحفظ أن يخفف من حدة الموقف. قاعته ملأها الرعب والخوف واللغط والجبهان. تدخل الناس، والموظفون لحسم الموقف. الجميع تفادوا إستدعاء الجندرمة.

- « عمي صالح... ».

كررها الميلود برجافة إحتلت أمعاءه الخاوية.

- « ماذا تحتاج أنا في خدمتك ».

- « شوفوا يا ناس. تحوّلت الى عنصر خطير على هذا البلد، الذي أعطيته دم قلبي. يستنجدون بالملفات التي خلفها ديغول وبيجار والقتلة ».

كانت الرجفة التي إكتسحت كل جسده وأعصابه. قلبه يدق دقات غير منتظمة. بصق على الأرض. نظر الى كل الوجوه التي بدت له متعبة وتخبىء وراء تجاعيدها أسراراً كثيرة. إنحنى على ركبتيه. وضع إصبعه في فمه حتى غاب في حلقومه. تقيأ في القاعة. هو دائماً هكذا. حين يشعر بالموت يبدأه من عينيه يفعل ذلك. يقول سيدي علي النوناني، على تفاهته، أن قيح القلب ومتاعبه يخرجان مع القيء. أحمرّ خدّاه بشكل غير طبيعي، وبدت نتف الزغب التي تملأ صدغيه، نافرة أكثر من اللازم. كانت العيون مندهشة، تتأمل حركاته التي لم تستقر في مكان. نهض بسرعة، ثم إندفع نحو الباب بكل قواه.

في الطريق ظلت تترنح في آذانه أصوات الميلود ولد السي لخضر، مرتبكة. عمي صالح. عمي صالح. إرجع الله يرضى عليك. وصورة نابليون المنقوشة على الحائط. شعر بها تستفزه في حريته وشبابه. كان واقفاً

وقفته المنتظمة. يد داخل الصدر وأخرى على المؤخرة. ووجه الكتاتبي الطيب الأليف.. والميلود. الميلود دائماً، مشهراً عضوه التناسلي في وجه أمه التي جنت.

- «آه يا الكتاتبي. ها وقفنا طعماً لهذه الوجوه. الله يلعنها دنيا».

آه يا صويلح يا خويا ما زلت صغيراً. أنت لم تر شيئاً، والدنيا سايرة دايرة. إفتح عينيك جيداً قبل أن تفاجأ بوجه مظلم وتسقط من (الفقعة).

هذا آخر ما كنت تنتظره هذا الصباح يا صويلح يا(عينين) الطير. يا القمح البلبوني.

شعر بصوت الميلود يلاحقه مكدوداً، مرتجفاً.

- «عمي صالح، لا تكن مجنوناً. أنا هنا لخدمتك».

وقبل أن يسقط على وجهه، قرب دار البلدية، إختلطت في رأسه كل الألوان معجونة بعضو بولحيا المقوص، وبرأس العجوزة الفقيرة فاطنة، وجيوش العسكر، وأزمنة الدمار الفائتة، ودار البلدية، ووجه الحاج الذي حاول إغراءه، وبول حمير الحارات الفقيرة، وروث بقرة ماما عيشة التي تلتصق كل صباح بذيل بقرتها.

- «آي يا صويلح. رأسك يكاد ينفجر».

أغمض عينيه، ثم واصل جريه بدون أن يلتفت وراءه.

«تحولت يا صويلح الى Element Dangereux. ترفضك التربة التي قاتلت الجيوش الجرارة من أجل حمايتها. عنصر خطير يا صويلح أنت، على راحة البلدة».

كان قلبه قد زاد خفقانه بشكل أتعبه.

لم يلتفت. كان يشعر كأن وراءه وديان الدم وآلاف العظام وملايين الأشلاء والقديد الآدمي، كانت تتحول الى فلات، وقصور، وفنادق وحمامات. وجوه الشهداء والأنبياء تلعنه. تلعنه، وهو يجري، ويتلوى كطفل لذعته أفعى.

لم يلتفت. عيناه كانتا هاربتين نحو بيته والإصطبل، ولزرق وعيون لونجا التي كاد ينساها.

• • •


الفصل الثالث

إحتفالات مَوْتٍ غَيْر مُعْلَنٍ...

مرّ الليل والفجر باردين بشكل أزعج ناس البراريك.

لم يفتح الخالدي حانوته[1]. ظلت برّاكة (حميد) القهواجي باردة مهجورة. حتى الفقيه الكسول الذي يقوم لأول مرة ويؤذن في الناس، لم يسمعه أحد. السماء تلبدت بالغيوم السوداء التي بدأت تتشكل في صور أفاعي وحيّات ضخمة. زخات الأمطار السميكة التي بدأت تتساقط فجأة، يسمع صوتها من بعيد وهي تتكسّر على أسطح البراريك التي خفّت مقاومتها. في زوايا ما، من الحي، إختبأ الناس في جحورهم وتكهّنوا:

- «الدنيا قاسية وهذه علائم الثلج. فالوادي سيفيض حتماً».

هوذا الشتاء يصل أقسى درجات البرودة. إحفظها يا الله.

قالتها عجائز البلدة اللواتي يخشين أخبار البرد والمسافات والثلوج التي لا ترحم. فالوادي الذي يشق البلدة إلى نصفين، كل سنة. يهدد أهلها ولا يمتلكون إزاءه غير رفع الأيادي الى السماء والطلب من الله أن يفرّج الكربة، مع أن قسم الوادي الذي يمرّ بالبلدة مبنيٌّ بشكل جيد، فجنباته محاطة بالأحجار والإسمنت والباطون، وبه مجارٍ صغيرة تمتد كالشرايين تحت البلدة. بني منذ وقت فرنسا، لكن مع كثرة الإهمال يحدث أن تنسدّ هذه الثقوب، فترتفع المياه وتتسبب في الفيضانات التي تأكل كلّ خيرات البلدة المرعوبة. الناس يخافون بطش الوادي. فهو حين يفيض يمسح كل شيء في طريقه. حتى حركات الحمام غابت، ولم تعد الطيور الملونة تحط على حافة النهر. إرتعدت الزرائب المكشوفة على الهواء وتمايلت أكوام السدرة الملتصقة ببعضها البعض في شكل دائري. تداخلت الأغنام فيما بينها، في محاولة يائسة للاحتماء من هذا البرد الذي كان يدخل العظام كالإبر. عادت الذئاب الى عوائها المنزعج، وسكنت الكلاب، وتنابحت، وتآكلت فيما بينها. بدأت أصوات الديكة في البلدة تخفّ ولم تعد تسمع الملائكة التي تناديها كل فجر من أبراج السماء العالية

---

(١) الدكان.

إسودّت الفضاءات الجميلة وضاقت الدنيا على ذويها. يخافون تساقط الثلوج مع أنّهم يموتون يومياً ببرودة قاتلة، أكثر من برودة هذا الثلج. بقايا أشواك السدرة اليابسة تملأ الطرقات المهجورة والأزقة الضيقة. تصاعدت رائحة البرّيو[٢] مختلطة بالتربة والأمطار ورائحة الزنك الصدىء الذي يغطي كافة البراريك. بعض الكلاب ترفع إحدى قوائمها الأخيرة وتبوّل في سخرية مطلقة على الأرياح، الأنواء، وعلى الوحل الذي بدأ يحوّل الدروب الضيقة الى عجينة رفست ألف مرة، قبل أن تخمر.

دروب متعبة يا الله.

إختلطت أصوات مهاريس القرية بآلات النسيج الصغيرة، والرحي الشعبية، التي تطحن فيها عادة، نسوة البراريك، الحبوب الجافة لأيام الأعياد الموسمة. نشيج الأطفال (البردانين) يسمع من بعيد مصحوباً برغبات آبائهم المقتولة، ولذة ممارسة الجنس مع الأبقار والأغنام وكلبات الأحياء في الأيام الفائتة.

لحظة تهب الأرياح الباردة مصحوبة بزخات أمطار ثقيلة، تصفق مرتعدة، أسطح براكات الزنك. يحلق بعضها في السماء عالياً، ثم يتساقط بتثاقل على الوحل، فيتجارى الأطفال والأم والأب وأحياناً الجدّة التي تآكلت، ثم يعيدون قطعة الزنك الى موضعها الأول، ويضعون عليها كتلاً ضخمة من الصخور. ناس البراريك يخافون من النهايات المفاجئة. فمع قدوم كل شتاء، تقطع هذه الزنكات المنتشرة على الأسطح، رؤوس خلق الله، أو تشرد عائلات بكاملها. الشتاء الماضي حصدت رأسين. بنت كانت تحمل أختها على ظهرها. حين تجارى الناس على إثر صرخة جافة، وجدوا رأسين مقطوعين بضفائر جميلة، غارقين في الوحل والدم ومياه الأمطار.

---

(٢) نفايات الأغنام.

حتى الحمير التي تعودّت النهيق بدون مناسبة، وألف الناس إزعاجها، خفّت أصواتها. وعلى ذكر الحمير، ففي الفترة الأخيرة تكاثرت سرقتهم في البلدة. آخر المسروقين: كان السي شقرون عامل لادِريس (مصلحة الغابات). قلب الدنيا وأقعدها. كان حماره وسيلته الوحيدة لجرّ الماء من الساقية، وغزو الأسواق الشعبية. يقولون في مسيردا، أنّ من لا حمار له، موته أحسن من حياته. وذات فجر، حين أتعبه القنوط، عرفه من نهيقه. ومن بحّة صوته. وجده بكامل عافيته. هذا هو منطق البلدة. يسرقون الحمار، يحمّلونه بالبضائع، ويقطعون به الحدود التي لا تنتهي. فإذا مرّوا بسلام، أطلقوا سراحه وأعادوه الى صاحبه بسرية تامة، وإذا فوجئوا بجمارك الحدود، هربوا، وحُجزت البضاعة، وبيع الحمار في أحد الأسواق الشعبية. عادت الخرفان الصغيرة الى الثغاء والإرتجاف.

بدأت مسيردا بكامل أطرافها، تلتفّ حول نفسها بخوف. كانت البرودة قد تضاعفت أكثر مما كانت عليه في الفجر الأوّل، ومال لون السماء نحو بياض مشبوه.

في البداية ظنوا أنها مجردَ إنذارات بمطر غزير، لكن سرعان ما تيقنوا من أن البلدة مقدمة على أيام عصيبة حين بدأت كتل الثلج الخفيفة تتساقط لتملأ الطرقات والأسطح، والأزقة الباردة التي لا تصلها الشمس.

أطلت شمس خجولة من وراء كثافة الغيم. خرج الأطفال يتراشقون ويتصايحون.

مسح الخالدي وجهه عند باب دارهم. تثاءب طويلاً طويلاً قبل أن يتوجهّ الى الحانوت. يسمون دكانته في البلدة، الصيدلية، ويسمونه هو « الفرماسيان » بضاعته التي يبيعها قديمة، وغالية.

إختبأت الشمس من جديد. كان الثلج قد بدأ يتساقط بقوة.

مرّ بجانب دار لونجا وهو يرفع رجليه بتثاقل. كانت عند الباب. عيونها منتفخة، مثبتة على أفق غامض. تمنّى لو سألها عن سرّ غياب صالح

ابن عامر الزوفري، لكنه ألغى الفكرة، وواصل سيره نحو دكانه.

- «أوف يا سيدي. سنعلم بكل شيء. كل شيء يختبأ في هذه البلدة إلا الأخبار».

حين فتح باب الحانوت، فوجيء بالفوضى. مسح عينيه جيداً. والله هذه سرقة. أولاد الكلاب. لم يثره الموقف كثيراً، فقد تعوّد السطو، في مثل هذه الأيام الباردة من كل سنة. وقبل أن يقوم بترتيب الأمور، أوقد الجمر. سخّن يديه اللتين تثلّجتا ثم أخذ يبعد المواد الإستهلاكية عن الرفوف خوفاً من القطرة التي فاجأته في الركن الأيمن من السطح. دفعها الى إحدى الزوايا، كوّمها فوق بعضها بعضاً ثم وضع عليها جلداً قديماً وعاد الى الجلوس على أحد الكراسي الهدية ليسخن رجليه اللتين تورّمتا. نزع حذاءه الذي فاضت منه رائحة كريهة جداً. وأخذ يتأمل الفوضى التي خلّفها الذين سرقوا الحانوت.

- «يا لطيف. السراق أطفال حتماً. لم يجدوا الدراهم. خلطوا الحنّاء بالكاز، بالمازوت، بالروز. يا لطيف».

بدأ روّاد حانوت الخالدي، يتكورون، ويلتفون حول الجمر الذي كانت جماره تتفرقع. كبرت الدائرة. أخرج ياسين الكارطة[1]. خلط الأوراق. وضعها على الطاولة ثم فرك يديه:

- «هه. كلب الدّشرة منذ فترة لم يظهر».

- «والله كان رجلاً طيباً وفحلاً. عاش ما كسب. راح ما خلّى».

قالها الخالدي وعيناه مثبتتان على السقف حيث بدأت رقع القطرة تتسع. بدا من انتفاخه، كأنه إمرأة متقلة بصبيين، على مشارف الولادة.

- «والله يا ياسين صالح كان رجلاً. وحين غاب، سُرقنا. بهدلنا والحانوت راح يسقط».

---

(١) لعبة الشدة.

– «أنت هذه هي حالتك إذا لم تتعاطف مع النساء تعاطفت مع التافهين».

– «إحترم وجهك يا ياسين وإلا راك تندم».

– «وحق محمد، رقبة تيس أنت يا الخالدي. كل يوم يحاسبك وأنت كالعجوز. تدافع عنه وكأنك كلبه. يعني. إسمح لي على الكلمة».

– «والله ما فيه كلب غيرك يا ياسين. واللي سرقوا الحانوت سيظهرون».

قالها مركزاً على الجملة الأخيرة.

– «صحيح أني ألعب في الأسعار لأن الدنيا لعابة. لكنك تافه وتقض في زنطيط[1] السابيي».

شعر ياسين بالإنهيار. لقد ضاعت رهبته منذ أن كسر شوكته بابا صالح. إصفرّ وجهه. تفاجأ كيف أن الخالدي، ضعيف السحنة، المنالم، (الخوّاف) حتى من النملة يتجرأ على قول مثل هذا الكلام. فكّر في كسر دماغه، لكنه سرعان ما كشف خلفية الموقف. رأى من تحت أهداب عينيه الخجولتين أبناء عم الخالدي الثلاثة. عيونهم تتراقص، منتظرة اللحظة التي يحرّك فيها ياسين يديه. فوراء الخالدي قبيلة بكاملها.

برقت عيناه بشرّ مكبوت. أحنى رأسه ثم واصل لعب الكارطة.

دلفت لونجا الحانوت، وهي ملفوفة في فوطة قبائلية حمراء. وجهها محمرّ. رآها ياسين. في لحظة ما إشتهاها لكنه كان فاشلاً في الوصول لها شفتاها الجميلتان قمعتا رغبته.

– «كيلو سكر يا الخالدي الله يرضى عليك».

– شوفي يا لونجا ماذا فعل أولاد الكلبة. خلطوا الحناء بالكاز. الله يلعن اللي جابهم».

---

(١) ديل (تطلق أكثر على الحيوانات)

- « أنت هكذا دائماً. كل شتاء يعرّيوك (يُعرّونك) ».

- « خلّيها على الله. أنت عزيزة يا لونجا خصوصاً في غياب بابا صالح ».

أرادن أن تلعنه هو كذلك، ولكنها في أعماقها شعرت بأنه قالها بمودة ولم يبد في كلامه أي علامات للإستفزاز. إنحنى. خبأ أنفه في كارتونات قديمة وأخرج منها السكر.

- « كانوا يريدون سرقة الدراهم وإلا لما تركوا حبة سكر أو قهوة ».

- « الله يجازيهم يا الخالدي. كبّر قلبك ».

وضعت على الطاولة العتيقة ديناراً ونصف دينار، كانت تخبئها في قبضة يدها اليسرى الدافئة.

- « إذا كنت تحتاجين الدراهم ما عليهش. الأحباب لبعضهم يا لونجا ».

- « الله يكثّر خيرك يا الخالدي. والله لا يحرمنا منّك ».

- « إيه نسيت. صحيح الحاجة طيطما وجدوها مذبوحة في سيدي بلعباس ».

- « والله يا خويا هذا ما يحكيه القادمون من سيدي بلعباس ».

- « قد تأتيكم شرطة سيدي بلعباس ».

- « أوف. صالح قطع معها من زمان. وكل الناس يعرفون ذلك. صالح أقسم بأن لا يرجع الى فلاج اللفت. الأولى أن يذهبوا الى العسكري المتقاعد الذي وعدها بالزواج ».

- « ربّما ذهب عمي صالح الى سيدي بلعباس ».

- « صالح رجل يا الخالدي. والرجل لا يكذب. قال أنه قطع معها ».

- « لا خبر عنه ».

- « الله يلعن اللي كان السبب. علمي علمك يا خويا. فمنذ حكاية

البلدية التي رواها لي الكتاني الله يكثر خيره، لم أسمع عنه شيئاً ».

- « قلب عمي صالح يا لونجا ما يزال حاراً. المبلود ولد السي لخضر بولحيا. جرح قلبه ».

- « إيه الخيانات. والتمنطير. والوظائف الكبيرة ».

- « الله يلعن أولاد الكلبة. هذا زمن. الحمار فيه غزال ».

- « ما تخافش يا الخالدي. ولد اللستة[1] ما ينقهرش ».

- « إيه. عش. تشوف ».

شعرت بدوار في رأسها. حاولت أن تداري وتقنع نفسها بأن المسألة عادية. لكنها لم تستطع. إتكأت على الطاولة التي كان يقف الخالدي من ورائها.

- « مالك يا لونجا!! ».

- « رأسي دار. عندما يحكون عن بولحيا رأسي يدور وأشعر برغبة التقيؤ ».

- « إيه. الله يشافي ».

تدحرجت في مكانها. تذكرت وجه صالح الذي لا ينفذ دفؤه. فكرت في البكاء، لكنّ المسألة بدت لها عبثية.

- « بولحيا لم يكن الخائن الوحيد. هناك آخرون، والبلدية تعرفهم ».

قالها ياسين مفرجاً عن أسنان صفرتها الخمرة الرديئة والكيف. أحنى رأسه مرة أخرى ثم تمتم بكلمات تسربت مرتبكة من تحت أنفه.

- « اللي ينطح الحيط، تنكسر قرونه ».

تكسّرت أشياء جميلة في داخل لونجا، وإنهارت أسوار عالية وتمنت لو كان صالح ههنا. تنبه الخالدي الى الإستفزازات الحماسية.

---

(١) اللسوء.

– « روح للرجال يا السي ياسين ».

– « الكلب كلب يا الخالدي. تبقى على خير. ويرحم والديك على السكر ».

قالتها بدون حتى أن تلتفت الى وجه ياسين الذي كان منهمكاً بدوره في خلط الأوراق ثم قفلت راجعة وهي خائفة من أن تفاجئها الدوخة في الطريق.

– « تفو. قحبة ».

تفوّه بها ياسين بكل وقاحة.

– « قواد السبايبي ».

تمتم الخالدي. شعر ياسين بثقل الكلمة. حاول أن يقوم، لكن أحد لاعبي الكارطة، ربت على كتفيه ثم أجلسه بهدوء:

– « كبّر عقلك يا ياسين ».

ضغط الخالدي على كتفي ياسين بدوره. وحاول تهدئته بشكل إستفزازي.

– « شطارة الرجال تبانْ مع الرجال. لوتجا إمرأة. ولو كان صالح هنا لما تجرأت على قول مثل هذا الكلام ».

إلتهب الموقف بمذلة. تآكلت الأشياء السوداء بداخله. تمنّى لو كان الخالدي وحده، لأكله نيئاً، لكن هذين الغورلّين، أبناء عمه، مخيفان. قام من مكانه. ضرب الكارطة على الطاولة. بصق على الأرض بحقد. حملق في وجه الخالدي بتمعن، وبعيون صعرت حتى لم تعد ترى شيئاً. تحسس سكينه. فكر في أن يدحرج الصندوق الخشبي الذي كان يجلس عليه بقوة، لكنه حسب حسابات عدة، فألغى الفكرة. ضرب يداً بيد. رفع ياقة معطفه حتى غطت رقبته ثم تدحرج نحو البراريك. من حين لآخر تتناثر الثلوج تحت ركله المتواصل، العنيف.

حين التفتت لوغا. التفت عيناها بعينيه. كانت بعيدة، بصقت على الأرض، ثم واصلت سيرها بسرعة. بينما كان هو يحاول أن يبحث عن أكثر طرقات البراريك إختصاراً.

لم يتوقف تساقط الثلوج منذ الفجر. حتى الشمس كانت تطل وتختبيء بخجل. وقبل أن تصل لوغا الى دارها، تعثرت في الطريق ثم غابت كما تغيب هذه الأشياء الجميلة الواحدة تلو الأخرى.

حين فتحت عينيها، وجدت نفسها في حجر ماما عيشة، كانت على ظهرها، ترتعد بشدة، رغم الأغطية الصوفية. مشطت لها رأسها. زينتها بالعطور حتى تخف عنها حمى البرد ثم حكت لها كيف سقطت على الثلج، وكيف تجارى نحوها الناس وكيف أخذوها الى بيتها. وحين فحصتها، عرفت أن الدوخة هذه، هي إحدى علامات الحمل.

وفي المساء، كان يوم آخر قد مر على دورته العادية. برداً. برداً كلاًء. صالح لم يعد. لا أحد يعرف مكانه. الناس يتأبون (أي زايح ني جي) لوغا ما تزال تسقط بعرقها وسرجها. وتخشى سعرة شعرة قبل أن تعود لها العولة ليلا وبعده. سقطت الحركة فشلا بشكل تلقائي. لا شيء يزعج. إلا الثلوج التي لم يتوقف تساقطها. والوادي الذي بدأ يهدد البلدة بالفيضان الرهيب. فالحرب حين تندلع. بدءاً من مقهى رومل الشهواجي. ومع ذلك. فهو لا يخاف من شيء، أو عند أي شيء. فالكراسي التي لديه، قديمة، حتى الوديان تعرفها. وسيجدها إذا أغرقت وقادتها المدة.

الكل دبت فيه الحركة، إلا مقهى رومل. فقد ظل طوال اليوم مغلقا. في البداية ظن الناس أن الشهواجي سافر مع صالح. لكنهم سرعان ما أدركوا الحقيقة حين عرفوا أن رومل، طريح الفراش. مريضاً. لم يعد جسده المنهك. المنهك. قادرا على مقاومة الثلج.

إزدادت رقعة الخطر، في حدود الخلدي. ثم اضطره الى سحب كل

المواد الإستهلاكية الى بيته وغلق الدكان. حتى بقرة ماما عيشة عجزت عن مقاومة هذه البرودة السامة. كانت تفتح فمها. فتتصاعد البخار عاليا، ثم تغلقه. ترتعد من قساوة الثلج. الزريبة غير كافية لوقايتها من أمراض الشتاء. طلّت ماما عيشة برأسها من الباب، ثم عادت لتختبىء في براكتها. في خفاء ما، تمتمت:

- «السّتر من عندك يا مولاي».

بالقرب من الوادي، ومن مقهى رومل. كل الأطفال يتراكضون، ويتراشقون بالثلوج. تأتي الحمامات. تقف على حافة الوادي. تنتظر رومل، وحين تفاجئها صراخات الأطفال. تعود. لتطير في الفضاءات الواسعة. بحثا عن لحظة دفء لا تقاوم.

وسط هذه الحركة المتناغمة كانت لونجا تركع الركعة الألف وتدعو الله أن يعيد لها صالح، سالما. وتتحسس بطنها الذي بدا لها مكورا على غير عادته.

• • •

- ٢ -

وإذ يأتيهم يوم البين والفصل، تمر الأعوام مسرعة، وهي أيام. تغوص الأقمار في وحل الوديان. تلتهم نور الدنيا حيات عمياء سكنت المغاور السبعة منذ قرون. تنبض الوديان وينقلب النسل على ذويه. العلامات بدأت تتضح يا بابا صالح، ويا بلدة القفر والشقاء. هي ذي الشمس تحولت الى قرص أسود. إلتهمته الغيوم يا مسرداا التي تئن كطفل محروم من الرغيف والأمومة.

توقف تساقط الثلج، لكن البرودة اللاسعة ما زالت تغوص في عظام الفقراء كالدبابيس. الذعر دخل النفوس، والوادي المشؤوم، بين اللحظة والأخرى يهدد بالفيضان ويمحو القرية من الوجود. أمواهه بدأت تعلو.

لون البراريك الزنكي غاب تحت كتل الثلج البيضاء الناصعة. واحتل

قلوب الناس طقيع السنوات الطويلة.

قيل في قيل عن غياب صالح بن عامر الزوفري. أن العلامة ستظهر بعد تساقط الثلج. وتساقط الثلج ولم يظهر!!!!؟؟؟. وقيل أن غيابه من علامات الغيب والسوء. وهو الآن. ربما في أحد العمران يتعبد ويخشع لإله لا يستجيب بسرعة لنوم الفقراء.

في ذات اليوم الذي تناثلت فيه الأسئلة وتناقضت فيه الأجوبة عن صالح. تساءل حشد من خلائق الله عن سر غياب هذا الوجه الذي قاوم كل المصاعب وغاب فجأة. إنها اللحظة النادرة. الخيمة والغامضة التي تتعاظم فيها قيمة الوجوه الأليفة التي إنطفأت بسرعة كالأنجم.

هكذا نحن الفقراء دائما. لا نقدر قيمة بعضنا البعض إلا حين يقطع خده. واحد منا. ونجبر على إستحضار وجهه وندرك متأخرين كم كنا أغبياء. وكم نحن في حاجة الى تلك الوجوه التي تغيب بسرعة.

ويقول الذين عاشروه أنه كان ضخما ورحلا منها. نموذج المعدن العتيق الذي لا يمكن أن يسحق. عمي صالح. الزرواطة والمكحلة. حين يتعلق الأمر بالحدة أو بالموت. يضعها بين يديه. يركب لزرق. ثم مثل محمد يتخير الشاعر الطيب الذي قتله أنفته. يصعد الدم الى عينيه. وينسى في لحظة بصعب السعور بن بوعي. العالم. كل العالم الذي يحيط به. وتصبح الدنيا في عينيه قاب قوسين أو أدنى من الدمار. يقول دائما. ثقتي في المكحلة لا توازيها ثقة. أحسن من عشرة أصدقاء. يخونون ولا تخون. سر يا لزرق. سر. أنا وأنت ومكحلتي. عايش جوال. ما تتهرني لا الدنيا ولا تجور الشوق.

عشق الوجوه الأليفة والمتمردة. طلب ولدا. لكن رب السماء أحجم. وأعطاه كل النتيجة التي كان يحب لونها وبكره بردها وضعفها. وفاتح السماء مرة أخرى. لكنها هذه المرة لم تستجب. وحين اعتلى سرج عوده. تحول العود بين يديه الى براق يحمل. بوبركاب. وسافر نحو عوالم صعبة. لا يدركها إلا الذي خلقها. ويقال. والله هو خير العارفين. أنه وجد

الصحبة والأسـنـاء والـشهداء. أعجبه مجلسهم. أكل معهم حتى الشبع ثم نام قرير العين. وحين استيقظ، كان متعباً ومرهقاً. شرب معهم شيئاً وإعتلى لزرق، ثم أغمض عينيه وترك «بوبركات» يطير نحو المجهول.

قال بن عبد الله السكايري الذي كان يقضم بقية ليلته الأخيرة في أحد الوديان. لحظات. قبل أن يغرس سكين ما على ظهره وينام الى الأبد. أن صالح من كثرة الهم والغم والمفاجأة التي لدغته في دار البلدية، شرب حتى كاد يموت. تسارعت دقات قلبه وتحرك الدم في شرايينه كالرغبة. تذكرَ الهمّ. حكَّ ذقنه. فنسي. وظلّ يحك ويبيض حتى تحوّل الى ثلوج حملتها الريح وسافرت بها الى القمم الباردة. مسكين صويلح، حين يستيقظ، سيجد نفسه على إرتفاع مخيف. وقبل أن يدرك الموقف بكل تفاصيله، سيسقط وينكسر أنفه. لن يندم على ألمه. إنها اللحظة الخارقة التي يعرف المرء مسبقاً متاعبها، ومع ذلك فهو مسرور لهذه الآلام، ومصرّ على الذهاب وراءها حتى الموت، لأنه يشعر أكثر من غيره، بأنها يجب أن تعاش بالشكل الأسمى.

«آه يا صالح خويا. برد الموت. والسقوط من الأماكن الشاهقة، وممارسة طقوس الحياة، بالرغم من الرضوض وحدّة الألم التي لا ينتهي نبضها».

قالت ماما حنّا عيشة، وهي فارجة رجليها، على يمينها مجمر، وعلى يسارها قصعة ماء ساخن، تحاول جاهدة، أن تخرج رأس طفل إلتصق برحم أمه. تتمتم خائفة من شيء غريب وحاد يسكنها في الأعماق. بإسم الله. أخرج يا وليدي. عمك صالح كان يطلب الأولاد، لكن الدنيا بنت الكلب. تعطي اللحم للّي ما عندوش السنّين. قيل يا وليدي، أنه خرج منتفخ القلب، يستعيد طفولته التي أكلتها الحروب. عند أخته خضراء، آخر سلالة بني هلال النسوية. يقاسمها الوحدة القاسية والفراغ، والغربة التي تأكلها في الأراضي البعيدة مع ابن أرغمتها الوحدة على تبنيه. من كثرة حبه للأطفال والسيردية، حين انفتح باب السماء طلت نجمة هاربة

عجبه لونها، ضاجعها حتى أغمي عليه، وكان القمر مكتملاً وواضحاً. طلب من نوره المتوهّج أن يحوّله الى طفل يأكل إبهامه. سمع صوتها يأتيه دافئاً وغامضاً. يا صالح بن عامر الزوفري. يا ابن الناس. الناس جميعاً. عليك أن تشرب لبن العصافير، وتقطع مسالك الربع الخالي المقفرة. وكان للصوت الهاتف ما أراد. وحين ملأت رغوة الحليب فمه. شعر بنفسه يحترق، وبخلاياه تصغر، وتصغر، حتى تحول الى طفل صغير، يرغي في البرّية الموحشة. يقول الطالع الذي تأكد من تفاصيل الحكاية. سيشرب من حليب الغزلان والذئاب وسيعود حتماً الى هذه البلدة مشهراً سيفه في وجه الذين حاولوا مسخه الى قرد أليف. له وجه غزالة حمراء اليمن. وحين تفور الأنواء في رأسه ستخرج من أصابعه، مخالب، ورثها عن الذئاب الهرمة التي أرضعته. سيحارب حتى الإشتعال، الذين ورثوا كنوز الله على الأرض بدون توكيل.

رغوة الحليب الدافىء يا وليدي، تملأ الآن فمه. إنه يرغي. الرأس تخرج. الرحم تضيق من جديد. اللطف من عندك يا مولانا. إنها صرخة الولادة القاسية. إفرحي يا قبيلة بني هلال، سيطلع منك صبي قادر على خوض الحرب الموعودة ضدّ بني كلبون. جندي النار. آخو لونجا الذي لا يكلّ ولا تتعبه الأقدار.

قال شهود عيان أنّهم رأوه راجعاً بسرعة من دار البلدية، وكأن وراءه قوافل الشياطين والجان. دخل داره. مكث برهة، ثم خرج ممتطياً صهوة لزرق. قصد المقبرة. كان عرق الخوف والرعب، يمشي على وجهه كالدود. نتف بعض الحشائش الضارة التي كانت تغطي قبور الشهداء. قبّل شاهدة العربي، ثم خرج، وحين همّ بغلق باب المقبرة نطق كلمات غامضة لم يلتقطوها كاملة. يا ناس المدينة. بيننا وبينكم عهد الأنبياء والرسل الشهداء (...). خدعناكم. خدعناكم. خدعناكم. يا ناس المدينة الطيبة (...). أصبحنا متخلفين(...). عظامكم نتقاسمها، ثم ننزل الى الأسواق

نبيعها مع الوسكي المستورد، والبرادات، والأقمشة، والأجبان، والأدوات المنزلية، وحليب الأطفال المجفّف. خدعناكم(...). وضع إصبعه في فمه وتقيأ على القرية والبلدة قاطبة. أغلق باب (المدينة) ثم ركب لزرق وطار في الفضاءات ذات الإتساع الذي بدأ يضيق يوماً، عن يوم.

قال رجل ملتحٍ قضى العمر وراء الجبال. يمنعه الحرّ صيفاً، والثلج شتاء من النزول الى البراريك إلا عند الحاجة الملحة. يرتعد يومياً من حكاية بن كلبون التي ملأت دماغه المرهق. بنو كلبون يحفرون آخر الحفر. فؤوسهم هذه المرة لم تكسر. سيتوصّلون حتماً الى هدم الجبل الذي يفصل بيننا وبينهم. واحد فقط من هذه البلدة الطويلة العريضة، قادر على حرق أحلامهم والوقوف في حلوقهم كالغصّة. وصالح بن عامر الزوفري راح. ركب جواداً أدهم تحوّل في خفاء ما، الى بُراق لا تتعبه المسافات التي لا تحدّ. وكل الناس يحكُون أن لزرق مسكون. قالوها، وحق محمد. حتى الديوانه لم يستطيعوا القبض عليه. فلماذا لا يكون صالح، هو صاحب البُراق الذي يطوي الدنيا بكاملها قبل فوات الأوان، وقبل أن نفاجأ بأنوف بني كلبون في مخابئنا. وقبل أن يجتاحوا البلدة. فالزرواطة التي يمتلكها وحدها القادرة على هدم قارّة بني كلبون. أضاف بعض التجار الى قول الرجل الملتحي، أنهم رأوْه على مشارف الحدود يدفن نفسه حياً في حفرة متسخة، ويتآكل كالدودة.

قال رومل القهواجي، السي حميدا حروب العلمين، الذي أقعده الرشح ومرض البرد. علّته حرارة الحمى التي اشتدت عليه حتى بدا لنفسه كأنه مرمي في صحراء مقفرة: والله يا زين الوجوه، يا صالح يا وليد (الأحراش)[1] الجائعة. لن يفتح المقهى في غيابك. للملح والدم يا وليد البلاد قيمة النار والأنجم. هي ذي أصوات المدافع يا صديقي تتحول الى شيء مخيف يطنّ في الآذان. إركب جوادك. سرّج وأهرب ولا تلتفت

---

(١) أحراج.

وراءك. فمدافعهم لا تخطىء. تقف يا زين الوجوه. لا أهرب. هناك فرق بين الجرأة والمغامرة. هاه. ها قد بدأت تتحلّل الى حبات رمل جافة. ماء تصير ثم ضباباً كثيفاً ترحل مع هذا الهدير. قُل لرومل كلب الألمان، بأني سأدحره. وقل لجيوش (الحاج) أن تستسلم قبل فوات الأوان. سأعود منتصراً الى صطيف وإلى هذه البلدة وأفتح مقهى. قل له أني سأدفنه في رمال العلمين بكل آلياته. يقولون يا صديقي أن عيونك صعبة، مصنوعة من نار. كل من لسعته، أحرقته. كنت حبيب طيطما. عشقتها، فوجدت ذات صباح في باحة مسكنها بالطابق الأول مذبوحة من الأذن حتى الأذن، في كفيها بقايا من شعر العسكري المتقاعد. هكذا يقولون. عيناك يا صويلح جميلتان، والجمال مخيف.

وفي الأسواق الشعبية، وللأسف، تحوّل صالح بن عامر الزوفري، في أفواه وفي أدمغة المتسوّقين الى أبي زيد الهلالي. خارق القدرات. يركب بغلة حمراء ينكحها عند الحاجة الماسّة. ويسافر في ظلمات الليل طالباً غزو بلاد المغرب، ويعسكر في المراعي الخضراء وفي الغابات مع عصابته. ومع الصباح، يواصل رحلته، على يمينه سيف يمني أصيل وحاد وعلى شماله ذاكرة الحجاز وبلاد نجد التي طارده جفافها، وقلب الجازية الذي جفّ كليل بدون نجوم. باعت ملك بني سرحان، وعادت الى قبور نجد، لتحترق على نارها بهدوء.

وفي أحد الأزقة المظلمة، حيث تراكمت الثلوج، رأى الناس، وهذا ما يحكيه الجميع تقريباً آخر أبناء صالح بن عامر الزوفري الذي أفرغت أحشاءه قطط المستشفيات، يلعب مع الأطفال، ويتراشق بكرات الثلج. كان صالحاً وعامرياً صغيراً، والمصيبة أن بينه وبين المسيردية شبه الدمّ والنجوم. يركب قصبة خضراء، تتحوّل في خفاء سحري، الى فرس جموح، لا تلجمه ظلمات الشتاء، كلما طلب منها ذلك، لتطير به مع الأرياح التي زادت سرعتها في هذا المساء الذي لا يشبه كل الأمساء.

قيل.. وقيل... لكن ألم ومتاعب صالح بن عامر الزوفري،

ظلّت مدفونة في قلبه الذي إنتفخ حق كاد ينفجر.

- ٣ -

« يا السامعين، ما تسمعون إلاّ سمع الخير.
ساعة الخير جات والظلام اللي كان راح.
نهار الحدّ راها تبدا الخدمة في البراج
اللي ما جردتش روحُه، بجرّد[1]
يا السامعين... ».

يوم الجمعة مرّ بارداً. حرارة ما سمعَتْهُ من البرّاج ظلّت تملأ كل خوائها. ومع ذلك، كانت تشعر وكأن شيئاً جميلاً تكسر في أعماقها أو ما يزال مكسراً، أو على الأقل يسير على غير عادته. تألمت في أعماقها. خدشت جرحاً ما تزال تشعر بحرقته. والله يا بابا صالح سبعين سدّ، ما تجي في ظفر واحد منك. كلش كاين، وحين تبحث لا تجد شيئاً. الصماطة ورايحَه للهلاك. ماذا ربح صالح منهم. حق الآن ما زال هو هو. فقير معدم. زمن الاستعمار كان يلبس حذاءً خشناً ولباساً عتيقاً واليوم اللباس نفسه يبس على جلده. كلّما رآه تذكر رائحة العظام الآدمية المحروقة، وعظام الشهداء. ويحدث أن يبكي. تصوروا يا عباد الله صالح بن عامر الزوفري، يذرف دموعاً كالثكلى؟؟؟. بلادنا واسعة يا صالح. فإما أن الغلط منّا. وأننا لم نستطع فهم تفاصيلها الدقيقة. أو أنها هي، وهذا إحتمال كبير، لم تفهمنا كما يجب. حق اللحظة هذه، بتاريخ (...) نحاكم وفق القوانين التي خلفها عسكر البارح. الفرنسيين. صالح منهم في نزاهته وتاريخه. شيء مقرف يا عباد الله. البارح سقط العربي. كان طفلاً عاشقاً لكل شيء جميل، وطيباً. لم تحرّك البلدية ساكناً وكأنه لا يهمها، مع أنه بأمرها قتل. قبلها، جرحوا صالح. أخرجوا له قانوناً ما (؟؟؟) وإتهموه بالخيانة الوطنية. ليس غريباً. إنهم الآن يا صالح. وعليك أن تصدقني.

(١) يسحل إسمه

يبيعون قبور الشهداء في دار البلدية ويتوزّعونها أملاكاً وأرباحاً. إنه الشتاء يا وليد (أحراش) مسيردا. كيف لا يحزن؟؟؟!!! كيف لا يندم؟؟؟!!! كيف لا تذرف عيناه دموع الغبن؟؟؟!!! كيف لا يهرب من هذا الشتاء الذي يحاصره من كل الزوايا. صعب. وحق محمد صعب هذا العيش يا صويلح. ماذا بقي لي أنا لونجا. القبايلية. غير الأساطير والحكايات التي لا تنتهي. لا يا لونجا. لا. بلاد القبائل ما تزال واسعة. والأحباب هنا كثيرون. ستجدين حتماً من يوصلك الى زرائب جرجرة حيث أمك، وأبوك وإخوتك. الى أين يا لونجا. عيونك حائرة، مثبتة على غربة سكنتك في العظم. لا ترحلي. ستقتلينه حتماً في الطريق. البطن منتفخ. الوجه مشقق، علاه نمش الحمل وعرق الحيض، الذي غاب. لستِ الجازية يا أبنة الناس التي أتعبك صالح بحكاياتها وبجرأتها على قطع الفيافي وحيدة. كنت تقرفين من سماع أسمها على لسان صالح بن عامر الزوفري لكن سرعان ما ألفتها حتى صارت قريبة منك مثل هذا الدم الصافي الذي ما زال يجري في عروقك. ستسبين يا الماريا، يا إبنة القاضي بدير. وتقادين من رقبتك مهزومة، ويضاجعك آخر تافه في هذه الدنيا بالرغم منك وقد يقتل هذه النطفة التي بدأت تدغدغ رحمك العطشان. بينك وبين الجازية يا القبايلية شبه الدم والنجوم المشتعلة. وسط هذه الأحراش عليك أن تبقي. سيعود صالح حتماً ذات فجر. مسيردا قاسية ولكن عليك أن تتعلمي الصبر. هنا يموت قاسي يا بنت النّاس. لا أحد يعلم أنك حملت من رجل بدوي كان يعشق عينيك وشعرك وكل ما يحكى عنك من الأشياء الجميلة. تبكي أمه ولا تبكي لونجا. قالها وأنت غائبة. فلماذا الرحيل. حتماً، سيكون في حاجة ماسة إليك، حين يعود. لا تتحوّلي الى نوفلة أخت دياب الزغبي من حيث لا تدرين. آه يا نوفلة أنت سبب هلاك الهلاليين. الحرب بدأت من عينيك. الفرشة على ريش النعام، ورش ماء الخزام ودموعك التي إمتدت كالأنهار. طلبت من أبي زيد الهلالي، أن يطلق سراح أخيك الذي فتح وجه الطفلة التي عشقت مرعي. إبنة الزناتي خليفة، فشطرها شطرين. كانت جميلة يا ماما حنّا. توسط أبو زيد الى الأمير حسن، وأطلق

قيوده. لكن أخاك يا نوفلة، في خفاء ما إنتزع رأس الحسن بن سرحان وعلّقها فزاعة لطيور الصحاري الكاسرة. من عينيك سالت دماء بني هلال كما كان يقول بابا صالح، ومن عينيك بدأت الحرب التي إلتهمت الصغير والكبير. الخيّر والشرّير. لا يا لونجا. فكري جيداً. كوني إمرأة. لا تبكِ قبائل بني زحلان ودريد. لا تدفعيهم الى كسر سيوفهم ودفن موتاهم. فكرامة الميت مأواه بعد القتل. آه يا نوفلة. بقيت للنار، وغادرك دياب الى بلاد الأحباش. عيونه الملتهبة من كثرة الحروب، ملكها جوهر صاحب التاج الجوهر وحشمه وأعوانه. يا لونجا، يا اللي شعرتك خبالة. أكلت سبعة والثامنة هجّالة. لا ترتكبي حماقة نوفلة أخت الزغبي. إذا أصررت على الرحيل، تأكدي أنه إذا لم يُسبِك ملوك العجم. الصنصيل، وفلاّق الجماجم والخرمند، وهرب بك جملك نحو خيامهم، ستقتلين يا الماريا، يا إبنة القاضي بدير، ويقتل معك هذا الرجل الطيب. آه يا ربي العالي، لو فقط كنا متزوجين، كانت المسألة قد هانت. النية الطيبة لا تكفي ودم الحسن في رقبتك. حتّاً لن يستقبلك أحد يا نوفلة بالعبيد والدفوف والغلمان والنساء والمزاهر، وفي أيدي الخدم القماقم المملوءة بالمسك وماء الزهر، مثلما أستقبلوا أخاك دياب الزغبي.

غيبته طالت يا الله وهذا البطن الملعون بدأ يتكوّر. الدوخة، عند الخالدي لم تكن عادية. المؤكد أنها حادثة التبن الملعون التي رضيت عنها وأجبر الآن على إعادة النظر في تفاصيلها. ماما عيشة لا تكذب. جميع نسوة البلدة فرّخن بين يديها. كانت ليلة جميلة لولا هذه اللعنة المضافة. الليلة الأخيرة. نوم التبن يا ماما حنّا. السنابل والحشائش العالية والحرارة التي تثير الرغبات الدفينة.

خارت بقرتها الحمراء. حملت شكارة التبن على ظهرها ثم خرجت في قلبها قرحة. شيء واحد كان يملأ خواءها.

حين أطلت برأسها على الزقاق الضيق شعرت برائحة الجرذان، والدقيق، والخميرة تغادر أنفها، وبالإبر المسمومة تنغرس في عظامها.

كانت هناك لذة كبيرة عندما أذكر كلمة تبن أمامه. كل شيء إنتهى في رمشة عين. حاجة التبن تحولت الى مسألة روتينية لا حياة فيها ولا قيمة لها أبداً. الوحدة صعبة يا بابا صالح، وأنت سيد العارفين.

تلمست خدها الذي تجمد من لفح الهواء البارد. شعرت ببقايا قبلة نبوية أتاها بها في ذلك المساء. كان رقيقاً يا الله. وبمذاق خاص، كمود النوار.

- «سيعود حتماً. طفله بدأ يتكوّر ويكبر».

سأكون الجازية التي يحلم بوجهها دائماً، وسأعيد نبتة فقراء بني هلال الى الحياة. لكن يا الله، ماذا، إذا لم يعد. على كل، أنا حضّرت كل أغراضي. وإذا كبرت المسألة ولم يظهر. سأحمل رأسي وطفلي وحاجياتي وأرحل ذات ليلة. لا من شاف، ومن درى. سأجد أهلي حتماً. فجبال جرجرة واسعة وعائلة «سكورة» طويلة عريضة. سأعثر على الناس الطيبين الذي سيدلّوني على الأحباب الغائبين، وسط الأحراش والأتربة الحمراء التي لا تنجب إلا النار، والجوع والسلّ. سأجدهم، أو سأضطر الى الذهاب الى مغارة مرمية على أطراف البلدة وأعيش بقية أيامي مع نطفة صالح التي لا تموت. آه يا يمّا أنا الوحدانية بلا حبيب ولا قريب. أو ربّما سأكذب. سأقول لأهلي على الأقل أنه ابن الإمام الذي قتله تورعه، وعبادته لله. في الطريق إنزلقت.

داهمها شعور غرائزي. تلمست بطنها، خوفاً من أن تكون النطفة قد تعرضت لما يقتلها في الرحم. خافت. إنتابتها رجفة الإحساس بفقد الأمومة والأنوثة في الآن نفسه. كادت تسقط من عينيها دمعة متعبة.

في الطريق أجهدت نفسها لإلغاء الفكرة التي بدأت تعذبها. لا. السقطة كانت عادية. والنطفة ملفوفة في الأعماق يا ماما حنّا.

- «الحمدلله. لكن ماذا لو سقطت ومات الطفل، وفاجأني صالح برجوعه. حتماً، سأكون الميردية التي لم يتحمل رحمها نطفته. لا. وحق محمد

لا. ستكبر هذه النطفة التي إنزلقت مصحوبة بألم إكتشاف روعة اللذة الإنسانية، ورائحة التبن الغامل، والحشائش المبتلة. ستكبر، وتصبح شيئاً جميلاً يثير الدهشة. لن أكون الجازية التي احترقت بأعماقها كل النطف التي غزت رحمها سرّاً. لو فقط تعود يا سيد الرجال.

في لحظة ما، تستمتع بلذة بقطع الثلج وهي تتكسر تحت وطأة حذائها الخشن شعرت بقشعريرة تسري في كامل جسدها. مسدت على ركبتها التي برزت من تحت كومة العباءات التي تلبسها. تذكرت خشونته البدوية ويده الصلبة التي تغوص بين فخذيها بقوة. رجولته الفذّة التي لم تسقط تحت تأثير المتاعب اليومية. شعرت بفرحة الأطفال تجتاحها. إبتسمت.

– «رجعت أم لم ترجع، فلن أكون لغيرك يا صويلحي».

عيون الغولة يا صالح مخيفة. تحسب كل خطواتي وحركاتي. خذرتها يا يمّا تذوّب المعدن. ستعدّ شعراتي. تحسبها الواحدة تلو الأخرى. لكنها في النهاية ستطمئن، لأني ما زلت عذراء، أنتظر القلب النابض الذي سيعود حتماً. وسوالفي ما تزال في كامل روعتها. لن تسقط الشعرة التي تثير الغولة إلاّ بعودة صالح. حين تهيج سأغمد أشيائي الصدئة في عينيها، وأتزوج خويا صالح. لننتظر فقط، متى تستيقظ قبور الأموات التي في بطن الغولة لنشرع في الدخول في تفاصيل الحلم الأزرق. صالح: يا ستّوت، وعجوزة الموت، صالح سيعود حتماً: وفي يده كافة شروطك التي تقضي عليك. لن يتأخر يالآلة.

الغولة يا صالح هائجة. بدأت العدّ. إركب العود بوركات، قبل أن تمنعك الثلوج من تقبيلي، ويصعب بعدها إقتحام برودة البحار السبع. تفاحة بنت منصور يا صالح. أخشى أن تصاب بلحظة قنوط وتفقد أعصابها، فتلتهمني. آه يا صالح. تصور!!! في بعض الأحيان أتحول الى مجنونة. إبنك سيخرج وفي يده سيف من حطب الزيتون، على غير شكل السيوف التقليدية. وينزل على هذه الأرض، كالمهدي، يزرع الرعب في قلوبهم. قلوب الذين أبعدوا أباه عن الأرض التي شربت من دمه.

لونجا . يا لونجا .

شعرتك خبالة .

دلّي لي سالفك نطلع .

هذا شعري ، تعبث به أرياح الأمساء الباردة . فأين يدك الطيبة يا الوجه الغالي .

في الليل . وكانت قد عادت من رحبة التبن ، شعرت بالأنجم تغيب قبل الأوان . وبالبرد ينزل بكل إبره الحادة على الأزقة المظلمة التي لا تعرف الشمس . فكرت قبل أن تدخل فراشها ، أن تذهب الى دار صالح للإطمئنان على الأقل . صحيح أنه لا يوجد شيء مهم قابل للسرقة ولكن مع ذلك . فالدار العامرة ، أفضل من الدار الخاوية . هكذا كان صالح يقول دائماً . دار طيطما على ضخامتها يحكى أنها تحولت الآن الى خراب تنعق فيه بوم مشؤومة . أكلت رأس أهل البيت . ويخشى أن تلتهم الحي بكامله . مسكينة طيطما . كأنها لم تكن أبداً . يقولون أنّ العسكري : هو السبب . خاف أن تفضحه . وتمسخه حين رفض الزواج منها . هو يعرف أنّ أيدي طيطما طويلة . لكن الكلب ابن الكلب . يقولون أنه خرج (سالكاً) كالشعرة من العجينة بالرغم من الدلائل التي كانت تؤشر الى أصابع طيطما الملثلثة بسعر رأسه .

يا صويلح . نحن سنتزوج ، ونبني من خراب الليل كائنات رائعة الجمال . ونسافر بعدها جميعاً الى أحراش وجبال جرجرة نبحث عمّا تبقى من هذه العائلة التي أكلتها متاعب الدنيا . طفلنا يا صالح كان ثمرة اللوعة . ولوعة التبن والقمع . وبرودة الإمام الفظيعة ، ورائحة الحشائش المبتلة لا تنسى يا صالح .

حين دفنت رأسها تحت الفراش ، إستحضرت وجهه للمرة الأخيرة ، ثم نامت داخل عينيه الواسعتين بإرتخاء .

• • •

الفصل الرابع



صَهيلُ الجياد المتعبَة ...

- ١ -

« يا لزرق أنا ربيتك،
وبسرج الفضة وَدّيتك،
والورغان حرير (...) ».

دندن صالح بن عامر الزوفري وهو على عوده، متكوماً، يحاول أن يدخل في جسده. حتى برنوس الوبر، لم يعد قادراً على حمايته من هذا اللفح الذي يدخل العظم مباشرة.

« هوذا خوك يا لونجا يا الرخلة. قطع الفيافي والثلوج وسيصل حتماً الى سالفك ».

يا لزرق هذه ليلتك يا حبيبي. إما أن تتحول الى عود بو بركات وتقطع البحار السبع، والجبال والبرية البعيدة وتصل بلاد البربر وقلب لونجا الطيبة. أو نتكوم مهزومين، أنا وأنت، على هذه الثلوج الجبلية ونبكي حتى الفجر، ومع الصبح نجد أنفسنا قد تحولنا الى أصنام جليدية، أو ألياف ثلجية رقيقة، ترفعها أرياح هذا الليل الذي لا يرحم. لم تبق إلا أنت. وأنا. والبر البعيد. البعيد يا حبيبي. أجرِ يا لزرق وقل ما جريت وراءنا عالم شرس وسيوف الزناتي والسبايبي ووقاحة أبي زيد الهلالي.

بلدتنا لا تعرف إلاّ فصلين في السنة، أو على الأقل، نحن لا نشعر إلا بهذين الفصلين. الصيف والشتاء. الصيف للشوالة والشتاء للتهريب. ها هو الشتاء البارد وكلام الناس، يعيدني مجبراً الى مهنة التعاسة. أنا أعرف أنك تعبت وأن قلبك وصل فمك لكنها الدنيا بنت الكلب التي صفعتنا وتصفعنا بمؤخرتها.

سر. سر. يا ولد أمّا.

« المخلولة في تستنّى
وانا لاهي بالغير ».

إرتفعت عقيرة صالح بن عامر جريحة، في الليل البارد:

«لزرق عاطي ودنه لي
يصغي في لفظ معاني
وطّى بظهره ينبّه فيَ
وطار مثل الطير(...)».

هبت الريح بقوة كبيرة. شعر بقساوة البرودة أكثر بالرغم من التفافه داخل البرنوس الخشن. إرتفاع كميات الثلج في هذه المناطق الجبلية مخيف يا الله. كانت أرجل الحصان تغوص وتصعد بصعوبة. كان يسمعها ويشعر بالألم الذي كان يقاسيه لزرق. حتى قطع الكتان التي وضعها على قوائمه قبل السفر، تمزّقت ولم تعد قادرة على درء قساوة البرد. رنين الصفائح أكلته كتل الثلج المتراكمة. وربّ هذه الظلمة زادت للطين بلّة.

- «وحق محمد يا لزرق عند العودة، سأجبر حمادة الزعيمي أن يصنع لك حدوتين لا تتعبهما مسافات الليل.»

صدقني يا لزرق. وحليب أمك، لم أكن أنوي العودة الى هذا المرض القاتل. لكن هم يا الله؟؟؟ أكاد أقسم بأنّ العملية كانت مقصودة ومنظمة. ابن الكلبة يغريني بالربح السريع. والخائن الذي وضعوه في مكتب إعادة الإعتبار لقدماء المجاهدين يتهمني بالخيانة. ويغريني بالفنادق. أبنيها على عظام الأنبياء والشهداء، وخيرة ناس بني هلال الطيبين. وأنا يا لزرق أنا الذي رأيته بهذه العيون التي ألهتها أسفار الليل. يفرغ على رأس أمه مثانته بكل قذاراتها. المسكينة، ظلت تبصق حتى قيل أنها جنت وألقت بنفسها ذات فجر بارد في أحد الوديان المتسخة. إنه البؤس يا لزرق، الذي ينخرنا من الداخل. خاطري ضيق يا ولد أمّا ولم أستطع الصبر. هذه المرة سأدخل مجبراً. التجربة من بابها الواسع. سأطأ على رؤوسهم جميعاً بدون أدنى رحمة. سأعيد تعاملي مع بنات طيطما أو أذهب الى ياقوتة وأبني معها عرشاً جديداً من المحبّة والتهريب. خلّ الدنيا تخلاً. وحين تتاح لي أول

فرصة مع موح الكتاتبي سأفضحهم واحداً واحداً.

آه يا بابا صالح أنت تهذي. صدقني أنتَ تهذي، وتحاول تبرير لحظة الضعف التي أصبت بها وأنت تواجه أناساً كالغيلان، بأسنان حادة وعيون تلحظ الكبيرة والصغيرة، وتعرف كيف تسير أمورها، أنت ضعيف لا لأنك هربت فقط ولكن لأنك كذلك تحاول تبرير تعاستك.

أوف. يا أخي هربت لأني كرهت. مللت ربَّ بلدة يباع فيها الشهداء تماماً كما تباع الخردة في الأسواق الرخيصة. وبقدر ما حاولنا أن نكون طيبين، وجدنا أنفسنا نئن تحت الجوع، وتحت الكلام المؤلم، الذي يقتل من الداخل ويفعل أكثر مما تفعله رصاصة. رفضت السبايبي ورفضت أن أتحوّل الى أحد عبيده الذين لا يتحركون إلاّ بأمره. ورفضت الوجوه المتسخة التي تشككك في محبتي لهذه التربة التي أحرقت طفولتي وامتصت نسغ شبابي. ماذا تريدني أن أفعل. غُصْ بداخلي لحظة واحدة، وبعدها تَظُرْ عليَّ إذا شئت. صحيح أني في بعض الأحيان. يصبح بيني وبين الحماقة مسافة أصبع. لكن أعتقد، وهذا أضعف الإيمان، إنه من حقّي أن أبرر هذه الحماقة.

مسكين يا صويلح. يا ابن عامر الزوفري.

في لحظة ما لم يدر أي أنسام التهمتها، شاهد لزرق يتجنّح كالبراق، يرفرف عالياً. يعلو فوق الثلوج الجبلية وفوق أرياحها الشتوية في محاولة نبوية لإيصال الأرض بالسماء. والوصول يا يَمّا، قبل أن تجهز حنَا غولة على رقبة لونجا التي ما تزال تنتظر عودة الوجه الأصهب الذي لا تأكله الأنواء. أخوك يا لونجا حتماً سيعود. حضّري الماء الساخن والبركوكس[1] بالحليب، والحنّاء البدوية لمعالجة جراحه.

غاصت أرجل لزرق في الأعماق. لم يعد يسمع شيئاً غير هذه الأصوات المتناغمة مصحوبة بالريح التي بدأت ترفع نثار الثلج عالياً وتغطي وجه

---

(١) أكلة معربة تشبه المرغل

صالح بن عامر الزوفري. شعر بالندى يتساقط على قلبه، وبنحيب خفيّ يأتيه من عمق أعماق لزرق الذي بدأ الوهن يكبّل قوائمه. والله يا صالح أنت مسكين. وستبقى مسكيناً. بدأت تتعب وتُرهق. لكن تيقن أنه ما يزال فيك شيء صاف كالمعدن لم يدخله الصدأ. ستحاول أن تتسخ وأن تجد مبرراً لإتساخك. ستتاجر في الشراب. في القات. في الذهب. في الحشيشة لتتحول الى رقم. وما أكثر الأرقام في حي البراريك. رقم في يد السبايبي، فهو يحتكر التجارات الكبيرة مع كبار المسؤولين، وأنت ما زلت صغيراً يا خويا. صدقني. ما يزال فيك ذلك المعدن، يلتهب، كلما حاولت أن تسقط وتحرق بقايا صورتك القديمة. حتماً ستفشل ولن تفلح في مسعاك. أرهبك بولحيا بوجهه المجعد قبل الأوان، وها أنت تحاول عبثاً أن تكون مثله. لن تستطيع. فما يزال في عروقك دم الشهداء الحار. دم الشهداء الحار. فيك شعلتهم ونيرانهم التي لا تخبو. أنا وأنت يا صويلح يا زين مسيردا، قطعنا البراري والقفار من أجل أن نعيش على الرغم مما يحمل هذا العيش المتعب من تنازلات نُجبر على تقديمها لحظة اللااختيار. وسنظل نقطعها، معنا، الكتان، والزعفران، والأشياء الصغيرة، الى أن تغير هذه الأرض دورتها، وتبتر أيدي الغولة التي تهدد رقبة لونجا بالذبح. صعب أن نلغي ألَق الأشياء الجميلة لحظة ضعف إنساني محدودة. تصور شعر لونجا. ضفائرها تنزل. تلمس الأرض. رائحة الحناء التي تملأ الخياشيم، وطعم المسواك. نربط الشعر على خصرينا. ترفع لونجا رأسها. نعلو. نعلو. نعلو. نلمس العيون التي لا يحترق فيها الحنين والأمل. الأنجم التي لا ينتهي توقّدها الأبدي. نبض الأشياء التي تكتسب حيوية خاصة حين تصبح على قاب قوسين أو أدنى من شفاه لونجا. من الصعب الصعب، أن نحترق جميعاً تحت طيش اللحظة التي تحاربنا في أعزّ شيء لدينا. قاوم المسخ يا صالح. فالشهداء الذين تباع عظامهم لغير الشهداء سيحاسبونك أكثر من غيرك.

حزّه أن تتحول الدنيا الى كرة سوداء في عينيه، مبرقعة بالتشوهات. ضرب لزرق بركابه. كان هذا الأخير في محاولة مجهدة لإنتشال حدوتيه

الأماميتين اللتين غرقتا حتى الركاب من كومات الثلوج التي بدأت تيبس وتتجفف وتصبح حادة ومدببة.

الله. هذا الذي كنت تخشاه يا صويلح.

ضرب مرة أخرى بالركابين العالقين في أقدامه.

رفع لزرق قوائمه الأولى. إستطاع أن يتحرك بصعوبة. نحنح بقوة وألم. في البداية إرتجفت قوائمه، لكنه سرعان ما عاد الى طبيعته والى المقاومة.

اللعنة تتبعنا يا لزرق، لعنة سيدي علي التوناني التي كانت السبب في هلاك الهلاليين. عينه قاسية يا ولد أمّا مثل عيون الرّوحانيات. تعبك يرهقني. ربّما كانت الحدوتين؟؟؟ أو الصفائح؟؟؟. قاوم. أعرف أننا لن نستطيع الطيران. لا أنت الشهباء أو الخضراء ولا أنا أبو زيد الهلالي أو دياب الزغبي أو حسن بن سرحان.

خطوات لزرق تثاقلت. مقاومته خفّت، رقبته الطويلة تدلت، وأصبح يجد صعوبة كبيرة في رفعها وفي تحريكها. ترجّل صالح بن عامر الزوفري. تلمس حدوتي حصانه. شعر بهما غير طبيعيتين. تمنّى لو أشعل النار، ولكنه سرعان ما ألغى الفكرة. فكلاب الجمارك الحدودية منتشرة في كل مكان كوحوش الخلاء. تحسسها جيداً وتحسس المسامير المثبتة على الصفائح. حالتها ليست بكل تأكيد جيدة، لكن ما العمل يا الله. أدخل يده تحت ركام الثلوج. بحث عن حجرة. أدخل المسامير التي كانت بارزة في حدوتي الحصان. مزّق الخرق البالية التي كانت تحيط بقوائمه. إنتزع لباسه الداخلي. أحاط به القوائم الأمامية. يا الله يا سيدي. أحسن من (والو)[1]. قام. تلمس وجه لزرق. شعر به مرهقاً، تعباً على غير العادة. المسافة ما تزال طويلة. تحسس صدره وجوانبه، وما تحت السرج. شعر بأشياء لزجة. قرب يده منه أكثر. عرف أنها الدم الذي خلفته جروح

---

(١) لا شيء.

الركاب من كثرة إحتكاكها بجوانب صدره. تلمسه من جديد. شعر بالجروح غائرة. وبلزرق يتألم.

ها. يا آخر سلالة أولاد بن عامر، بدأت تتحول الى كلب مسعور، حين يجنّ. يلتفت الى رأسه لأكله. في آخر أيامك يا صالح تعذب لزرق الذي عاشر سواد أيامك الجافة. لزرق الذي إختصر بك حدود الدنيا وأنجاك من موت محتّم. إنها لحظة الجنون يا آخر سلالة المجانين. لحظة يفتقد المرء قدرة التصرف الواعي: تصبح الحماقات منفذه الوحيد. ربّما كانت هي عينها لحظة الفشل. العود يا آخر سلالة المجانين، ليس حماراً، ولا بغلاً. أنت صالح بن عامر الزوفري الذي يملك لزرق، ولست أبا زيد الهلالي الذي يركب بغلة شهباء يهاجر بها للتهريب، وينكحها في الطريق عند الحاجة. العود يبكي يا صاحبي. حين يتعلق الأمر بكرامته. يشعر أكثر من بني آدم، يا مجنون بني عامر.

يا الله يا لزرق. الآن أصبحت أفضل من قبل.

نحنح العود. أحنى رقبته الطويلة، رفع قائمتيه الأوليين مرة أخرى. توقف برهة وكأنه شعر بشيء غيرعادي يسير في أعماق هذه الطبيعة الصامتة، ثم واصل سيره بحذر شديد. أذانه مرفوعة ومصوّبة نحو الأمام. أنزل صالح المكحلة من على ظهره ثم تركه يمشي أمامه، ومن حين لآخر يساعده بالدفع، أو يسبقه. يرفع لجامه حتى إذا تجاوزوا العائق رجع الى الوراء.

الثلج بارد. وهذا شتاء آخر يضاف الى الفصول الشتوية التي نعيشها يومياً في كل الأماكن وفي معظم اللحظات. قاوم يا ولد أمّا. قاوم. سنصل يا لزرق ونرتاح بما فيه الكفاية. إمش. إمش ولا تلتفت وإفتح آذانك جيداً. فالمنطقة ملغومة. أنا متأكد من أن النمس ليس بعيداً من هنا. آخر سلالة بني كلبون يا لطيف. والله هذه المرة يا فيّ يا فيه. هم دفعوني، وهم يتحملون مسؤولية الدمار. المسيردية الله يرحمها، كانت تقولها دائماً. هؤلاء يجري في عروقهم دم الكلاب. إحذر منهم يا خويا صالح. يا أنت يا هم.

وأغلب الظن أنت لأن طيبوبتك أكبر من نزعة التدمير فيك. وشهامتك كبيرة مثل هذا البحر الذي لا يحدّ. لونجا ليست كالمسيردية. تخاف. عقدة الخوف ركبتها من يوم سرقوها من الأحراش وهي وراء أغنامها، وألصقوا صدرها البضّ، البدوي، بصدر الإمام المترهل. عيونها مغمضة. معصوبة من كثرة البكاء، وضعوها في حُجر الإمام الملتهب، والعاجز عن الإتيان بأي فعل مثمر. طيبة يا الله. تمنيت أن أسعدها لكن يبدو أن لعنة سيدي علي التوناني ورائي حتى الموت. لست قادراً على إسعاد إمرأة إلاّ لحظة أكون معها، وبعدها تعود إلي عادتي السيئة، التي ورثتها عن هذه البلدة التي كلما جاعت، إنقلبت على أبنائها تلتهمهم واحداً، واحداً. قلبك كبير يا لونجا. قادر على أن يغفر ذنوب كل حمقى الدنيا. أنا ضيعت صوابي ومتأكد أنك بكيت كثيراً. فالليلة التي كانت بيننا جمعتنا بكل تفاهاتنا وأوساخنا، وأفراحنا. كانت طيبة مثل عود النوار الذي نتذوقه بعد نهاية كل لحظة فرح. تصوري يا لونجا. رجل مشبوه، يعيد لي إعتباري وكرامتي المداسة؟؟؟ أعرفه. وحق الله أعرفه. أمه إنتحرت إحتجاجاً على هذه النبتة الفاسدة. أشعر بخفقان قلبك يسري مع دمي. أنت معي...

فجأة توقف لزرق للمرة الثانية، رافعاً أذنيه بدقة وإستقامة خارقة. إستشعر وجود الحياة، في هذه المنطقة الميّتة.

- «الحي كاين يا لزرق!!! هكذا علّمنا الخلاء الموحش؟؟؟».

قالها صالح بن عامر الزوفري، ثم قفز على ظهر جواده. وضع البندقية بين أذنيه وأخذ يسترق السمع بهدوء. يقول الهلاليون القدامى والمجربون الذين طحنتهم الدنيا وأكلت أحلامهم المسافات الليلية، في الزمن الذي كان يكثر فيه قطاع الطرق، أن آذان الدواب إذا إرتفعت بإستقامة وبشكل فجائي، ضع البندقية بينها وإضغط على الزناد. أقسم بمحمد وأصحابه، أنك ستصيب هدفك حتماً. المؤكد أنّ الذي يتمترس في طريقي ليس إلا النمس أو أحد كلابه المكلوبة. مع أنه من المفروض في مثل هذه الحالة، يختبىء كالدب. ونخرج نحن، بعدد النمل نبحث عن الخبزة المعلقة

على سلك شائك كهذا القلب الذي حرموه من كل الأشياء الجميلة وأيبسوه كقطعة طماطم جافة. هذا ما نتوقعه دائماً، لكن يحدث ما يفوق قدرتنا على التفكير، فيفاجئنا النمس. يتلذذون بإفزاعنا في الطرقات التي تزدحم ببقايا أصواتنا المبحوحة. ندأب طول العمر، وحين نصل الرغيف يسحب من أفواهنا قبل حتى أن نتلذذ بمضغه، وربما نسقط حتى قبل أن نتمتع برؤيته. أمّا والله، إذا كان أحد قطاع الطرق، فلتعزّه أمّه. يبكي هو، ولا تبكي يمّا التي تنام عظامها بين الأشجار الخلوية في البرية البعيدة. على كل حال، أنا لا أحمل معي شيئاً. لا زيت ولا سكر. ليس معي إلاّ الكتّان. صحيح أن سعره هذه المرة غال. وعلى كل حال، حتى لو كانت صفيحة حدوتي الحصان قد تآكلت، فلن يأخذوها بالبساطة التي يتصورون هذه المرة لا. يا أنا. يا هم. واحد فينا، يسرّح الطريق للثاني. قد يكون ياسين، ينتظر عودتي المؤكدة. فالسيد ذئب، والأمور معه لا تنتهي ببساطة. فالإهانة التي لقيها منّي كانت قاتلة. هزمته وهزمت بطشه في عيون كل أهل البلدة. لست هزّياً تافهاً أتصارع معه على إحدى خليلاته. هو الذي ظلم شيخوختي، والبادي أظلم. تأكلني الأسئلة المتضاربة، لكن الذي أعلمه، هو أني، وفي هذه اللحظة بالذات لا أعرف شيئاً، وأنتظر ما تسفر عنه اللحظات القادمة. وقبل أن يسمع صوتاً آمراً وتفاجئه الأضواء الكاشفة:

– «قف يا إبن الكلبة. قف. قف».

كان لزرق قد رفع قوائمه الأولى، وإنطلق كالسهم صوب الضوء بسرعة خارقة. حاول صالح أن يوقفه، بلجمة قوية، لكن عبثاً. إختلط صوت تكسر الزجاج تحت حدوتي الحصان، بزخات رصاص متتالية وصراخات ألم.

– «صح يا ابن الكلب. ستدفعها ثمينة عرفت وجهك يا صالح الزوفري».

إرتفع لزرق كالبراق وطار وأبرق كسماء حبلى بالغيوم السوداء

تكسرت أضواء البطاريات تحت وطأته الخشنة. سمع صالح رصاصات متتالية أخرى، لكنه شعر هذه المرة أنها كانت في الفراغ، سرعان ما إلتهمت الفضاءات الواسعة أصداءها. أقنع نفسه، أنهم يريدون تخويفه، ليس أكثر من ذلك. كما هي العادة طبعاً. ثم لماذا يرتكبون جريمة تُسجّل على أوراقهم، فهم يعرفونه، وغداً قبل أن تفتح الديكة عيونها، سيفاجئونه في فراشه عارياً كذئب صغير. الصوت الآمر لم يكن غريباً عليه. في لحظة ما، فكر أن ينزل، ويؤدبه، لكن سرعة لزرق لم تتح له هذه الفرصة. أنا متأكد أنهم مدججون بالأسلحة،ومع ذلك، لو لم يقفز لزرق كنت ختمت جبهته العريضة برصاصة. النمس. أنا متأكد من صوته، ومن كلماته البذيئة. المسافات لم تعد بعيدة في عيني لزرق. فقد إختصرتها جرأته وشجاعته الكبيرة. القلب يخفق كطائر مذبوح. السحنة مرهقة حتى العظم. من بعيد، تردد بين الجبال، شخير سيارة لاندروفر ورشقات متقطعة من الرصاص الطائش. تحسست أطرافي. يا أخي من يدري؟؟؟. الدم كان سخناً، وربّما تكون قد ثقبت صدري إحدى الرصاصات العمياء. الحمدلله الذي لا يحمد على مكروه سواه. لست أدري ماذا وقع لي، لكني حين تذكرت وجه العربي المكدود، تلمست من جديد جسدي، زاوية زاوية. لم أشعر بالألم. لم يكن هناك ما يدعو الى الخوف اللهم جرح صغير في الفخذ. ربّما كانت نفس الرصاصة التي أودت بأحلام العربي لو سكنت رأسي أو قلبي. في بعض الأحيان، وهذه إحداها، يلعب الحظّ لعبته التي لا تفهم إلا بصعوبة.

لزرق يقاوم تراكمات الثلوج. مناخره نافرة نحو أفق غامض. لم تعد عيناه الواسعتان تريان شيئاً غير الإصطبل والتكّوم على التبن حتى الصباح. من حين لآخر تنعكف قائمتاه الأوليان يسقط، ثم يقوم بسرعة وكأن شيئاً لم يحدث. هذه هي الجياد الأصيلة يا بابا صالح.

منذ الحادثة وحتى اللحظة فكر صالح في نفسه فقط، وفي إمكانية أن يكون مصاباً، لكّن فكرة أن تكون رصاصة إستقرت في بطن لزرق الذي

داهم البطارية لم تمر برأسه. لم يفكر فيها لحظة واحدة مع أنها إحتمال يظل قائماً.

شعر بالعود تخف حركته وتضعف مقاومته، لحظتها داهمته الفكرة بوجل وخوف. خطوات لزرق أصبحت ثقيلة. ثقيلة جداً. بدأت البرودة تصعد من أقدامه حتى تصل شعر رأسه. أحس كأن يداً ما، وضعت داخل أمعائه قطعة ثلج يابسة.

حين دخلوا الطريق المزفت، السالك، سقط لزرق ثم قام ثم سقط.. .ثم قام وواصل تدحرجه بصعوبة.

- «لزرق، لا يمكن أن تكون جريحاً يا صديقي. لا. لا يمكن».

سر. سر يا ولد أمّا. سر. خلّيت المخلولة في تسْتنّى. لقد دخلنا الحرب الضروس مع الأعاجم الذين لا يفهمون إلا لغة السيف وذبح الرقاب. فهذا النمس. الخرمند يطمع في سبيك وتدجينك، حتى يدخل بك حروبه ضد بني هلال منتصراً. الخرمند يا لزرق، يفعل معك الآن، ما سبق أن فعله بفشل مع الجازية. عرفوني يا خويا وعرفوك. ماذا يحدث لو كنت قد أفرغت في أحشائهم، محتويات مكحلتي؟؟؟ حتماً، كانت المسألة تعقدت أكثر مما تستحق تلك الوجوه التي يكتنفها الغموض. لكن على الأقل كنت بردت خاطري الملتهب. سيفاجئونني فجراً. سيأخذون كل شيء. وحق محمد، هذه العباءات الغالية، إذا لم تأخذها لونجا، فماما حنّا عيشة أولى بها من غيرها. سأثير كل المعادن الساخنة المتجمدة في أدمغتهم. سأعيد الكرة وليتفرقعوا مثل الحرباء المنتفخة. سأقتل إذا دعيت للقتل. سأقتل النفس العزيزة. أو لتكن عزيزة علينا جميعاً. لا نبدأ. لكن سندافع عن الرغيف وعن أنفسنا بشراسة القطط والنمور. على الحكومة أن لا تغمض عيناً وتفتح عيناً كالديك المريض. فإذا لم تنظر بوضوح، سنعمى نحن كذلك ونتحوّل الى أعداء. لم نطلب أكثر من الرغيف. نتقشف. التقشف يا جماعة. يرددها رئيس البلدية صبحاً ومساء. ذكرني به مرة أخرى حين ذهبت ذات مرة أطلب العمل:

– « يا بابا صالح ، نحن نطبق سياسة التقشف ، لنعلم صدرنا الإتساع » .

– « لكن يا وليدي لم نطلب البحر للشرب . العمل فقط حق لا نضيع ويضيع أولادنا » .

– « ستجد العمل حتماً . لكن ربي نفسك على القليل . الدنيا بنت الكلب » .

– « نحن نجوع يا وليدي . مجبرون على التقشف » .

– « بلادنا في حاجة الى أمثالكم » .

يا ولد القحبة . أمثالي ؟؟؟ من يسهل ركوب ظهورهم كالنعامات . التقشف لتضع أموال الشعب في جيبك الذي لا يشبع . كل يوم يغيّر سيارة . الفلاّ . الحمام . الخبزة . والبنان[1] والشراب ، الذي يأتي (مكرطناً) من مارساي التي نخرت كالسوسة عظامنا . يا سيدي ، حين تنادون بالتقشف ، قولوا لنا صراحة ، موتوا جوعاً . وها قد بدأنا نموت . القلب ممتلىء حتى الفم بالزفت المحروق والزيوت القديمة المغلية في إناء صدىء . تفو . تفو . وحق محمد ، هذه المرة ، يا أنا يا الديوانه . لا أقتل ، ولست مستعداً أن أترك ما تبقى من شيخوختي يذهب مع الريح ، وعلى أيدي أولاد لا ليجو .

تألم صالح بن عامر الزوفري في أعماقه بشدة .

في اللحظة ذاتها ، كان لزرق قد بدأ يشخر مثل رجل مسلول . تعثّر . وقع على ركبتيه . بصعوبة نهض . وقف . تسمّر في مكانه . هزّ رأسه وقوائمه بتثاقل . كانت تباشير الفجر قد بدأت تلوح .

تحسس صدره . أنّ لزرق أنين جياد مقدّمة للمسالخ .

– « الله يجيبها في الصواب . الله يجيبها في الصواب » .

أحنى صالح رأسه . يده على قلبه الذي بدأ يضرب بسرعة مخيفة . وضع

(١) الموز .

لجام لزرق في يده ثم سار متأنياً، محاذياً الطريق المزفّت، ورأسه ثقيله كأحجار الكاريار[٢] الزرقاء.

• • •

- ٢ -

- «من؟ ».

- «أنا. صالح. إفتحي يا لونجا».

قبل أن يدق فكر كثيراً في عدم إزعاجها، فالسيدة وحيدة والأكثر من هذا مرعوبة من الداخل. لكنه في النهاية إنتهى الى هذا القرار. تنزعج، وترضى، ولا موت لزرق نزفاً.

- «أنا صالح».

نحنح مرة أخرى بصوت متهدج، تسدّ حلقه المتعب بحة البرد. تمنى في أعماقه. لو تتحول الى برق وتفتح بسرعة خارقة. فساقاه لم تعودا قادرتين على حمل بقايا جثته التي مزقها الليل وكثرة الأسفار التي لا تنتهي. سمع وقع الخطى وهي تتكسر على كتل الثلج الذي كان يملأ حوش الدار.

فتحت الباب. في يدها رفش وفأس عتيقين. صالح!!!؟؟؟ الكلمة الوحيدة التي تتذكر أنها فاهت بها، وكانت عيونها نصف مغمضة. أذبلها النعاس المتقطع والبرد. تلف نصف جسدها في بطانية ممزقة قديمة. أسنانها تصطك من الليل والثلج، ونزعة الخوف التي تفجرت في أعماقها فجأة، في الأيام الأخيرة.

- «في هذا الليل يا صويلح؟؟؟».

- «أعرف إني أزعجتك، لكني مضطر يا لونجا. لزرق يموت يا بنتي».

- «لم أقصد يا صالح.. قل لي أنك لم ترتكب حماقة؟؟؟!!! يا الله».

- «لا. لا. قلت لزرق يموت، وإذا لم نسعفه الآن سيموت. دمه ينزف

---

(٢) المحجر.

يا لونجا ».

-«آه يا صالح. رأسك وشحال غليظ ».

- « هذا وقته يا بنتي ».

تأملته لحظة من الزمن. بقيت مشدوهة. لا تصدق عينيها، ولا تصدق هذه اللحظة التي تمرّ بين أصابعها كالبرق الخارق. لم تلحظ رجليها المدفونتين داخل أكوام الثلوج. شعرت بالحمرة تصعد الى وجهها، وبفرحة مكسورة في داخلها كقطعة زجاج ثمينة. إنها اللحظة التي تفصل بين الموت والحياة يا لونجا. لحظة يكتشف الإنسان، كم كان ثميناً. أفي هذا الليل تعود يا صالح مثقلاً بالهمّ والغربة والخوف؟؟؟ ألم تعلمك أيامك المرهقة إلا الهروب وحرق الأشياء الجميلة، عندما تهاجمك سكاكين الأوباش؟؟؟ هكذا يا صالح. بكل سهولة تنسى الحليب الذي شربته، والعيون التي إلتهبت في غيابك؟؟؟ الله يسامحك يا وليد ميردا الطيب.

- «لونجا. مالك حالة فمك. لزرق يموت ».

- «أدخل. أدخل. إشرب قهوة على الأقل، والرجاء في الله ».

- «لا وقت للقهوة. سخني سكّيناً. سكين الإمام الكبير حتى يحمرّ. وخذي معك شوية عرعار، وسكر،ومارمان. وسخني الماء كذلك. فالغاز عندي فاضي ».

إنتبهت لتفاصيل وجهه تحت ضوء القنديل الزيتي الأسود. بان لها كأنه تحوّل مع كثرة الجليد الى قطعة حديد زرقاء. شقياً. مرهقاً حتى القلب. جرت نحو الخزانة. أخرجت من أحشائها الباردة أحد سراويل الإمام التي جاءته هدايا ولم يلبسها ولا مرة. إنتبهت الى كسوته التي التصقت بظهره من كثرة الأمواه التي علقت بها. والى سرواله الذي تمزّق عند الركبتين، والى حذائه الذي لم تبق منه إلا بعض السيور المتناثرة.

نزع سرواله. ضمدت جرحه.

- «الجرح غائر ».

- «لا والله. تمزّق فقط».

- «إرتح شوية».

- «أولاد الكلبة. ضربوه للصدر. وحق محمد إذا وقع له أي مكروه، سأقدم على إرتكاب الحماقة التي تفاديتها حتى الآن».

- «شفت اللّي ضربه بالرصاص».

- «كان الليل. ولكني سمعت صوته حين دهصه لزرق. النمس، ما فيش غيره. سمعت زخات رصاص، ولم يترك لي لزرق فرصة دراسة الموقف، فقد طار فوقهم جميعاً. تصوري يا لونجا، لقد قاوم بقية الرحلة بقوة، وأنا كالدابة الهرمة كنت أدفعه دفعاً الى الموت، وهو ينزف. صدقيني يا لونجا أني حين وصلت للطرق السالكة وإنتبهت لجرحه الخيف، بكيت على صدره، حتى إختلطت دموعي، بدم صدره وبرائحته التي تذكرني بالأزهار والحشائش والحمّيضا، ونبات الجرجير البري. لقد كان لزرق أصيلاً. وكنت تافهاً وأنانياً. فحصت نفسي. تطمأنت عنها كذا مرة ونسيته مع أنه هو الذي أعطى صدره للنار. آخ الدنيا بنت الكلب لم تعلمنا إلا العادات السيئة. إسرعي يا بنتي الله يرضى عليك».

إنتبهت مرة أخرى الى الدم الذي إخترق الضمادات وسروال الإمام البني.

- «رجلك يا صالح».

- «لونجا الله يرضي عليك، كل دقيقة أشعر بأني مسؤول عليها بكل تفاصيلها».

وضعت على جرحه خرقة جديدة، سخنتها على الجمر، الذي يبيت طول الليل مشتعلاً. لفت ساقه بشكل جيد. شعر بالوخز في قلبه، لكنه حين قام وتذكر لزرق نسي كل شيء.

- «أوف ليس مهماً. الجرح بسيط».

- «الرحمة في الله يا أخي».

- الله يا بنت الناس أهملنا ».

- « يا صويلح عقلك ضاع ».

- « جدل مرّ. أنا في سباق معهم يا لونجا. عليَّ أن أداويه قبل وصولهم. أنا متأكد من أنهم عرفوني، وسيفضحني لزرق بجروحه. تصوري يا لونجا عند أختي خضراء أم المرّوكي، رأيت حلماً أفاقني مذعوراً. صحيح أن الخرافات لا تدخل رأسي، لكني في بعض الأحيان أشعر كأن عقلي عاجز عن إدراك كل تفاصيل الحياة المعقدة. حدث هذا في الليلة الأخيرة التي قضيتها عند عبد القادر المروكي ولد أختي خضراء، تعرفين أني حين أتعب أذهب عندهم لقتل الهمّ. قلبه كبير، وأمّه خيرها سابق. أؤمن إيماناً قاطعاً يا لونجا، بأنك لست نوفلة أخت دياب الزغبي التي رأته يسقط أمام عينيها في الحلم. ولست دياباً. لكن صدقيني، فقد رأيت أبي الذي لا أتذكر قسمات وجهه، هيكلاً عظمياً تتسلقه ديدان قزحية مجنحة. تصوري دود مجنّح. يرفع رجلاً في الهواء ويلوح بالثانية التي كان يحملها في يده اليسرى. كانت عظماً يقطر دماً. يلوح بها نحوي، ويقسم بأنه سيقتلني. فقد بدأنا نخون دم الشهداء الموضوع لدينا أمانة، يا لونجا. تتدلّى من عظامه، أوردة نابضة، وعروق، وأشياء صفراء لزجة، ودم بغير لون الدم. حين حكيت القصة لعبد القادر المروكي والخضراء العجوز، الطاعنة في السن. من بقايا سلالة بني هلال التي لم يصبها الجنون. ذهبت ليلاً الى أرض غير الأرض التي نبتنا فيها مع رجل غامض. حين سمعت تفاصيل الحلم بكت كثيراً، وقالت أن مكروهاً سيقع. ليست منجم بني هلال وضارب خط الرمل، أبا زيد الهلالي التافه. في البداية إنتابتني رجفة الخوف، لكن متاعب الليل والرحلة أنستني الحادث. وحين نزلت أدفع الحصان الذي غرقت حدوتاه الأماميتان في الثلوج، تذكرت عظمة أبي، وكيف كان خيالاً قوياً، لا تقف في وجهه أعتى الحواجز. كان يرحمه الله، حين يركب عوده، يحفن التربة من الأرض، والعود يجري، أو يلمس قوائم الحصان وهو في قمة سرعته. وقيل أنه ركب النعامة، والأسد، وصارع نمور الغابات المجاورة، وقبل أن

تلتهمه أحراش مسيردا ويستكمل رجولته الفذّة ، حرق أبناء الكلاب الذين كانوا يبيعون الأحباب والأرواح للكولون بأبخس الأثمان . أصدقك القول يا لونجا ، أني في الطريق خفت . خفت كثيراً عنّي وعنك . وغصت في أرحام الثلج مذعوراً . أبحث عنك وعن وجهك المتلف خلف حدود الموت . الغولة قوية وبدايا هزيلتان . ها أنذا أعود لك فارغ الجعبة ، بدون تفاحة بنت منصور ، وبدون الأحلام الكبيرة التي كانت تدغدغني ، وبدون حليب العصافير . وبلزرق على مشارف الموت .

– « يا سيدي . حياتك هي الأولى . الحمد لله اللي جات العواقب سليمة » .

أخذت الجمر بعدما حطّت عليه الطشت الساخن ، ثم وضعت بين الجمرات المتقدة سكين الإمام الدقيق . أزعجها سالفها المتدلّي وراءها كأفعى مزدوجة الرأس . طلبت منه أن يضعه في منديلها ويلفه على عنقها . فعل ذلك ببرود . مشت أمامه وهي حذرة ، خاف من أن تنزلق على الثلج وتنطفىء الجمرات . تبعها ، في يديه ، كومة من الحشائش اليابسة والكحول ، والأدوية العربية ، ومجموعة من الخرق الممزقة .

البرد السامّ والأنجم الغائمة تحت كتل الغيوم السوداء ، ونقرات الأمطار التي كانت تحدث أصواتاً متناغمة على أسطح الزنك . كانا يمشيان بصمت ، يتسليان بظلمة الليل ، ووقع الأحذية وهي تغوص في الوحل والثلج وتخرج بصعوبة . حين دخلا الإصطبل ، كان النور ، قد بدأ يخفت في القنديل الزيتي الذي إسودّ زجاجه . قص صالح رأس الفتيلة . عاد الضوء الى وضعه الطبيعي . إقترب من لزرق الذي كان يشخر ، يملأ الدم فمه . بسرعة ربطه من رجليه الأماميتين . تفحص جرحه مرة أخرى .

– « إعذرني يا لزرق ، أمثالك لا يربطون من أرجلهم . إنها الضرورة وحدّة الألم صعبة » .

كان العمش . عمش التعب والإرهاق والألم قد بدأ يغطي جوانب عيني

لزرق. أخرج صالح منديله الذي يعتز به. أهداه له أحد الذين قذفتهم أراضي الغربة هياكل عظمية مع قطعة صابون «لوكس». لم يتجرأ ولا مرة واحدة، أن يخط فيه أنفه. مسح له به عينيه وطعم ملوحة الدم الذي فاض داخل فمه.

كان الإصطبل فارغاً، ودافئاً الى حد ما، بالرغم من القطرة التي كانت تنقّط من حين لآخر من بعض زواياه مصحوبة بخرخشة الحشرات والكائنات الغريبة التي فرخت داخل الأخشاب العتيقة والتي أرهقتها المياه الشتوية.

طلب من لونجا أن تشد على لجام لزرق بقوة، فقد يتحرّك بطيش، إذا مست صدره السكين الساخنة. قرحة الألم صعبة يا بنتي. ثم أخذ يدلك صدره بكلتا يديه برهة من الزمن. أخرج السكين أحمر من تحت الجمار المتقدة ثم حاول أن يجد مخرجاً للرصاصة التي شعر كأنه يلمسها برأس السكين. إنتفض لزرق في البداية بعنف. صهل بقوة، سرّح قوائمه المنهكة. دمعت عيناه المحترقتين. بدأ يستصيغ قرحة الألم. حين شعر بالسكين تدخل أكثر في صدره، مدّ عنقه الطويل الى السطح، الى صدر لونجا التي كانت تمد على رأسه بحنان طفلة عشقت حيواناً أليفاً. أحس بإرتياح كبير، على الرغم من يد صالح الخشنة التي ظلت تحرك السكين في صدره. فتح صالح بن عامر الزوفري، الجرح بشكل أوسع وحرك الموسى من جديد. تألم لزرق، لكن سرعان ما إنطفأ البريق الذي كان في عينيه ومعه زال الشعور بالألم. نخنخ بهدوء، ثم إنكسر صوته على صدر لونجا. أسبل جفنيه الواسعين، وفتح فاه، وظلّ متجمداً على حالته، ومن حين لآخر يطلق شخيراً كان يمزق قلب لونجا.

برقت البسمة في عيني صالح.

– «الحمد لله خرجت. المارمان. المارمان يا طفلة».

غسل الجرح بالكحل. صهل لزرق بقوة. ثم دفن في صدره دقيق أوراق المارمان وكمية كبيرة من مختلف العقاقير الشعبية، والنباتات اليابسة ثم لفّ

صدره العريض بخرقات بالية وضعها الواحدة على الأخرى وأسند عنقه على كومات التبن الدافىء التي لم تصلها القطرة. أطلق الرباط الذي كان يشد قوائمه الأمامية. تمدد لزرق بعياء كطفل سكن البرد عظامه.

- «إرتح يا لزرق. لقد سبقناهم».

- «الحمد لله».

قالتها ورفعت رأسها الى السماء لكن قطرة ماء. ختمت جبهتها بأوساخ الأسطح. مسح العرق من على وجهه. جرى نحو البيت الذي ينام فيه. أخرج غطاء قديماً، كان ميراثه الوحيد الذي ورثه عن أمه قبل أن ينهم الكلب المكلوب عقلها ويدفعها الى الجنون. سرحه. ساعدته لونجا، ثم وضعاه على كامل قامة لزرق.

طبع قبلة فرح على جبهته العريضة.

أخرج الساعة من صدره.

- «هاه. لقد سبقناهم يا لونجا. وحق محمد سبقناهم. أنا أعرف أنهم سيفاجئوننا هذا الفجر. إفرحي يا لونجا، سيخرج لزرق سالماً من هذا الجرح».

في لحظة ما، تأوّه من ألم الظهر الذي ورثه من رحلة بني هلال التي طالت في العراء، والبرد، والجوع. لكن شفاء لزرق أو على الأقل في الأمل ذلك، جعلاه ينسى كل متاعبه.

كلاب يا لونجا. لكننا كنا السابقين في هذا الجري القاسي معهم ومع الموت. أنوفهم، أنوف كلاب جرباء. سيكونون. ههنا مع الفجر الأول. صدقيني، فهم في مهنة قتل أحلام الناس. صانعون. خصوصاً عندما يتعلق الأمر بتعيس مثلي.

شعرت لونجا بفرحة تقتحم صدرها الذي ضاق. قدّرت أنه مسرور. وأن فرحته التي قتلت في عينيه. ها هي ذي عادت من جديد. لا شيء أحلى من أن يظل الإنسان يحلم بالأمل، وبالأشياء الجميلة التي لا ينضب

دفؤها .

– «الحمد لله على سلامتك يا بابا صالح » .

– «الله يسلمك يا لونجا » .

قالها ، ثم مدّ يده الى رأسها ، يمسد شعرها بحنان . شعر بحركة الدم المتجمدة ، تعود الى طبيعتها ، وتستيقظ فيه كل الأمور التي دفنتها قساوة الرحلة . علت خدّيه ، إشراقة ظلّت متخفيّة تحت جلد وجهه الذي تقلّص من كثرة الألم والبرد . نظر الى عينيها ، كان في داخلهما يتراقص ألَق جميل . أصبحتا صافيتين بعد العاصفة التي كادت تدمّر أحلام صالح بن عامر الزوفري . أخذ الجمر ثم صعد الى البيت . دخل الفراش . أخذ يسخّن يديه ورجليه . كانت قبالته حائرة . لا تصدق عينيها : مثل الأنبياء تماماً ، لحظة نزول الوحي . تمتمت ، ثم سكنت شفاهها التي تحول لونها الآجوري الى لون يشبه زرقة الأموات . كانت تريد أن تبكي . أن تترك كل الدموع المتحجرة بعينها ، تسري بحرية مطلقة . أن تشكو له كل الآلام التي نبتت كالأشواك في قلبها . أن تطلق العنان لكل الأشياء التي تعذبها . لكنها شعرت بنفسها عاجزة عن التفوّه بأية كلمة .

– «آه أولاد الكلبة؟؟؟ . من حسن حظهم » .

– «آه يا صالح خويا . قلبي يأكلني . أقسم لي أنك لم ترتكب حماقة جديدة » .

– « ... ... » .

– «صمتك يخيفني يا صالح » .

– «لم أفعل شيئاً . لكن في بعض الأحيان تنتابني رغبة ملحة في إرتكاب جريمة ما » .

– «الحمد لله يا رب » .

– «لو عرفت لحظتها أن النمس هو الذي جرح لزرق . كنت قتلته . صدقيني . المكحلة كانت في يدي . يلعن جدّها حياة المذلّة . لكن لزرق كان شهماً » .

- « الله يا صالح . تحيرنا عليك يا خويا . قل لنا على الأقل أنك رايح عند أختك خضراء » .

- « العذاب يقتل » .

- « والله ما إنحرق عليك سوى اللي يحبّوك » .

- « أنت وروميل ، وماما حنّا عيشة . لكن ليس كل الناس » .

- « صدقني كل الناس سألوا عليك » .

- « يقتلون ويمشون في جنازة الميت . هم الذين دفعوني الى هذه النهاية الملعونة » .

- « ونسيتنا في لحظة غضب يا صالح » .

- « لا والله . تدمّرت من الداخل . رحت عند أختي العجوزة خضراء ، نتذكر الشهداء . وفقراء الهلاليين الذين لم يردوا في تاريخ سيدي علي التوناني الله يعميه » .

- « معارفك كثيرة . أنا قلت ، ربّما أكلك ناس بلعباس » .

- « يا بنتي . قلت لك طريق بلعباس انتهت بالنسبة لي » .

شعر بها كأنما تريد أن تقول شيئاً . لكنها أحجمت . ربّما كان الوقت غير مناسب . فصالح (عيّان) وأخبار الموت والقتل كثيرة .

- « بلعباس . كه . كه . » .

إبتسم بحزن وحرقة .

- « بلعبّاس قاطعتها ، لأن الجسور التي كانت بيني وبينها إنقطعت . لكني أشعر وكأن في قلبك شيئاً حاراً يا لونجا » .

- « لا . لا والله » .

- « عيونك تكذبك . أنا أعرف كل شيء يا بنتي . ومسألة مثل هذه كانت متوقعة . ثم أن الموت لا يختبأ وراء الجدران الباردة » .

- « يعني . طيطما » .

– «ليست أول واحدة ولا آخر واحدة».

– «لا حول ولا قوة إلا بالله».

– «رغبتها في الحياة، كلّفتها رأسها. قلت لها العسكر عادة خدّاعون، لكنها أصرت. لأن قلبها لا يعرف الزيف. أعماقها ما تزال صافية بالرغم من تشوهاتها».

– «الروح عزيزة يا بابا صالح».

– «كلام صحّ. أنا لا أحقد عليها لتجاهلها الخبز والملح الذي بيننا بقدر ما أحاول أن أجد لها أعذاراً. لحظة الوحدة والحزن، لا يمتلك المرء إلاّ أن يحترم رغبتها في الخروج من دوائر الماخور العفنة وفي تنفس ولو كمشة يد من الهواء الصافي. لكن يبدو أن في هذا البلد، كل شيء تأكسد. تأكدي أن الذين دفعوا بها الى الماخور، هم أنفسهم الذين أقدموا على قتلها».

– «آه يا بابا صالح قلبك وشحال كبير».

– «خلّنا من همّ الدنيا. المرء عندما يراك ينسى ألمه. خدي. هاذو لك».

سحب شكارة الخيش إليه ثم فتحها، وأخرج منها الأقمشة الغالية التي جلبها معه من وراء الحدود.

– «ألبسيم خذيهم أحسن ما يهزّوهم الديوانه. فشلت في الإتيان بتفاحة بنت منصور، لكن ما عليهش، فالأقمشة تعوّض ولو قليلاً».

– الله يشد لي فيك ويشدّ لك فيّ».

وضعت الألبسة على صدرها. بانت لها ثمينة وغالية جداً. خيوط حريرية وأسلاك رفيعة مذهبة. بدت له جميلة على غير العادة، وطفلة تتعشق الألبسة الوردية والأشياء الرائعة.

– «لكن يا بابا صالح. هَذي غالية وأنت معندكش».

– «خذيها أحسن ما يعطيها النَمس للسبايي».

- «تعيش يا بابا صالح. تعيش وتربي الريش».

وضعت الأقمشة على الفراش المتكوّم في أحد الزوايا.

جلست القرفصاء عند أقدامه كقطّة أليفة تترقب كل الحركات والإشارات. تحاول أن تحفظ قسماته التي تملأ حضورها كلما غاب وجه صالح عنها. فهو متعود على هذه الحياة وهي في حاجة الى من يؤنس وحدتها.

- «بابا صالح».

- «سأسجن حتماً يا لونجا لأني ربّما أكون قد كسرت له عيناً. لكن سأعيد تفاصيل اللعبة، وفي المرة القادمة لن أتركهم يقتلونني.

- «بابا صالح أنا....».

- «خلّيك من همّ الدنيا والناس. معك ينسى المرء أتعابه. قلبك كبير يا لونجا».

أخرج لفافة تبغ. ملأ فمه بالدخان. أخذ يتسلى بتعرجاته وهو يغادر فمه المفتوح. أخذ يسخن رجليه الباردتين اللتين تصاعدت منهما رائحة كريهة لم يشعر بها أحد منهما. صعد البخار عالياً من جواربه الصوفية مختلطاً بخيوط الدخان التي ملأت فضاءات الحجرة الضيقة.

- «ياه. الدنيا ما تزال مليحة. الدفء والراحة. يحاربوننا حتى في هذه اللحظة. أخشى أن ينتهي بنا الأمر الى السقوط في الحفرة التي تفادينا السقوط فيها دائماً».

- «آه يا بابا صالح أنت لم تفهم شيئاً. أنت رأسك هو رأسك».

إنتبه الى تحول قسمات وجهها وخطوطه الواسعة التي بدأت تضيق. كان رأسها منحنياً كأنه يبحث عن شيء التهمته شقوق الأرض. طفلة. وحق محمد طفلة ما تزال، ترضع أصبعها وتخشى أن يكشف الناس سر كذبتها البيضاء. رأى في عينيها بقايا دموع محروقة وأشلاء ذكريات مخيفة ورثتها مع ما ورثته عن الإمام.

- « خفت على نفسي وعليك يا بابا صالح ».

- « والله إنتهى كل شيء. لنحمد الله على السلامة ».

- « الذي يؤرقني، هو أنك لحظة غضبك تنسى الدنيا بأسرها »

مدّ يده نحوها، في محاولة ما للمس عمق جروحها. غمَره حنان الأبوة التي مارسها ولم يذق طعمها.

- « أوف. لا تكبري القضية. أولاد الكلبة، الفروخا أنتاع لاليجو هم السبب. وهذه هي الدنيا. شي ظالم، شي مظلوم. وإحنا على كل حال أحسن من غيرنا ».

- « أنا وحدانية وبرانية، ولسانات الناس طويلة يا بابا صالح »

قالتها، ثم أحنت رأسها مرة أخرى. تسللت أصابعها الى خيوط البورابح. بدأت تتسلّى بها. إنسدل شعرها على وجهها. تساقط (الفولار) النايلوني في حجرها. بدت له في لحظة من اللحظات، نبية مصلوبة على حائط عتيق تتآكل بين أحجاره الحيات الملونة.

- « يا بنتي الدنيا ما تزال طويلة، وأنت لم ترتكبي معصية حتى تخافي من ألسنة الناس ».

- « تأكد يا بابا صالح أنك معصيتي الوحيدة في هذه الدنيا ».

- « ها. ها. في عينيك أشياء غامضة يا بنت الغولة. كه. كه. ».

- « لا. أوف. لا. لا. ».

شعر بإرتباكها، وبيديها المنزعجتين، وبعينيها الهاربتين.

- « يا لونجا. أنت لا تعرفين الكذب ».

- « بصراحة. أنا خايفة. خايفة يا بابا صالح ».

- « عليّ. لا شيء إستجدّ. كل ما في الأمر أني عدت الى حرفة قديمة لأكسب قوتي اليومي حتى يفرجها الله ».

مرة أخرى شعر بنفسه عاجزاً عن نبش أعماقها الغامضة، وعن فهم

- «تعيش يا بابا صالح. تعيش وتربي الريش».

وضعت الأقمشة على الفراش المتكوّم في أحد الزوايا.

جلست القرفصاء عند أقدامه كقطّة أليفة تترقب كل الحركات والإشارات. تحاول أن تحفظ قسماته التي تملأ حضورها كلما غاب وجه صالح عنها. فهو متعود على هذه الحياة وهي في حاجة الى من يؤنس وحدتها.

- «بابا صالح».

- «سأسجن حتماً يا لونجا لأني ربّما أكون قد كسرت له عيناً. لكن سأعيد تفاصيل اللعبة. وفي المرة القادمة لن أتركهم يقتلونني.

- «بابا صالح أنا....».

- «خلّيك من همّ الدنيا والناس. معك ينسى المرء أتعابه. قلبك كبير يا لونجا».

أخرج لفافة تبغ. ملأ فمه بالدخان. أخذ يتسلى بتمرجاته وهو يغادر فمه المفتوح. أخذ يسخن رجليه الباردتين اللتين تصاعدت منهما رائحة كريهة لم يشعر بها أحد منهما. صعد البخار عالياً من جواربه الصوفية مختلطاً بخيوط الدخان التي ملأت فضاءات الحجرة الضيقة.

- «ياه. الدنيا ما تزال مليحة. الدفء والراحة. يحاربوننا حتى في هذه اللحظة. أخشى أن ينتهي بنا الأمر الى السقوط في الحفرة التي تفادينا السقوط فيها دائماً».

- «آه يا بابا صالح أنت لم تفهم شيئاً. أنت رأسك هو رأسك».

إنتبه الى تحول قسمات وجهها وخطوطه الواسعة التي بدأت تضيق. كان رأسها منحنياً كأنه يبحث عن شيء التهمته شقوق الأرض. طفلة. وحق محمد طفلة ما تزال، ترضع أصبعها وتخشى أن يكشف الناس سر كذبتها البيضاء. رأى في عينيها بقايا دموع محروقة وأشلاء ذكريات مخيفة ورثتها مع ما ورثته عن الإمام.

– « خفت على نفسي وعليك يا بابا صالح » .

– « والله إنتهى كل شيء . لنحمد الله على السلامة » .

– « الذي يؤرقني ، هو أنك لحظة غضبك تنسى الدنيا بأسرها »

مدّ يده نحوها ، في محاولة ما للمس عمق جروحها . غمره حنان الأبوة التي مارسها ولم يذق طعمها .

– « أوف . لا تكبري القضية . أولاد الكلبة ، الفروخا أنتاع لاليجو هم السبب . وهذه هي الدنيا . شي ظالم ، شي مظلوم . وإحنا على كل حال أحسن من غيرنا » .

– « أنا وحدانية وبرانية ، ولسانات الناس طويلة يا بابا صالح »

قالتها ، ثم أحنت رأسها مرة أخرى . تسللت أصابعها الى خيوط البورابح . بدأت تتسلّى بها . إنسدل شعرها على وجهها . تساقط (الفولار) النايلوني في حجرها . بدت له في لحظة من اللحظات . نبتة مصلوبة على حائط عتيق تتآكل بين أحجاره الحيات الملونة .

– « يا بنتي الدنيا ما تزال طويلة ، وأنت لم ترتكبي معصية حتى تخافي من ألسنة الناس » .

– « تأكد يا بابا صالح أنّك معصيتي الوحيدة في هذه الدنيا » .

– « ها . ها . في عينيك أشياء غامضة يا بنت الغولة . كه . كه . » .

– « لا . أوف . لا . لا . » .

شعر بإرتباكها ، وبيديها المنزعجتين ، وبعينيها الهاربتين .

– « يا لونجا . أنت لا تعرفين الكذب » .

– « بصراحة . أنا خايفة . خايفة يا بابا صالح » .

– « عليّ . لا شيء إستجدّ . كل ما في الأمر أني عدت الى حرفة قديمة لأكسب قوتي اليومي حتى يفرجها الله » .

مرة أخرى شعر بنفسه عاجزاً عن نبش أعماقها الغامضة ، وعن فهم

التفاصيل التي تتقاتل داخل عينيها. سقطت دمعة. دمعتان. بكت كثيراً. أحس بإنهيارات في قلبه. تذكر اللحظة التي شاهد فيها لزرق ينزف، تنام في صدره رصاصات النمس. لم يصدق عينيه، ومع ذلك فقد كانت دموع لونجا حقيقة لا غموض فيها.

- «دمعتك غالية يا بنتي. بدوي خشن، لا أفهم بالغمزة».

- «غداً ستقاد الى السجن، وأقضي العمر لوحدي».

- «مسألة أيام لا تتجاوز الشهر. ثم هي ليست سجناً بالمعنى الدقيق ولكن مجرد حجز».

- «كلاب. ولا يرحمون».

- «على كل حال لم أقتل أحداً».

- «تصور. فقد عوّلت على الرحيل الى جبال جرجرة. الوحدة مرة، وغيبتك طالت».

- «الى هذا الحد قلبك ضيق يا لونجا؟؟؟».

- «لا. ولكن... يا الله. يا ربي تحفظ».

أغمضت عينيها. تمنّت من قلبها لو تنسى أنها حامل. لو تنسى أن صالح حين يغضب يطلّق الدنيا بأمرها. كلمته كبيرة، لا تنزل الأرض. لكن ماذا أفعل أنا البرانية قليلة الولي. أغمضت عينيها. مرت أمامها أسراب طيور مكسورة الأرجل والأجنحة، والمناقير. رؤوسها ملوية. تقاوم بعنف قبل أن تسقط على الأرض مضرجة، تردح في برك دمها.

شعر باللذعة التي تلتهم أعماقها حرقاً.

أحست بحيرته، وشروده ورغبته في فهم تفاصيل ذاكرتها.

- «كنت خايفة. سحنة الإمام ترعبني يا بابا صالح».

- «الأموات لا يأكلون. المسيردية كنت أتركها وحدها... (...)».

- «سحنة الامام تنظر إليّ كل ليلة بعينين غريبتين».

– « قلت لك المسيردية كنت أغيب عنها شهوراً وشهوراً ولا تدخلها ذرة خوف ».

– « المسيردية. مسيردية. ولونجا. لونجا ».

شعر بحماقته. إعتذر.

– « عفواً ولكن...؟؟؟ على كل حال إحنا ملاح. لماذا تريدين الذهاب؟؟؟ ».

– « بابا صالح!!! ».

هذه المرة قالتها بحدّة، متحدية لحظة الخجل التي وضعتها داخل دائرة مغلقة.

– « أنا حامل منك. بيديك بقائي أو ذهابي ».

– « نعم؟؟؟!!! ».

تسربت من بين أناملها لحظة التحدي. سقطت باكية على ركبتيها.

– « منك يا بابا صالح. وحق محمد. إنه إبنك ».

– « ... ... ».

– « عملتها معك. وجه الإمام مخيف. كل يوم أراه في المنام، بشعاً ومخيفاً. إنه مرعب يا بابا صالح. لم أكن أريد الزواج منه. قالوا أن رفضي، هو عملة شيطانية. ذبحوا عنزة سوداء وأفرغوا دمها على رأسي. ثم أوثقوني على سعفة نخيل نبتت بشذوذ على رأس جبل. بكيت حتى أغمي عليّ. عندما إستيقظت، غسلوني. كنت مرتخية كخرقة بالية. وضعوني داخل فراش حريري ورثه الإمام عن عائلة فرنسية. كنت مشدوهة، لكني أتذكر أني سمعتهم يقولون. لقد خرج بلحمر. خرج بلحمر. أنا حبلت منك يا بابا صالح ولم أحبل من غيرك. مزاجك صعب، لكن عليك أن تصدقني. أنا سكَورتك الصغيرة التي أفرغوا على رأسها دم العنزة السوداء ومسحوق عظام الموتى. لم أخن روح الإمام ولا لحظة واحدة بالرغم من كرهي له، لكن معك الرغبة كانت أقوى من قدرتي على مقاومة عينيك. كانت المرة

الأولى التي ذقت فيها طعم الذكورة والحنان.

منك يا بابا صالح. وراس عودك، منك حبلت... ».

شعر بشيء يسقط على رأسه يشبه الماء البارد، سرعان ما تحوّل الى معدن ساخن سرى في كل عروقه التي بدأت شعلة الحرقة تركبها. المسألة كانت صعبة، وربّما فوق أن تصدق، ولكنها مع ذلك مستساغة. لم يقل شيئاً. لفّ سيجارة جديدة من دخان الشعرة الذي يخبّئهُ دائماً تحت الوسادة. أخذ يتلذذ ويتلذذ بمذاق التبغ الشعبي؛ وقبل أن ينغمس في بكاء إستمر طويلاً، تذكّر طفولته، ورغوة حليب الأمومة المالح وعيون أمّه الواسعة، ورعونة أبيه البدوية وجلافته التي لم تعلمه إلا تهديد زوجته بالذبح أمام عينيه، وفقره الذي تآكل في عظامه. وأكواب الشاي، والحصيدة، والبرومي[1] الذي يقدد لحم الأرجل وقصعة الخشب التي صنعت من العرعار، كان حين يقربها، يشم من بعيد رائحة الزبّوج[2]. تذكّر تلذذه بفرقعات الجمار المتقدة، وتسخينه للخبز المرّ على الجمر. بانت له لونجا مثل أمه، صادقة الى حد الألم. فهي لا تعرف الكذب بتاتاً. يا سكورة. آه يا لونجا. أن نحب، معناه أن نكون قادرين على الدفاع عن هذا الحب حتى الموت. حتى آخر العمر. ونحن الفقراء يا بنتي أكثر الناس قدرة على الحب لأننا أكثر خلق الله تضحية وصدقاً. لا نسأل عن المصاعب، حين يتعلّق الأمر بالدفاع عن الأشياء الجميلة. عن البحر. عن البراري. عن أشجار التين والزيتون. عنك يا لونجا.

دغدغته فرحة ما مصحوبة بألم لم يدر مصدره. مسح عينيه الملتهبتين:

– «أنت متأكدة يا لونجا؟؟؟ ».

قالها بفرحة مشوبة بألم ظاهر.

---

(١) الحصيدة.

(٢) نوع من الخشب، حاد الرائحة.

- « متأكدة مثل وجودك الآن. سنذهب الى الطبيب إذا شئت. إسأل ماما عيشة، فهي تعرف كل هذه الأمور. فقبيلة بني هلال بأكملها نزلت على يدها ».

- « ماما عيشة على بالها ».

- « شافتني. وقالت أن دوختي ليست عادية ».

مسح عينيه بكلتا يديه، كطفل يغالبه النعاس. شعر بالعصافير المحجوزة داخل قفصه الصدري تنط كالأرانب. تتكسر أغلالها، فتنطلق حرة بإتجاه الفضاءات الواسعة التي لا ينتهي إمتدادها.

هاه يا بابا صالح يا آخر سلالة المجانين. هي لذة البقاء الخارقة التي يحرقك غيابها من الداخل. تصوروا يا عباد الله الطيبين، عائلة المجانين تُبعث من جديد؟؟؟. النور بدأ يدخل محاجر عيون موتى بني عامر. روعة التناسل والإنجاب التي لا تقاوم. آه يا صالح يا آخر أشقياء السلالة. صدّقوا، أن ما تسمعون بحدوثه في آخر العمر هو صحيح، فلونجا تصدق حتى ولو هُددت رقبتها بالذبح. الأنبياء يموتون ولا يكذبون. ها قد جاء الذي سيقتل بني كلبون ويعيد بناء أمجاد قبائل إندثرت على ما تبقى من ركام. قبيلتنا كانت جزءاً مهماً من شراسة بني هلال. لكن الزمن دار عليها فطحنها كما تطحن هذه الأيام قلوبنا وأعطيت وقتها تفاسير عدة لهذا السقوط المريع، لكن الموت ظلّ يحصدها حصداً حتى كادت تنقرض. فالأوّلون وهم صفاء السلالة أكلتهم الزلازل والمجاعات وأمراض التيفوس التي إجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف. وصرع الجنون البقية المتبقاة. والدنيا سائرة دائرة. ها. ها. ها. ها. ستسقط نبوءة سيدي علي التوناني. سيكون هذا الجيل الذي سأرثه من رحم لونجا قمة نقاء هذه السلالة لأنه وُلد من الفقر وفي الفقر ولحظة الفقر. من كان يقول أن ضربة التبن الغامل وشكارة الخيش، والرحبة الدافئة تعطي هذا المخلوق الذي سيكون حتماً جميلاً ورائعاً. والله يا صالح. يا المالحْ. يا السارحْ. من قال تْكوُنْ فَالَحْ. تسرق ما تندم. اللي يجيبه الليل يأكله النهارْ. كالذيب تتشمّم، ما خلّيتّ لا

زريبة ولا دارْ. إيه يا صالح. يا السارح. من قال تكون فالح.

تذكَّر أمَّه الطيبة التي كانت تفاجئه بهذه الكلمات كلما قام بعمل جيد. إرتسمت على شفاهه التي عاد لها لونها الآجوري، إبتسامة أشرقت كنجمة إخترقت برودة الغيوم الكثيفة. ياه. الدنيا شحال دوّارة. مسح العرق من على جبهته. في آخر العمر يا صالح. يا السارح. تستعاد الأبوة المفقودة. تعالي يا لونجا. تعالي يا إبنتي تعالي. لن أرفض هذا الرحم الذي إستقبل نطفتي المتعبة بسخاء البدو الطيبين.

كانت هادئة. لم تقل شيئاً. تتأمل التحولات التي كانت تخضع لها أعماقه، وتنعكس على قسمات وجهه. بانت له عيونها طفوليتين. شعر بذعر يلذعه من الداخل.

– «إيه يا بنتي. عشنا تفاصيل الحياة بعمق. نرفض أن نكون تافهين ونرفض التافهين، أرفض أن أستغل حنانك وحبك وعطفك ووحدتك. أنا لست غولاً. كنت طيباً معك لحظة التبن. وسأكون بدون تبن. سأقف معك. ونبحث سويّة عن أهلك الطيبين. أنت طفلة يا لونجا وأنا في سن أبيك. بلاد القبائل واسعة والفرسان التي تتقاتل من أجل عينيك كثيرة».

– «أنت تهرب يا بابا صالح. عليك فتحت عيني. أنت أبي وأمّي وراس عودك أنت حياتي بأكملها. أنا كبرت على فراش الطاعة بينكم. لست طفلة تلحس إصبعها، يا بابا صالح وأنت تعرف ذلك جيداً».

– «آخر كلب في البلدة سيقول بأني فرضت عليك جثّتي المتآكلة».

– «اللي يسمع لكلام الناس تقتله الفقعة. أنت أكبر من هذه الخلائق الحشرية».

– «أخاف عليك منهم».

– «يا سيدي لا تخف عليّ

– «أعتقد يا بنتي بأني مريض بالقلب، وهذا المرض ورثته عن

المرحومة أمّي قبل أن تتلف الحشائش الضارة والأزهار البرية قبرها . ومع ذلك . فهذا أمر تافه بالنسبة لي . فالمرء في بلدتنا يستطيع أن يعيش طويلاً وهو مصاب بمرض القلب ».

– « قلبك واسع سعة البحار . واللي مثلك فوق المرض ».

– « غلبتني يا لونجا . والله غداً سأقولها على الملأ . سنزوج ، وسننجب قبيلة من الأطفال ، وقارة من البنات الطيبات . إبتسمي والبقية تأتي . إبتسمي وطزّ في كل الذين يكرهونك ويكرهونني . سنجد شغلاً ونبني من هذا الركام حياة رائعة . إذا لم يكن البراج ، سأتحول الى حطاب . فالغابة قريبة وأعرفها جيداً . قلّبتُها شجرة شجرة ، وبرعماً برعماً في الزمن الذي مضى مثخناً بالجراح . لن نموت جوعاً . تيقّني يا بنتي أن الأرض واسعة وسائرة دائرة . صحيح أن حارس الغابات سيتعقّبني . لكني سأضمن حياتي على الرغم من متاعبهم . أنا مندهش من هذه المادة الصلبة التي صنعتِ منها؟؟؟ قلبك حائط ضخم لا تقوضه عوارض الأيام . مدهش ومخيف . تصوري من كثرة خوفي عليك ، كدت أن أكسرك مثل آنية ثمينة لولا قوتك التي لا تقهر . أنا أعبد في عينيك هذه القدرة الخارقة على إقناع النفس بضرورة المقاومة حتى آخر رمق ».

بدأ العرق الذي برد على جسدها المنهك يسخن . إنتعشت أفراحها من جديد . تحولت الى عصفور صغير بريشات ملّونة ، بألوان قوس قزح الجميلة . أخذت تطير هنا وهناك كالفراشة . لكن الدمعات المحرقة المحرجة ، ظلت مستقرة كالجمرات في محجر عينيها .

– « سأكون بجانبك طول العمر يا بابا صالح ».

– « مقطوعان من شجرة واحدة يا بنتي ».

في الفراش وهما يتذوقان طعم الملوحة وجمال الارتقاء إلى أعالي الأشياء ، برغبة الإندماج بها ، ويستمعان الى شخير لزرق المنتظم ، وإلى الأمطار التي بدأت نقراتها تسقط على أسطح الزنك بقوة . ذكرته بكل

الأشياء الجميلة التي بدأت تنقرض. وقبل أن تترك شعرها يتزحلق على ذراعيه الخشنتين وتسبل أجفانها بتعب، تذكرت حكاية البراج. كانت المفاجأة الثانية التي تخبِّئها له في هذا الليل. الشغل سيبتدىء غداً. والبراج قلبه واسع ضم كل ناس البلدة وخارج البلدة. ذكرته بأن إسمه مسجّل لدى دار البلدية ويمكن الإلتحاق بالعمل في أية لحظة. فالكتاتبي فعل كل شيء، الله يكثّر خيره.

- «بمجرد الإنتهاء من التحقيق، سألتحق بشغلي. الله يكثر خيرك وخير الكتاتبي. سيشفى لزرق، وسنخرج مع بعض الى البراري. ببلدتنا أماكن رائعة، لا يصلها إلا لزرق يا لونجا. نحب الحياة من جديد. فهي ما تزال جميلة. نحب الجبال التي لم تحن رأسها لأحد. خضرة الغاب. نحب الأطفال الذين ولدوا في الخلاء وفي (الحصايد). نحب القلوب التي لا يتوقف نبضها. طنين مهاريس البلدة الذي ما يزال يملأ أدمغتنا. نباح الكلاب والديكة وثغاء الخرفان. نحن لم ندخل في السياسة هي التي دخلت فينا. وحين نتعب، ندرك كم أن الحياة جميلة وتعاش لمرة واحدة ووحيدة. سنتزوج أمام القاضي وجميع خلق الله الطيبين. نمارس الجنس بحرية. فالجنس حالة روحية أكثر منها حالة جسدية. ستعملين أنت كذلك. فالأشغال في البراج كثيرة، ومسؤولي الشركات الأجنبية لا يبحثون إلا على اليد العاملة الرخيصة».

- «أنا مسجّلة يا بابا صالح. سأعمل بجانبك حتى إذا تعبت، إرتحت، وإرتحت أنت معي».

- «فمك لربّي يا بنتي».

عليك وعلى الله يا الجازية. أنت أردت وأنا لم أرفض. المسؤولية نتحملها مع بعض. لن أكون الملك البرمكي حتى أستغل ضعفك لأفرض عليك جثتي. البرمكي يبيع أمه من أجل فرج جميلة. وأنت جميلة يا لونجا لن أجبرك على معانقتي إذا لم تكن الرغبة نابعة من أعماقك. ولن أقول لك يا الجازية، مثل ما قال لك أبو الجود وزير البرمكي. إلعبي برأس

السلطان. تدلّعي عليه. وإذا وقع في حبّك إجهزي عليه وتزوجيني. شوفي يا لونجا. كل واحد يسيل لعابه عليك. أنا الآن بدأت أفهم، يا الجازية، لماذا دخلت على البرمكي ومعك شيبان متنكراً. وأنت تجهزين على السلطان أضحكك كلام أبي الجود. دوّخيه وبعدها أقتليه ونتزوج ثم نقيم أحد أولاد إخوتك حاكماً على البلاد. وجلس الأمير البريقع ابن السلطان حسن ابن سرحان أميراً وملكاً وشيبان وزيراً وذهبت أحلام أبي الجود مع الريح، وبقيتِ الجازية، كما خرجت من بلاد نجد، تحلمين بمسح الدم الذي يلطّخ ملابسك، حتى أكل رأسك سيف دياب. بدأت أفهم الآن. آه يا لونجا يا بنتي. تيقّني، أني لست البرمكي ولست أبا الجود. لا يعشقك إلا إذ ضمن قلبك الطيب. فبينك وبين إبنة سرحان شبه الدم والنجوم.

– «عيناك فرحتان يا بابا صالح. تفكر في الجازية. في التبن. في الدار. وحق محمد سأكون الجازية التي تخدم قلبك بقية عمرها».

– «والله يا لونجا ربّيتِني. الله يجيبها في الصواب».

– «أنت خايف».

– «لا والله. ربّما كنت فرحاً. فالآن أصبح لي مبرّر في السجن وفي العمل. فهذا الكائن الآتي عليه أن ينعم بما لم ننعم به نحن. وستنهار الغولة، وتعود سوالفك الى عاشقها الذي إحترق من أجل أن تحافظ عيناك على سوادها الجميل وإتساعها الذي لا يحدّ».

– «ربّما يخرجونك بفدية؟؟؟».

– «كلش على النمس. ولا يستبعد أن يثقل كاهلي بالفدية. وعلى كل حال، فأنا أفضل السجن. وتيقّني، أني في هذه المرة لن أدخر جهدا لفضحهم واحداً واحداً وبدون إستثناء. قد أنقل الى سجن تلمسان الكبير، وإذا كبّرها النمس سأفضح علاقته المشبوهة مع السبايبي، ورئيس البلدية، وإختلاط أياديهم في إغتيال بودلخا الله يرحمه. لدي في موح الكتاتبي أكبر سند، فهو بدوره مصمم على الذهاب وراء القضية حتى العاصمة ومهما كلف الأمر. معه أوراق كثيرة وتسجيلات موح. سيأكلون

رؤوسهم وملح جلدهم. ستكبر القضية. خلّيها تتفرقع عليهم (الله لا يردّ واحد فيهم). فهو مثل عقد رخيص، إذا انفرطت (عقيقة) واحدة تتابعت الأخريات. نامي يا لونجا. نامي وغداً يفرجها ربّي».

كانت عيونها متعبة وجسدها جمرة.

- «نامي. غداً ستعرف ماذا نقول».

ثم أخذ يدندن في أذنها ورأسه مدفون في شعرها. رائحة الحنّاء. الكحل. ومذاق عود النوار والمسك:

رَاري يا بنْتي رارْ.
غدًا[1] يفرّج ربي / ونبني لَك دارْ.
غدًا يغيب الليل / ويبان النهارْ.
راري يا بنتي رارْ
بلادنا كبيرة / وأحنا صغارْ
اللي ما كلاه البرّ فينا، كلاتْ النارْ
راري يا بنتي رارْ.
غدًا ندير الجناح / ونطير لبعيد
نركب بوبركات / نكسر قيد لعبيد
راري يا بنتي رارْ.
غدًا يغيب الليل / ويبان النهار(...).

• • •

- ٣ -

صاحت الديكة المنهكة صباح الأحد. صيحات الفجر الأخيرة. أطلّت من وراء غيوم خفيفة، وشمس نصف خجولة جبال مسيردا العالية ببياضها الناصع، وبساطتها الخارقة التي إمتزجت بشموخ دغدغ أعماق صالح بن عامر الزوفري. الأمطار التي تساقطت طوال الليل لم تستطع إذابة كل

الثلج الذي كان يملأ الحارات والأزقة الضيقة والأماكن المظلمة التي لا تصلها الشمس. في البساتين التي تحيط بالبلدة، ظهر على أغصان شجيرات اللوز نوار أبيض، صغير، كان يبشّر بربيع جميل. حتى الحركة التي إنقطعت، عادت الى دورتها القديمة منذ الصباح الباكر.

بدأت ميسردا تستيقظ فاتحة عيونها بعياء وتغوص بأقدامها الخشنة في الوحل الذي إختلط بقطع الثلج المتصلّبة. لم يعد «البومنتل» صالحاً، إنتعل الناس «البوطات» البلاستيكية الكبيرة. وبدأت الأحصنة والحمير، تملأ الطرقات، في طريقها الى سوق البلدة الذي لا يفتح إلا أيام الآحاد. عجائز. نساء حرقن سن الكهولة والفحولة. الأبقار الأغنام. ثغاء الحملان الجديدة التي ولدت في الزرائب التي غطتها الثلوج. كعادتها فتّحت، ورزّقت، ماما حنّا عيشة وهي ملتصقة وراء بقرتها الرخلة الوحيدة. تتدلى من إحدى يديها سلة قصبية تتلقف بها الروث، حتى قبل أن يصل الأرض. كانت ذاهبة ببقرتها الى الحقول التي تكاد تغطي عيون ميسردا، حيث تهتزّ على الهضاب الصغيرة المحيطة بالبلدة، شجيرات اللوز العملاقة وتتمايل. تصل أغصانها الى الأرض. تتشرب جمالها، ثم سرعان ما ترتفع في إنتظار نسمة صباحية جديدة. الكثير من أهل البلدة توجهوا الى الوادي في محاولة قد تكون يائسة لإزالة الوحل الذي يغلق عيونه ومجاريه ويدفعه الى الفيضانات مثلما حدث السنة الماضية. الناس فرحون، لكن في أعماقهم رعشة خوف، لذلك تراهم كل فجر يقومون ويشتغلون بحثاً عن العطل. ربّما كانت كل العملية عبثاً، لكن هناك شعور غامر ينتاب المرء وهو يعمل حتى ولو كان عمله دون جدوى، عكس أن يبقى ينتظر واقفاً يبتهل لإله لا يستجيب، وينتظر هيجان الوادي وفيضانه. حتى أتعابهم في الفترة الأخيرة بدأت تغيب وسط صراخات الأطفال الذين لا يأبهون بشيء ومع ذلك فهم مصممون على الذهاب وراء المسألة حتى النهاية. أملهم الكبير كان في نوار اللوز الذي بدأ يملأ رؤوس الأشجار بعد ذوبان الثلوج.

الطريق الذي يمتد نحو السد إمتلأ بالعمال الذين حملوا فؤوسهم ورفوشهم

عــلى ظهورهم وزوادات الغـذاء ، وأحذيتهم البلاستيكيــة الطويلـة ، وأقمشتهم الخشنة . على وجوههم ترتسم فرحة خجولة ، إنتظرت زمناً كبيراً حتى كادت تتحوّل الى دمعة يأس . حتى سيارة الدرك الوطني والجمارك ، التي مرت بين أشجار اللوز وجدت صعوبة كبيرة في أن تصطفّ قرب بيت صالح بن عامر الزوفري . كان الأطفال يجرون وراءها . يدفعونها بكامل ما أوتُوا من قوة وقدرة على الضحك والصراخ . حين تسقط عجلاتها في الدوران الفارغ ، ويدفعونها من جديد . يلتصقون بمؤخرتها ويصيحون ملء أشداقهم وحناجرهم .

– « الديوانه جاوْا . الديوانه جاوْا . الديوانه جاوْا » .

وقبل أن تجد لها مكاناً مناسباً قرب البيت ، وينزل منها النمس بعيونه الصغيرة ، مدّ صالح رأسه من وراء الباب الخشنة الثقيلة . فهو يعرف صوت سيارة الديوانة والجندرمة من بين ألف صوت .

التفت إلى لونجا وكأن المسألة لا تعنيه كثيراً .

– « ها هم جاوْا . قلت لك يا لونجا . أنا أعرف كل عــاداتهم » .

مدّ عنقه نحو الإصطبل . ألقى نظرة أخيرة على جرح لزرق الذي فتح عينيه بكامل إتساعها . هزّ رأسه ، رفعه عالياً ، ثم تركه ينزل بهدوء على كومات التبن التي أفرشها له صالح . تحرّك قليلاً ، لكن سرعان ما أستشعر الدفء فأغمض عينيه في محاولة ما ، لنسيان ألم الصدر .

إلتفت صالح بن عامر الزوفري الى لونجا . كانت تقف وراءه مشدوهة . عيناها المكتحلتان زاد إتساعها على غير العادة . شفتاها الجميلتان ، تعطيان الرغبة في التعبد للأشياء التي تثير دهشة فضولنا .

وجهه البارد لم يتغير . ظل محافظاً على شموخه وعلى خطوطه المتسمة :

– « كنت أعرف أنهم سيأتون مع الصبح يا لونجا » .

– « واش نقول لك . إتهلاّ في روحك » .

نظرت إليه . دمعت عيناها . كانت شبه صامتة . داخلها يتمزق . تنظر

للكائنات التي تجمدت في حضرتها ولم تعد قادرة على التحرك. الجمر. القهوة التي بدأت تغلي حتى فاضت فسكنت. التبن. الديك الذي لوى برد الشتاء رقبته. الحجارة البارزة التي تعطي الإحساس بأن الحائط بني بشكل أعوج من البداية. الأبواب الخشنة التي تآكلت. نقرات الأمطار التي ما تزال حتى اللحظة تملأ آذانها. بقايا قناني الشراب المبعثرة هنا وهناك. الفلفل الأحمر المشوي الذي يبس على أسلاك نشر الغسيل. الحمامات الكئيبة التي تنزل على الدالية اليابسة ثم تطير الى أماكن مجهولة.

شعر بلحظة الحزن، تأكلها من الداخل كالسوسة.

– «لن أمكث كثيراً. شهر على أكثر تقدير».

– «أحرس نفسك منهم».

– «إطمئني يا لونجا. عندما اعود. سنتزوج رسمياً ونلتحق بالسد».

– «سأفعل كل ما يرضيك يا صويلحي».

– «إتهلّي لي في روحك وفي (...) إلتحقي بشغلك إذا إستطعت وكوني إمرأة».

فرّت من أعماقها إبتسامة شبه مرهقة. كان شعرها ما يزال مبعثراً. وعيونها الجميلة نصف مغمضة. حتى الشدّة القبائلية لم تكن كافية لشدّ كثافة سوالفها.

– «الذي بيننا يا بابا صالح فوق الخوف، وفوق الأتعاب. سألتحق بشغلي».

– «لا ترهقي نفسك يا لونجا. فكري في الطفل».

شعرت بضرورة الخروج من دورة الحزن. إنها اللحظة الأخيرة، ولا يدري المرء ماذا ينتظره بعدها.

– «هل وصل خو لونجا وسقط العود بوبركات».

– «العود بوبركات يا بنت الناس ما يزال قوياً كهذا الحب الذي أكنه للونجا. حين نأخذ العطلة من العمل في السد، سننزل الى بلاد القبائل

الواسعة بطفلنا يا سكَورتي ، ونبحث عن أهلك يا لونجا . وسنقول لهم أننا تزوجنا على سنة الله ورسوله . ونخبرهم بوفاة الإمام ».

أحنت رأسها . دمعت عيناها . وقبل أن يطبع قبلة حارة على جبينها ويلبس معطفه الخشن . ويحمل الشمة الورقية والكبريت والزرواطة ، سمع شخير السيارة يتوقف نهائياً ويتكاثر الدقّ على الباب . وصياح الأطفال الذين تتفجّر طفولتهم البئيسة في مثل هذه الحالات .

– « بسرعة يا موح وإلا إقتحمنا الدار ».

– « العمى!! وقت الإستعمار؟؟ . أنا جاي . إسمعي يا لونجا ، كما اتفقنا إذا خفت ، روحي عند ماما حنّا عيشة حتى أعود . فقلبها واسع ».

– « وين راح ياخذوك ؟؟؟ ».

– « ربّما أبقى هنا في مسيردا . ربّما الى تلمسان إذا شاء النمس أن يكبّرها . كلها أيام قليلة . خلّيتك بخير ».

إنزلق من بين يديها . تتبّعته بعينيها اللتين زاد إتساعهما . ليست تدري كيف إستساغت الموقف ربّما لأن عودة بابا صالح أصبحت شبه مؤكدة . فتح الباب التي كانت تهتزّ تحت ضربات يد النمس الخشنة . وقبل أن يخرج وتلتهمه السيارة والصراخات ، إلتفت وراءه . رأى دموعاً ملتهبة تحترق في عيني لونجا . تذكر الجازية التي غيّبتها الهموم عنه . هه ، يا الجازية ، سأذهب ، ولكن تأكدي ، أني حين أنجب أولاداً سأحكي لهم عنك وعن محيطك وعن الأيام التي عذبتك وكادت تشوهك مثلما شوهتني . صدقيني . كنت مصمماً على الرحيل الى بلاد أخرى ، لأن أرضنا أصابها القحط الذي غزا بلاد نجد ذات زمن بعيد ، لكن عيونك التي إحترقت في عيون لونجا منعتني من إرتكاب الحماقة الكبرى . أنا لست قواداً ولا عبداً نذلاً مثل أبي زيد الهلالي الذي شرب ماءنا وأكل ملحنا وسبقنا إليه ملوك بني هلال . الخلاف بيني وبينه يا الجازية ، وأنت سيدة العارفين ، هو أن مصلحته كانت مع ملوك نجد بينما ظلت مصلحتي في عمق عينيك اللتين اضطهدهما كبار الهلاليين ، ومع لونجا وروميل وماما حنّا عيشة والذين حين تهبّ الأرياح

يخافون على أسطحهم الزنكية قبل أن يخافوا على أنفسهم.

آه يا الجازية. هذه المرة سأكون مثلك. بقدر ما يقسون علي، أزداد تصلباً وقوة حتى ينوّر اللوز، وتعرفين أن اللوز حين ينور، يكون الربيع قد بدأ في فتح عينيه. وحق محمد، سأكون مثلك. سأكشف كل أوراقهم الخيفة وعظام الشهداء التي حوّلوها الى متكآت كراسي مزخرفة، ولوكلفني ذلك حياتي العزيزة. الكتاتبي ولد شهيد. ولن يخون دم والده. سيقولها أمام الملأ وسيفضح أسرارهم. دموعك يا الجازية. يا لونجا، غالية. غالية جداً. لقد بكيتِ بما فيه الكفاية. وإذا لعبوها على رأسي وحكموني في المصالحة مع الزناتي خليفة، سأحمل سيفي وأنزل الى الساحة مثلما نزلت أنت مع النسوة، حين خاف القوم من شراسة الزناتي، وتراجعوا.

« هذه المرّة إمّا أطوّف بهم القوارب أو أغرق ».

فاجأه النمس بعينيه الصغيرتين وبخدّه المجروح. كانت الضماد البيضاء ما تزال تغطي وجهه.

- « الفنطازية والمزّية يا السي صالح ».

- « لا فنطازية ولا أي شيء. لم أرتكب جرماً. وليس لدي دين عند أي واحد فيكم. وبيننا القانون يا السي النمس ».

- « هه. هه. يبدو أنك أنت اللي تسطّر القانون ».

كشر عن أسنان دقيقة وصفراء / مصطفة بشكل مزعج. كشف عن قسمات حديدية أظهرها أكثر. البرد والثلج.

- « تدوس على كسوة الحكومة وعلي ولا تخاف ».

- « .... ».

- « تمرّغ العلم الذي سقط من أجله الشهداء في الوحل ».

- « الله يرضى عليك. خلّ الشهداء يرقدون. أنا دست على اللي يأكلوني من عينيَ وأنت جرحت لزرق جرحاً بليغاً ».

- «هه. عشنا وشفنا. أنا في مرتبة حيوان أجرب».

- «لزرق ليس حيواناً. ولو مات. لكان بيننا حديث آخر يا السي.. النمس».

- «تهددني يا صويلح».

قالها بسخرية. ثم رفع كفه، وقبل أن ينزل به على وجه صالح، مرت برأسه ألف فكرة دفعته الى إعادة دفن يديه في جيبه. كان صالح ما يزال واقفاً بشموخ كقمة جبل. لم يقل شيئاً. عيناه ظلّتا غائرتين ووجهه مكدوداً وصلباً كقطعة حديد خشنة.

- «مكانك يا النمس. بيننا القانون. تمسّني والله يسيل فيها الدم».

تحسس النمس لا شعورياً مسدسه. يبدو أن فكرة جديدة مرت برأسه، لكن سرعان ما ألغاها. أحنى رأسه ثم سبقه الى سيارة لاندروفير. في اللحظة ذاتها مرّ السبايبي قرب الدار كعادته كل صباح أحد ليتسوق. وقف لحظة. التقت عيناه بعينيّ النمس الذي حيّاه بحركة ذليلة:

- «صباح الخير سيدي الحاج».

لم يردَ عليه. ولكنه تأمل صالح بن عامر الزوفري من أخمص قدميه حتى قمّة رأسه. إبتسم إبتسامة صفراء ثم لكز عوده وتوجه الى السوق.

إمتعض صالح. شعر ببراكين الحقد تأكله.

- «الكلب ابن الكلب يستشفى فيّ. وحق محمد ستعلق من أشفار عينيك».

الغريب في الأمر، هو أن الحالة الداخلية التي شعر بها وهو واقف أمام سيارة لاندروفير، لم تتغيّر بين البارح واليوم. بين موح الذي يحمل على صدره أوسمة ملونة وعلى رأسه خوذة حديدية وبين النمس الذي ينتعل حذاء خشناً مرعباً ويلبس لباساً يميل نحو خضرة الغابات.

حزّه المنظر في أعماقه. ركب السيارة. قبل بعينيه كل الأطفال الذين كانوا يحيطون بالسيارة. جلابيبهم ممزقة. وأنوفهم ألهبها المخاط، ووجه

لوجا الذي كان يطلّ عند فتحة الباب، ورومل القهواجي الذي ظلّ متسمراً في مكانه، ببوطه الطويل المتسخ بالوحل حتى العنق، ورفشه، وقامته الفارغة، يعصب رأسه بخرقة قماش بالية.

إبتسم صالح بن عامر الزوفري، إبتسامة صفراء وكان قد جلس على المقعد الخلفي في لاندروفير.

- «صباح الخير يا رومل، كيف هي صحراء العلمين».

- «الحمد لله على السلامة».

- «يا أخي مالك زعفان».

- «إيه يا صالح، تذكرت، الله يرحم الشهداء».

في تلك اللحظة بالذات، قبل أن يضع رومل القهواجي الرفش على ظهره وينصرف، جاءه طفل متسخ، يجري، وجهه وأنفه ملتهبان، كسوته الممزقة يملأها الوحل.

- «عمي رومل، عمي رومل فتحوا عيون الوادي المعلقة، الماء بدأ ينزل».

نظر احميدا القهواجي الى السماء، دمعت عيناه.

- «أأفرح وإلا أبكي يا صالح».

- «إفرح، أحسن ما تضيع القرية بأكملها مثلما حدث السنة الماضية»

فكّر أحميدا بالصراخ، أن يوصل خبر الوادي الى كل أركان العالم والحيوانات والأطيار والحمامات التي تعودت خشونة يديه، لكن شيئاً في أعماقه منعه من ذلك، كانت ماما عيشة قابلة القرية، قد عادت، بعدما ربطت بقرتها في المرعى الذي علت فيه شجيرات الجرجير، ودقّ المهراز، والحشائش الدقيقة، تحاول بجهد ظاهر، أن تفتح عينيها المعمّشتين، وقفت بجانب السيارة، يدها على قلبها، لم تكن لها القدرة على التفكير، وعلى فهم ما يحدث بالقرب من عينيها، موح الكتاتي الذي كان ذاهباً الى السوق

أوقفه فضول الناس ،وتمتمتهم . نظر الى وجه صالح مع إبتسامة عريضة ، إرتسمت على محيّاه الجميل :

- « عمي صالح صباح الخير . خير إن شاء الله » .

- « كالعادة . هما هما . وأحنا ، أحنا » .

- « عمي صالح أنا معك حتى الموت . أطلبني ستجدني » .

- « الله يكثّر خيرك يا الكتاتبي . أعرفك ابن الرجال » .

مازحه موح الكتاتبي بنوع من الجدية التي إلتقطها صالح بقلب مفتوح :

- « حكاية الغولة . تعرفها . سأفرقعها في أول فرصة . كل التفاصيل معي » .

- « خلّيك ولد قويدر الذي لم تقهره كل آليات بيجار وديغول » .

ضحك الحاضرون .

- « غداً إن شاء الله سأنزل الى وهران » .

- « هكذا نحبّك » .

- « إيه نسيت أقول لك . قيدت إسمك مع شغيلة البراج .

- « رحمة ربي واسعة يا وليدي » .

تحرّكت السيارة بصعوبة قبل أن تصل الطريق المزفّت ، أو طريق « النصارى » كما يسمونه . طار الوحل على وجه الأطفال والحاضرين وحين إختبأت بين شجرات اللوز العملاقة وبين أغصانها الكثيفة ولم يعودوا يسمعون إلا شخير محركها وهي تبتعد ، تفرق الناس وعادت القرية الى ممارسة طقوسها القديمة وعاد ناس البراريك الى مناوشاتهم . ظلت صورة العمال تملأ عينيه اللتين دخلتها مسرّة أليفة . تأملهم . فؤوسهم ورفوشهم على ظهورهم . تتراقص بينهم كلمات جميلة لم تدر أين تستقر ، وترتفع في أعينهم أغانٍ بدوية تثير الدهشة ، حتى غابوا عن نظره نهائياً في المنعرج . ولم يعد يرى إلا الثلوج المتراكمة على القمم ، والأمطار التي تحولت الى خط يربط

السماء بالأرض. دغدغته السهول الواسعة التي تمتدّ بدون حدود. وأراضي السبايي الموضوعة قيد التأميم وأشجار اللوز التي بدأ نوارها يخترق نتف الثلج العالقة بالأشجار، وبقايا أغنية لونجا الجميلة التي أخذت تملأ خواء حضوره وتلوّن هذه الأمطار بألوان قوس قزح الذي إرتسم فجأة على عرض السماء. إبتسم إبتسامة خجولة ثم غفا على هزّ السيارة ونقرات الأمطار ووجه لونجا الذي إختلط بوجه الجارية:

« سر جوالي عودي والخله
نلحق عليهم في الدخلة... ».

●الجزائر / دمشق/يناير ١٩٨٢.

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان . بيروت ص . ب ١٤/٥٦٣٦

الثمن ١٣ ل . ل